

الثلجُ الأسود

BLACK ICE



YOUNG SHERLOCK HOLMES

الشاب

شامروك هولمز

أندرو لين

ANDREW LANE



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الثلج الأسود

BLACK ICE

الشاب
شابلون هويلز

أندرو لين

ANDREW LANE

ترجمة

جولي صليبيا

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



دار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. sa

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

ICE BLACK

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Books Children's Macmillan

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون،
ش.م.ل.

Lane Andrew by 2011 © Copyright

All rights reserved

Arabic Copyright © 2015 by Arab Scientific Publishers , Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2427-8

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. 

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: (1-961+) 785107 - 785108 - 786233

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: (1-961+) 786230 - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو
الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة

أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات،
واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية
للعلوم ناشرون ش. م. ل

صورة الغلاف: Elnur © Fotolia

تصميم الغلاف: سامح خلف

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

الفصل الأول

سطح نور الشمس على سطح الماء؛ مرسلًا ضوءاً وامضاً في اتجاه عيني شارلوك، فطرفهما تكررًا، وحاول إبقاء جفنيه نصف مغمضين للتخفيف من وهج الضوء.

بينما تمايل قارب التجذيف الصغير الذي يجلس فيه برفق وسط البحيرة، فيما ارتفعت حوله الأرض المعشوشبة من كل الاتجاهات، مغطاة بعدد قليل من الأشجار والأجمات؛ فبدت البحيرة وكأنها وسط وعاء أخضر، فيما زرقة السماء الخالية من الغيوم بمثابة غطاء فوقها.

جلس شارلوك في الجهة المقوسة من القارب وقد أدار وجهه نحو الخلف، فيما جلس أميوس غروي في مؤخر القارب. وأدى وزن غروي الزائد إلى غوص القارب حيث يجلس تحت الماء، بينما ارتفع نحو الأعلى حيث يجلس شارلوك. وكان غروي قد أمسك بقصبة صيد ورفعها فوق سطح البحيرة، فبدأ خيط رفيع متصل بطرفها متدلياً نحو الأسفل، بينما طفت على سطح الماء كتلة صغيرة من الريش؛ إنها طعم، وقد تبدو مثل الذبابة بالنسبة إلى سمكة جائعة. وبينهما، في قعر قارب التجذيف، ارتاحت سلة فارغة مصنوعة من القش.

سأل شارلوك باستياء: "لماذا أحضرت قصبة واحدة فقط؟".

أجاب غروي بلطف، وقد ثبتت عينيه على الطعم الطافي فوق سطح الماء: "هذا اليوم ليس ملائماً للصيد مثلما يبدو، ولكنه مناسب لتقديم درس في مهارات الحياة".

تمتم شارلوك: "كان يجدر بي معرفة ذلك".

أضاف غروي: "ورغم ذلك، تراني أحاول تأمين وجبة طعام العشاء لي ولفرجينيا. فأنا دوماً أسعى إلى أن يكون ما أفعله ذا منافع متعددة قدر الإمكان".

قال شارلوك: "أيجدر بي إذاً الاكتفاء بالجلوس هنا، ومراقبتك وأنت تصطاد الأسماك لعشائك؟!".

ابتسم غروي مجيباً: "يمكنك قول هذا؛ نوعاً ما".

"وهل سيستغرق الأمر الكثير من الوقت؟".

"ذلك يعتمد...".

"علام؟".

"على ما إذا كنت صياداً ماهراً أم لا".

سأل شارلوك: "وما الذي يجعلك صياداً ماهراً؟". وأدرك تماماً أنه يعطي أهمية لما يقوله غروي؛ ولكنه لم يستطع السيطرة على نفسه. لكن، بدلاً من أن يجيبه، قام غروي بلفّ البكرة النحاسية ذات المقبض العظمي في الجهة التي يمسك بها من القصبه، وسحب الخيط ببراعة، فقفز الطعم المكسو بالريش خارج الماء وتدلّى في الهواء، فتناثرت منه قطرات متألّثة من الماء قبل أن ترتطم بسطح البحيرة. أرجع غروي القصبه إلى الخلف، فتدلّى الخيط فوق رأسه، وأصبح الطعم غير واضح أثناء تحرّكه. ثمّ دفع القصبه إلى الأمام مجدداً، فاتخذ الطعم شكل الرقم 8 تحت السماء الزرقاء وهو يحلّق فوق رأسه ويرتطم بسطح البحيرة في مكان مختلف، مصدراً صوت رذاذ ماء خفيفاً.

راقب غروي مبتسماً الطعم وهو يغوص تحت الماء، ثمّ قال: "يعرف أي صياد ماهر أن الأسماك تتفاعل بطرائق مختلفة؛ حسب درجة الحرارة والوقت من السنة. ففي الصباح الباكر في فصل الربيع مثلاً، لا تأكل الأسماك الطعم أبداً. إذ تكون المياه باردة، ولا تسخن كثيراً لأن الشمس منخفضة وترتدّ أشعتها عن سطح الماء، ولهذا تكون الأسماك بطيئة الحركة. إذ إنّ دم الأسماك البارد والمتأثر بالبيئة المحيطة بها يتدفق ببطء. لذا، يجب الانتظار حتى أواخر الصباح أو بداية فترة بعد الظهر لتبدأ الأمور بالتبدل. فحينها، تقضم الأسماك الطعم بشكل متقطع لأن الشمس تسطع على سطح الماء فتجعله أكثر سخونة، وبالتالي تجعل الأسماك أكثر حيوية. لا شك في أن الرياح تدفع المياه السطحية الأكثر سخونة، ومعها الذبابات الصغيرة والكائنات الأخرى التي تقتات منها الأسماك جانباً. وعندها، يتوجب على الصياد مجاراة تلك الحركة؛ إذ لا جدوى من الصيد حيث المياه لا تزال باردة، أو حيث لا يوجد أي طعام. وكل ذلك يمكن أن يتغير حسب الوقت من السنة".

سأل شارلوك: "هل يجدر بي تدوين ملاحظات؟". فأجاب غروي بغضب: "لديك رأس فوق كتفيك فاستخدمه، وتذكّر الحقائق. لنأخذ ما يحصل في فصل الشتاء كمثال. ففي الشتاء، تكون المياه باردة - وربما مجلّدة - لذا لن تتحرك الأسماك فيها بسرعة كبيرة، وستضطر حينها إلى الاعتماد على المخزون الذي تمّ جمعه خلال الخريف بكميات كبيرة. ولهذا، لا يكون صيد الأسماك جيداً في فصل الشتاء. والآن، ماذا تعلمت حتى هذه اللحظة؟".

"حسناً". راجع شارلوك الحقائق في ذهنه بسرعة، ثم تابع: "في الربيع،

يستحسن الصيد في أواخر فترة الصباح أو في بداية بعد الظهر. أما في الشتاء، فمن الأفضل التوجه إلى السوق وشراء الأسماك من البائع المتجول".
ضحك غروي، ثم قال: "هذه خلاصة جيدة للحقائق. لكن، فكّر في ما هو موجود وراء الحقائق. ما هي القاعدة التي تشرح الحقائق؟".
فكّر شارلوك هنيهة ثم أجاب: "الشيء المهم هو درجة حرارة الماء. وما يؤثر في درجة حرارة الماء هو مدى قرب الشمس من المياه، وما إذا كانت تسطح على الماء بشكل مباشر أو وفق زاوية معينة. لذا، يجب تحديد موقع الشمس، وموقع المياه الفاترة وإنما غير الساخنة، وعندها سنجد الأسماك هناك".
"صحيح".

انتفض الطعم قليلاً في مكانه، فانحنى غروي إلى الأمام من دون أن تطرف عيناه الزرقاوان تحت حاجبيه الرماديين الكثيفين، وتابع بهدوء: "يفضّل كل نوع من الأسماك درجة حرارة معينة. والصيد الماهر هو الذي يجمع ما يعرفه عن درجات الحرارة المفضلة لدى الأسماك، مع معرفته للوقت من السنة، والوقت من النهار، والظروف المتبدلة في البحيرة؛ والتي تحدد مكان تواجد كل سمكة في البحيرة في وقت معين من السنة".
أجاب شارلوك بحذر: "كل هذا مثير فعلاً. لكنني على الأرجح لن أجعل صيد السمك هواية لي. إذ يبدو أن الأمر يتطلب الجلوس لوقت طويل في انتظار التقاط السمكة للطعم. وإذا كنت سأجلس لوقت طويل، فأنا أفضل أن أضع كتاباً جيداً بين يديّ بدلاً من قصة الصيد".
أجاب غروي بصبر: "المسألة التي أحاول توضيحها بطريقتي الريفية العملية الخاصة هي أنك إذا حاولت يوماً التقاط شيء ما، فعليك أن تعتمد طريقة منهجية. ففي البداية، عليك أن تعرف عادات فريستك، وأنّ تلك العادات تتبدّل وفق البيئة والظروف المحلية. وينطبق الأمر نفسه على البشر؛ تماماً مثلما ينطبق على الأسماك. فالناس لديهم أشياء مفضلة، ومواقع مفضلة، وأوقات مفضلة مختلفة من اليوم. وقد تتأثر تلك التفضيلات بما إذا كانت الشمس ساطعة أو الطقس ماطرًا، أو ما إذا كانوا جائعين أو يشعرون بالامتلاء. لذا، عليك أن تعرف فريستك جيداً كي تتمكن من استباق خطواتها. ويمكنك بعدها استعمال طعم - تماماً مثل هذه المجموعة الجميلة من الريش التي جمعتها معاً بواسطة خيط قطني - لا تستطيع الفريسة مقاومته".

قال شارلوك: "فهمت الدرس. هل يمكننا العودة الآن؟".

"ليس بعد؛ فأنا لم أحصل على عشائي حتى الآن". كانت نظرات غروي تجول فوق سطح البحيرة بحثاً عن شيء ما، وتابع قائلاً: "عندما تعرف فريستك وعاداتها، يتوجب عليك حينها البحث عن علامات تدلّ على وجودها. فهي لن تظهر أمامك معلنة عن نفسها، لا. بل سوف تتسلل بدقة، متوخيّة الحذر. وعليك البحث بدقة عن العلامات التي تشير إلى وجودها". وثبت عينيه على رقعة في الماء، على بعد مسافة اثنتي عشرة قدماً تقريباً من القارب، ثم قال وهو يومئ برأسه: "على سبيل المثال، انظر إلى هناك. ماذا ترى؟".

حدّق شارلوك، ثم أجاب: "الماء".
"وماذا أيضاً؟".

زَم شارلوك عينيه بسبب وهج الشمس، محاولاً رؤية ما رآه غروي قبله. ولهنيهة، بدت مساحة صغيرة من الماء كما لو أنها تنخسف قليلاً؛ مثل موجة مرتدّة. إلا أن الأمر استمر لحظة واحدة فقط، ثم عادت الأمور إلى طبيعتها. وحين عرف شارلوك ما يبحث عنه، لاحظ المزيد من الخسوفات، والمزيد من اللحظات المفاجئة والمؤقتة التي بدا فيها سطح الماء كما لو أنه يتلوّى قليلاً.
"ما هذا؟".

أجاب غروي: "هذا ما يعرف بالامتصاص. ويحصل الأمر عندما ترفع السمكة - وهي سمكة ترويت في هذه الحالة - أنفها مباشرة فوق سطح الماء، في انتظار أن تطفو الحشرات على السطح. وحين ترى السمكة حشرة واحدة، تبتلع جرعة من الماء وتمتص الحشرة معها. وكل ما تتمكن أنت من رؤيته على السطح هو ذلك الخسوف البسيط، بينما ينخفض الماء إلى الأسفل ويتم امتصاص الحشرة تحت الماء. من شأن ذلك، يا صديقي، أن يرشدنا إلى مكان سمكة الترويت".

وشدّ غروي قسبة الصيد بقوة، فانحرف الطعم فوق سطح البحيرة مشدوداً بالخيط، إلى أن بلغ المساحة حيث شاهد شارلوك سمكة الترويت وهي تبتلع الحشرات وتغوص نحو الأسفل. لهنيهة، لم يحصل أي شيء، ثم اختفى الطعم فجأة تحت سطح البحيرة. عندها، سحب غروي القسبة، ولفّ البكرة في الوقت نفسه بأسرع ما يمكن، فتطاير الماء صوب الأعلى على شكل قطرات فضية، فيما تلوّت سمكة متدلّية من الخيط. كان فمها عالقاً في الصنارة المخبّأة داخل الطعم، وبدت حراشفها مرقطة باللون البني. سحب غروي قصبته صوب الأعلى باحتراف، فبدت السمكة كما لو أنها تطير صوب

القارب، ثم حطت عليه باهتياج شديد. عندها، أمسك غروي القصبه بيد واحدة كي لا تقع في الماء، ومدّ يده الأخرى نحو الخلف وسحب مضرباً خشبياً من تحت مقعده. ضربها ضربة واحدة سريعة فتوقفت السمكة عن القيام بأي حركة.

وبعد ذلك، سأل شارلوك بلطف فيما كان ينزع الصنارة من داخل فم السمكة: "إذاً، ماذا تعلّمنا اليوم؟ تعرّف إلى عادات فريستك، واعرف الطعم الذي يجذبها، واعرف العلامات التي تشير إلى أنها في الجوار. أنجز كل ذلك، وستزيد فرصك في الاصطياد بنجاح".

فسأله شارلوك بدوره، وقد فهم المبادئ الأساسية للدرس لكنه كان غير واثق من كيفية تطبيقها: "لكن، متى يحتمل أن اصطاد شيئاً، أو ألاحق شخصاً ما؟ أعرف أنك كنت ماهراً في عملك في أميركا كصيّاد جوائز، لكنني أشك في أن أختار مهنة مماثلة لمهنتك يوماً. ثمة احتمال أكبر في أن أصبح مصرفياً أو ما شابه". إلا أنه شعر بقلبه ينفطر ما إن لفظ تلك الكلمات. فأخر ما يريده في حياته هو الحصول على وظيفة مكتبية مملة، لكنه لا يعرف المهنة المناسبة له حتى الآن.

قال غروي وهو يرمي السمكة في السلة ويضع غطاء القش فوقها: "آه، الحياة مليئة بالفرص التي قد ترغب في اغتنامها. فقد ترغب في البحث عن مستثمرين لتنفيذ مخطط معين توصلت إليه لجني المال، أو قد تفكر في البحث عن زوجة لك في مرحلة معينة، أو قد تطارد رجلاً يدين لك بالمال. هناك أسباب عديدة قد تدفع الإنسان إلى مطاردة إنسان آخر. والمبادئ الأساسية تبقى نفسها". ثم ألقى نظرة سريعة على شارلوك من تحت حاجبيه السميكين، وأضاف: "واستناداً إلى خبرتي، هناك دوماً مجرمون وقتلة قد تصادفهم في حياتك". وأمسك بقصبه الصيد، وأعادها إلى الورا، ثم قذف الطعم مجدداً فوق رأسه نحو الماء. "وعندها، بعد قول كل شيء وفعله، يوجد دوماً أيل وسمكة".

ثم تراجع إلى الخلف، وأغمض عينيه نصف إغماضة، وكّرّس وقته للصيد طوال ساعة كاملة فيما شارلوك يراقبه.

وبعد أن اصطاد سمكتين إضافيتين، ورماهما في السلة، وضع قصبته في القارب وتمدد قائلاً: "حان وقت العودة، مثلما أظن. إلا إذا أردت التجربة بنفسك".

فسأله شارلوك: "وماذا سأفعل بالسمكة؟! يوجد طاهٍ في منزل عمي وزوجته، وتصل وجبات الفطور والغداء والعشاء إلى المائدة من دون أن

أضطر إلى القلق بشأن ذلك".

فأجاب غروي: "يتوجب على أحدهم أن يصطاد الحيوانات لإعداد الطعام. ويوماً ما، قد تجد نفسك مضطراً إلى القلق بشأن تأمين وجبتك التالية، أو قد ترغب ربما في مفاجأة السيدة إيغلانتين بسمكة ترويت ممتلئة وجميلة لوجبة العشاء".

تمتم شارلوك: "أستطيع وضعها في سريرها. أيمكنني ذلك؟".

فضحك غروي قائلاً: "إنها فكرة مغرية. لكن لا، لا أظن ذلك".

ثمّ أمسك غروي المجدافين، وراح يجذّف للعودة بالقارب إلى الشاطئ. وبعد ربطه إلى عمود جرى تثبيته في الأرض، توجه مع شارلوك إلى بيته الصغير.

مرّا بالجرف الشديد الانحدار من المساحة المشتملة على البحيرة. مشى غروي في المقدمة حاملاً سلة القش، واللافت أن جسمه الثقيل أصدر القليل من الضجيج أثناء تحركه. ولحق به شارلوك الذي بات الآن يشعر بالتعب والضجر على حدّ سواء. وصلا إلى حافة أعلى المنحدر، حيث تهبط الأرض بانحدار شديد خلفهما، لتستوي بعد ذلك في الأمام. وتوقف غروي قليلاً ليتمكن شارلوك من اللحاق به.

قال غروي وهو يشير إلى السطح الأزرق للبحيرة: "إذا خرجت للصّيد يوماً، فلا تحاول مطلقاً التوقف في مكان كهذا؛ سواء أكان هدفك تأمل المشهد أو النظر بشكل أفضل إلى المساحة المحيطة. فتخيل ما ندو عليه بالنسبة إلى أي حيوان في الغابة، ونحن واقفان هنا على الحافة. إذ يمكن رؤيتنا من على بعد أميال عدة".

وقبل أن يتمكن شارلوك من الإجابة، تابع غروي السير مجدداً، وشقّ طريقه عبر الشجيرات النامية. وعندها، تساءل شارلوك في سرّه عن كيفية تمكن الرجل من معرفة الطريق الذي يجدر به أن يسلكه من دون بوصلة. وكان على وشك طرح السؤال على غروي، لكنه حاول بعد ذلك معرفة الجواب بنفسه. إن كل ما يحتاج إليه غروي موجود حولهما؛ فالشمس تشرق من الشرق وتغيب في الغرب، لكن هذا لا يفيد كثيراً في وقت الغداء عندما تكون الشمس فوق الرأس مباشرة؛ أو هل يفيد؟! فكر شارلوك هنيهة، وأدرك أن الشمس ظهراً تكون فعلاً فوق الرأس في الأماكن الموجودة عند خط الاستواء. لكن، بالنسبة إلى بلد يقع في النصف الشمالي من الكرة الأرضية، مثل إنكلترا، فإن أقرب مكان إلى خط الاستواء يقع جنوباً. وبالتالي، إن الشمس ظهراً تكون إلى جنوب النقطة الموجودة مباشرة

فوق رأسه. هذا ما يعتمد عليه غروي ربما.
قال غروي من دون أن ينظر إليه: "وتميل الطحالب إلى النمو بصورة
أفضل في الجهة الشمالية من الأشجار؛ إذ تكون مظلة هناك أكثر، كما أن
المكان أكثر رطوبة".

صرخ شارلوك متعجباً: "كيف تفعل هذا؟!".
"أفعل ماذا؟".

"تخبر الناس بما يفكرون فيه، وتقاطعهم في اللحظة المناسبة؟".
ضحك غروي مجيباً: "آه، إنها حيلة سأشرحها لك في وقت آخر".
أضاع شارلوك دليل الوقت فيما كانا يمشيان عبر الغابة. لكن، في
مرحلة معينة، توقف غروي وجلس القرفصاء ووضع السلة جانباً، ثم سأله:
"ماذا تستنتج؟".

جلس شارلوك القرفصاء قربهِ. وعلى الأرض الطرية تحت الشجرة،
شاهد أثر حافر صغير على شكل قلب، فسأل: "هل مرَّ أيِّل من هنا؟".
وحاول الاستنتاج استناداً إلى ما رآه.

"هذا صحيح. لكن، من أي طريق ذهب؟ وكم يبلغ من العمر؟".
تأمل شارلوك الأثر عن كثب، محاولاً تصوّر حافر أيِّل لكنه أخفق.
"أذهب من هنا؟". وأشار في اتجاه الجزء الدائري من الأثر.
صحّح له غروي قائلاً: "بل في الاتجاه الآخر. أنت تفكر في حافر
حصان، حيث الجزء الدائري موجود في الأمام. أما الجزء الحاد في حافر
الأيِّل فيشير دوماً إلى الاتجاه الذي يسلكه الحيوان. وهذا الأيِّل صغير؛
يمكنك معرفة ذلك من الأشكال البيضاوية الصغيرة خلف الأثر. إنها ناجمة
عن البرائن".

ونظر حوله ثم تابع: "انظر إلى هناك". وأوماً برأسه في أحد
الاتجاهات. "هل يمكنك السير في خط مستقيم عبر الأجمات والعشب؟".
نظر شارلوك إلى حيث أشار غروي، فوجده محقاً. هناك أثر خفيف
جداً يظهر في الأجمات والأعشاب التي تم دفعها من الجانبين. يبلغ العرض
خمسة إنشات تقريباً، حسب تقديره.

قال غروي: "تتحرك الأيائل طوال النهار بين المساحة التي تبيت فيها
ومصدر الماء المفضل لديها؛ محاولة إيجاد الطعام. وحين تجد طريقاً آمناً،
تستمر في اعتماده إلى أن يروّعها شيء ما. ما الذي يدلك عليه سلوكها
هذا؟".

أجاب شارلوك بحذر: "تميل الفريسة إلى الالتزام بالعادات نفسها؛ إلا

في حال إزعاجها، أهذا ما تعنيه؟".

"صحيح. تذكّر ذلك. فعلى سبيل المثال، إذا كنت تبحث عن رجل يحب احتساء الشراب، إذاً يجدر بك التحقق من المقاهي. وإذا كنت تبحث عن رجل يحب المغامرة، فينبغي لك التحقق من حلبات السباق. إذ إنّ كلاً منا يتحرك بطريقة معينة، وبالتالي عليك التحدث إلى سائقي السيارات ومراقبي التذاكر لمعرفة ما إذا كانوا يذكرون رجلك".

وانتصب واقفاً، ثمّ رفع السلة مجدداً، وانطلق عبر الأشجار. فلحق به شارلوك وهو يتأمل المكان حوله. وبعد أن أشار غروي إلى ما يجب عليه الانتباه إليه، استطاع رؤية مجموعات من المسارات المختلفة التي تبدو آثارها واضحة على الأرض: بعضها لأيائل من أحجام مختلفة، وبعضها الآخر لحيوانات أخرى؛ ربما خنازير برية أو غريرات أو ثعالب. واستطاع أيضاً رؤية مسارات مختلفة عبر الأجمات المنخفضة؛ حيث تم دفع الأعشاب إلى جانب واحد من قبل أجسام متحركة. ما كان غير منظور سابقاً أصبح فجأة جلياً وواضحاً بالنسبة إليه. فالمشهد نفسه اشتمل الآن على تفاصيل كثيرة يمكن النظر إليها.

احتاجا إلى نصف ساعة إضافية للوصول إلى بوابة منزل آل هولمز. عندها، قال غروي: "سأتركك هنا. دعنا نلتقي مجدداً؛ فأنا أريد تعليمك بعض الأمور الإضافية بشأن التعقب والصيد". سأله شارلوك: "هل تودّ الدخول لبعض الوقت؟ أستطيع الطلب من الطاهي أن يعدّ إبريقاً من الشاي، وتستطيع إحدى الخاديمات تقطيع هذه الأسماك لك".

تمتم غروي: "يا لها من حياة مرقّهة بالنسبة إليك! أعتقد أنني سأستفيد من هذا العرض".

مشياً معاً في الممشى المرصوف بالحصى والمؤدي إلى الجهة الأمامية الكبيرة لمنزل آل هولمز. هذه المرة، كان شارلوك يسير في المقدمة. فُتح الباب الأمامي من دون أن يطرق عليه، فقال بجرأة واضحة: "سيده إيجلانتين".

وسرعان ما خرج شكل أسود من الظلال عند قاعدة الدرج وتقدم إلى الأمام. وأجابت مدبرة المنزل بصوتها الجاف مثل أوراق الخريف: "حضرة الفتى شارلوك، يبدو أنك تعتبر هذا المنزل بمثابة فندق تقيم فيه، وليس بمثابة مقرّ لعائلتك".

فأجابها برودة: "ويبدو أنك تعتبرين نفسك فرداً من هذه العائلة

ولست مجرد خادمة. سيتناول السيد غروي شاي بعد الظهر معي. لذا، حضّريه من فضلك". ووقف ينتظر، غير واثق مما إذا كانت ستقبل أوامره أو ترفضها بكلمة قاطعة. وأحسّ أنها لم تكن واثقة بدورها. وبعد قليل، استدارت وتحركت نحو المطبخ من دون التفوه بكلمة.

أحسّ شارلوك برغبة مفاجئة وملحة في التسبب بإزعاج أكبر للمرأة التي فعلت الكثير لجعل حياته غير مريحة خلال العام الماضي. لذا، أضاف وهو يشير إلى سلة القش التي وضعها أميوس غروي قرب قدميه: "آه، بالمناسبة، اصطاد لي السيد غروي بعض الأسماك. لذا، كوني لطيفة واطلبي من إحداهن تنظيف الأسماك من أحشائها وحسكها نيابة عنه".

عندها، استدارت السيدة إيغلانتين نحوه، وكان التعبير البادي على وجهها كفيلاً بجعل الحليب يتخثر والنعجة تلد قبل أوانها. وأطبقت شفيتها كما لو أنها تحاول كبح شيء تريد قوله، ثم أجابت أخيراً عبر أسنانها المطبقة: "طبعاً، سأرسل إحداهن ليأخذ السلة. يستحسن ربما أن تتركا السلة هنا وتنتقلا إلى غرفة الاستقبال".

وبعد ذلك، اختفت وسط العتمة.

قال أميوس غروي بهدوء: "يجدر بك توخي الحذر من هذه المرأة. فعندما تنظر إليك، يوجد عنف في نظراتها".

فأجاب شارلوك: "لا أفهم لماذا يتحمل عمي وزوجته وجودها. فأنا لا أجدتها مدبرة منزل استثنائية. والموظفون الآخرون مذعورون منها جداً؛ لدرجة أنهم بالكاد ينجزون مهامهم كما يجب. والخادومات في حجرة غسل الأطباق يوقعن الأطباق دوماً حين تكون بالقرب منهن، لأن أيديهن ترتجف كثيراً خوفاً منها".

قال غروي: "تستحق هذه المرأة بعض التحقيق الإضافي في أمرها. فإذا لم تكن مدبرة منزل استثنائية مثلما تقول، فلا بد أن هناك سبباً أساسياً آخر لإبقائها في المنزل؛ بالرغم من شخصيتها النكدة. فرما كان عمك وزوجته يدينان لها أو لعائلتها بالمال - بطريقة ما - وهذه طريقة لتسديد الدين. أو ربما كانت مطلعة على أمر معين تفضّل عائلتك إبقاءه سراً، لذا أسندت إليها هذه الوظيفة".

((قال شارلوك متذكراً الرسالة التي أرسلها له أخوه فور وصوله إلى منزل آل هولمز: "أعتقد أن مايكروفت يعرف شيئاً ما. وأعتقد أنه حدّثني منها".

أجاب غروي مبتسماً: "يعرف أخوك الكثير من الأمور. والأمور التي لا

يعرفها عموماً لا تستحق المعرفة على أية حال".
سأله شارلوك: "لقد علّمته ذات مرة، أليس كذلك؟". فأوماً غروي برأسه.

"هل اصطحبته في رحلة لصيد الأسماك أيضاً؟".
فانفجر غروي الهادئ عادة ضاحكاً بشدة، واعترف قائلاً عبر ضحكاته:
"مرة واحدة فقط. لا يتفق أخوك كثيراً مع البيئة الخارجية. كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي أرى فيها رجلاً يحاول التقاط سمكة من خلال مطاردتها في بيئتها الطبيعية".
فسأله شارلوك محاولاً تخيل المشهد: "هل غاص في الماء خلف السمكة؟".

"لقد سقط في الماء وهو يحاول سحب السمكة بواسطة الصنارة. وفيما كنت أخرجته من الماء، أخبرني أنه لن يترك أبداً أمان اليابسة مجدداً. وإذا كانت تلك اليابسة عبارة عن شارع مدينة مرصوف، فسيكون الأمر أفضل بكثير". وصمت قليلاً ثم تابع: "لكنك إذا سألته عن عادات كل أنواع السمك في أوروبا في تأمين قوتها وسباحتها فيإمكانه إخبارك بذلك. قد يعاني ربما من بعض الإجهاد الجسدي، لكن عقله حاد مثل دبايس الخياطة".
قهقه شارلوك، وقال: "فلندخل قاعة الاستقبال. لا بدّ أن الشاي صار في طريقه إلى هناك".

كانت قاعة الاستقبال تقع مباشرة خلف الردهة الرئيسة؛ في الجهة الأمامية من المنزل. وما إن دخلها حتى رمى شارلوك نفسه على كرسي مريح، فيما جلس غروي على أريكة كبيرة بما فيه الكفاية لتتسع لحجمه الكبير، وطققت الأريكة تحت وزنه. كان أميوس غروي - برأي شارلوك - ثقيلًا بقدر مايكروفت هولمز. لكن ثقل وزنه سببه العظم الصلب وعضلاته في حالة غروي.

سما طرقة ناعمة على الباب مهّدت لظهور خادمة تحمل صينية فضية. وكان قد وُضع على الصينية إبريق شاي، وكوبان مع صحنهما، وإبريق صغير يحتوي على الحليب، وطبق مليء بالحلوى. إما أن تكون السيدة إيغلانتين قد قرّرت التحلي بالكرم على غير عاداتها، أو أنّ أحد الموظفين قرّر جعل الضيف يشعر بأنه محلّ ترحاب.

وبالإضافة إلى ذلك، كان ثمة مغلف أبيض ورفيع أيضاً على الصينية. قالت الخادمة من دون أن تنظر إلى شارلوك مباشرة: "إنها رسالة لك يا سيدي". ووضعت الصينية على الطاولة، ثم سألته: "هل تريد شيئاً آخر؟".

"لا، شكراً لك".

وبعد أن غادرت الخادمة، تمدد شارلوك بلهفة لأخذ المغلف؛ فهو لا يتلقى الكثير من الرسائل هنا، وحين يحصل ذلك تكون الرسائل بمعظمها من...

"مايكروفت! ".

سأله غروي: "أهذه هي الحقيقة أم إنه استنتاج؟".

لوح شارلوك بالمغلف أمامه وأجاب: "تعرفت إلى خطه، والختم البريدي في ويستمنستر؛ حيث يقع مكتبه ومنزله وناديه".

مزق شارلوك المغلف الذي أحكمت الكتلة الشمعية إغلاقه لفتحه، وسحب الرسالة منه. ثم قال وهو يحمل الورقة رافعاً إيّاها نحو الأعلى: "انظر! الرسالة مكتوبة على الأوراق الخاصة بنادي دياغونيز".

تمتم غروي: "تحقق من الختم البريدي على المغلف. في أي تاريخ أرسلت؟".

فقال شارلوك مذهولاً: "عند الساعة الثالثة والثلاث من بعد ظهر أمس. لماذا؟".

نظر غروي إلى شارلوك برباطة جأش ثم أجاب: "أي في منتصف فترة بعد الظهر في يوم عمل عادي. مما يعني أنه كان في ذلك الوقت موجوداً في النادي لكتابة الرسائل بدلاً من التواجد في مكتبه؛ ألا تعتبر هذا الأمر بمثابة تصرف غير مألوف لدى أخيك؟".

فكر شارلوك قليلاً ثم قال: "أخبرني مايكروفت ذات مرة أنه يتوجه غالباً إلى ناديه لتناول الغداء هناك. ولا بدّ أنه كتب الرسالة أثناء تناوله الغداء، وطلب من الخادم إرسالها عبر البريد نيابة عنه. أخذ ساعي البريد الرسالة من صندوق البريد في أوائل فترة بعد الظهر، ووصلت الرسالة إلى مكتب الفرز قرابة الساعة الثالثة، ليجري ختمها بعد نصف ساعة. ليس هذا مثيراً للريبة، أليس كذلك؟".

فابتسم غروي مجيباً: "على الإطلاق. كنت فقط أحاول الإشارة إلى أنه يمكن استنتاج مجموعة كاملة من الحقائق من رسالة بسيطة. لو كان الختم البريدي تابعاً لساليسبوري بدلاً من ويستمنستر لبدا الأمر غير مألوف، ولطرح المزيد من الأسئلة. ولو كنا نعرف أن أخاك لا يغادر مكتبه أبداً خلال النهار، ولا حتى لتناول الغداء- وعليّ الاعتراف بأن هذا الاحتمال مستبعد كلياً- ولكن الورقة خاصة بناديه، لبدا الأمر حينها غير مألوف أيضاً. وعندها، كنت سأفكر ربما في أن أخاك قد خسر وظيفته، أو إنه منزعج

جداً لدرجة أنه لم يذهب إلى العمل، أو غادره باكراً".
فأشار شارلوك: "أو ربما بكل بساطة أخذ بعض لوازم القرطاسية من
نادي دياغونيز ليستخدمها في مكتبه".
عندها، بدا غروي مرتبكاً وهو يقول: "أعتقد أنه يوجد دوماً شرح
بديل".

قرأ شارلوك الرسالة بسرعة، وازدادت حماسته وهو يقرأ الكلمات؛ إلى
أن ارتفعت حرارة جسمه تقريباً.

عزيزي شارلوك،

أكتب إليك بعجلة فيما أنتظر وصول شريحة اللحم مع بودينغ الفول،
وأتمنى أن أنهي طبقي كله قبل عودتي إلى مكنتي.
أتمنى أن تكون بخير، وأن تكون قد شفيت من الندوب المختلفة
الناجمة عن مغامراتك الأخيرة. وأتمنى أيضاً أن يكون عمي وزوجته بخير،
وألا يكون سلوك السيدة إيغلانتين معك فظاً جداً. أنا واثق من أنك
ستفرح كثيراً حين تسمع بانتهاء الترتيبات اللازمة التي تسمح لك بمتابعة
تعليمك في عزبة آل هولمز. وأفترض أن خبر عدم اضطرارك أبداً للعودة إلى
مدرسة دييدن لم يصدك مطلقاً. سوف يستمر أميوس غروي في تعليمك
المزيد من الأمور العملية والجوانب الرياضية في الحياة، وقد وافق العم
شرينفورد على أن يصبح مسؤولاً عن تعليمك الديني والأدبي، مما يبقى
فقط مادة الرياضيات التي تحتاج إلى من يعلمك إياها. لذا، سأفكر في
هذا الأمر، وسأبلغك بالنتيجة عندما أتوصل إلى قرار. والهدف طبعاً هو
تحضيرك للدراسة الجامعية بعد سنوات قليلة. يمكننا لاحقاً مناقشة ما إذا
كنت تفضل أوكسفورد أو كامبريدج.

بالمناسبة، وصلتني هذا الصباح رسالة من والدنا. لا بدّ أنه أرسلها من
الهند لحظة وصوله إلى هناك، لأنها تلخص كل ما حصل معه أثناء الرحلة.
وأنا واثق من أنك تفضل قراءة الرسالة بنفسك بدلاً من أن أطلعك على
مضمونها، ولذلك أدعوك لتناول العشاء معي (في ناديّ بالطبع) يوم غد.
أرجوك، وجّه الدعوة أيضاً للسيد غروي. فهناك بعض التفاصيل التي
أريد مناقشتها معه بشأن تعليمك. إن استقلتما قطار الساعة التاسعة
والنصف صباحاً من فارنهام فستصلان إلى واترلو في الوقت المناسب للقائي؛
أي في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً.
أتطلع لرؤيتك غداً، وسماع كل الأحداث التي حصلت معك منذ لقائنا

الأخير.

أخوك المحب،

مايكروفت.

سأل أميوس غروي: "هل من شيء مهم؟".

فأجاب شارلوك مبتسماً ابتسامة عريضة: "سوف نذهب إلى لندن".

الفصل الثاني

انطلق شارلوك إلى فارنهام بعد ظهر ذلك اليوم، تحت مطر خفيف ترك بركاً على الطرقات، ووخز عنقه مهما حاول رفع ياقته إلى الأعلى أو إقحامها إلى الداخل. كان يمتطي الحصان الذي "حرّره" من البارون موبرتس؛ الحصان الذي يجدر به العثور على اسم له. إنه لا يفهم أبداً السبب الذي يدفع الناس إلى تسمية حيواناتهم. فالحيوانات لا تبالي بمنحها أسماء أو أرقاماً أو أي شيء آخر، وينطوي ذلك الأمر برأيه على مستوى من التعاطف والمساواة اللذين لا يفترض وجودهما أساساً. فالحيوانات حيوانات، والبشر بشر.

وفيما كان حصانه يشق طريقه نحو سوق المدينة، وجد شارلوك نفسه يفكر في الفرق الغريب بين الحيوانات الأليفة والحيوانات العادية. فإذا كان بالإمكان أكل لحم البقرة، فلماذا لا يؤكل لحم الحصان؟! لا يوجد سبب منطقي لعدم حصول ذلك؛ فحسب علمه ليس لحم الحصان ساماً أو ما شابه. وفي المقابل، إذا كان لحم القططة والكلاب محظوراً في قائمة الطعام، فلماذا لا تعفى الأرانب من مشقة طهوها على النار؟ هذا غير منطقي البتة. لقد رسم أحدهم حداً عشوائياً فاصلاً في مملكة الحيوانات وقال: "حسناً، الحيوانات الموجودة هنا يمكننا تناولها بقدر ما نشاء، لكن الحيوانات الموجودة هناك يمكن اصطحابها في النزاهات فقط، وتربيتها، والاهتمام بها، ودفنها حين تموت".

وفيما تغلغل الماء عبر كل فتحة في ملابسه، تساءل عما إذا كانت البلدان الأخرى تفرض القواعد غير المنطقية نفسها. فهل توجد بلدان في مكان ما يأكل سكانها لحوم الأحصنة والكلاب، ولكنهم يعتبرون الأبقار مبجلة؟! إذا كان الجواب نعم، فإن ذلك يشير إلى أن المسألة كلها شخصية، لا بل عشوائية. لكن، إذا كانت كل البلدان تعتمد التمييز نفسه، فإذاً ثمة سبب ما لدى البشر يجعلهم يعتبرون الأبقار بمثابة طعام والأحصنة بمثابة حيوانات أليفة لا يجب أكلها.

رَبّت شارلوك على عنق الحصان الذي كان يمتطيه متسائلاً إن كان يستطيع تناوله يوماً؟ هل يستطيع الجلوس لتناول شريحة لحم حصان لذيذة، وهو يعلم أنه قبل ساعات قليلة فقط كان يمتطي الحيوان الذي كان مصدر تلك الشريحة؟ منطقياً، لا يجد أي سبب يمنعه من ذلك، لكنه في الواقع شعر بالغثيان لدى تفكيره بالأمر. ربما لو كان يتصور جوعاً، أو

لو علق مع حصانه وسط عاصفة ثلجية عنيفة، والسبيل الوحيد كي يبقى على قيد الحياة يتمثل في طهو لحم حصانه وتناوله فسيكون الأمر منطقياً. وفيما كان الحصان يقفز في ضواحي فارنهام، خطرت فكرة مزعجة في بال شارلوك. إذا تقبل - مبدئياً - فكرة تناول حصانه، فلماذا لن يفعل ذلك مع أصدقائه؟ فعلى سبيل المثال، إذا علق مع ماتي في عاصفة ثلجية عنيفة... حتى إن مجرد التفكير في ذلك جعله يشعر بالغثيان، فطرد الفكرة من رأسه على الفور.

لديه الكثير من الأسئلة التي لا يفيد المنطق أبداً على ما يبدو في الإجابة عنها. فالمنطق يقول إنه إذا كان هذا مناسباً، فيجب أن يكون ذلك مناسباً أيضاً. لكنه عرف في قرارة نفسه أنه يوجد فرق؛ هناك حدود. والمشكلة هي أنه لا يعرف من أين أنت تلك الحدود، أو كيف يفكر فيها بطريقة صحيحة.

وسبب كل هذه التساؤلات أنه لم يمنح حصانه اسماً، فتمتم: "سأسميك فيلادلفيا". وربّت على عنق الحصان مجدداً وهو يتسم.

بالنسبة إلى الأسماء، ثمة معانٍ كثيرة مرتبطة بها. ففيرجينيا - ابنة أميوس غروي - على سبيل المثال أطلقت على حصانها اسم "سانديا" تيمناً بسلسلة جبال في أميركا. لذا، يفترض به في النهاية أن يسمي حصانه تيمناً بمدينة أميركية. والقطار الذي علق فيه مع فيرجينيا وماتي قبل أشهر عدة، بعدما جرى خطف ماتي من قبل عملاء ديوك بالتاسار، كان تابعاً لخطوط فيلادلفيا. وبالتالي، إن الاسم سيدرّه دوماً بالمنحة التي مروا بها. واختصار كلمة فيلادلفيا هو "فيلي"، وفيلي اسم آخر لفرس صغيرة، وبالتالي فإن في الأمر نوعاً من المزاح أيضاً. إنه ناجح على كل المستويات.

قال للحصان: "اسمك فيلادلفيا". فأصدر الحصان صوت سهيل، كما لو أنه فهم ووافق. لكن هذا طبعاً مجرد تخيل من قبله.

أصبحت الآن في وسط المدينة، فترك شارلوك حصانه - أو بالأحرى فيلادلفيا - مربوطاً بالقرب من سوق الحبوب، ومشى تحت القناطر القرميدية بحثاً عن ماتي. أصبح الآن يعرف عادات ماتي، ويعرف كيف يجده في أي وقت من النهار أو الليل. إذ بدا الشاب وكأنه وقع في فخ روتين معين؛ بدلاً من التنقل على متن قاربه الضيق لاستكشاف مدن جديدة وفرص جديدة، استقرّ في فارنهام؛ على الأقل في الوقت الحاضر. أمل شارلوك أن يستمر بذلك؛ بسبب صداقتهما. فقد استلطف ماتي، وسوف يفتقد إليه إن غادر.

كان ماتي جالساً قرب النهر من دون أن يراقب شيئاً محدداً كما يبدو؛ على الرغم من معرفة شارلوك أنه يجلس هناك بانتظار ظهور مركب كبير يوصل صناديق كبيرة من السمك إلى الشاطئ؛ مرصوفة على ثلج مطحون. فقد اكتشف ماتي أنه في حال وقع أحد تلك الصناديق وتحطم، فيإمكانه سرقة سمكة أو سمكتين قبل أن يتمكن أحد من منعه. وكثيراً ما تساءل شارلوك عما إذا كان ماتي يعترض أحياناً طريق الرجال الذين يفرغون حمولة المركب متعمداً، حيث يجعلهم ينزلقون ويوقعون الصناديق التي ينقلونها، لكنه لم يسأله قط. فمن الأفضل عدم معرفة الجواب.

قال ماتي: "مرحباً. كنت أتساءل إن كنت ستأتي".

أجاب شارلوك: "أنا ذاهب إلى لندن غداً". كان يرغب في التحدث إلى ماتي أولاً، ومعرفة أين كان في الآونة الأخيرة وما فعله قبل إخباره بأمر ذهابه إلى لندن، لكنه لم يستطع السيطرة على نفسه؛ فهو ليس جيداً في المحادثة. "عليّ الذهاب إلى المحطة لشراء التذاكر".

تمتم ماتي: "حظاً موفقاً".

فقال شارلوك بنبرة دفاعية: "يمكنك مرافقتي". لكنه لم يكن واثقاً إن كانت دعوة مايكروفت يمكنها أن تشمله.

"إلى المحطة؟! شكراً، سبق لي أن رأيته من قبل".

فأجاب شارلوك بسخط: "إلى لندن!".

هزّ ماتي رأسه مجيباً: "لن أجلس في مؤخر القطار بين الدخان. فأنا ما زلت أذكر ما حصل في المرة الماضية بعد أن تم خطفكما أنت وجيني من قبل ذلك البارون موبرتس؛ إذ توجّب عليّ العودة إلى هنا، إلى فارنهام مع والدها. وقد حاول تعليمي القراءة!". ارتفع صوته بحزن. "أخبرته أنني لا أريد تعلّم القراءة، لكنه ظلّ يخبرني كيف أن الحرف أ يأتي قبل الحرف ي... وأمور مشابهة. وتوجّب علينا بعدها الإبحار إلى فرنسا في محاولة للعثور عليكما، ورغم ذلك بقي مصراً على موقفه، ولم يتبدل".

قال شارلوك: "أعتقد أنه يحب التعليم. وكنت العنصر الوحيد المتوفر أمامه من الجمهور".

"حسناً، لن أرتكب هذا الخطأ مجدداً".

سأله شارلوك: "هل رأيت فيرجينيا؟".

"لم أرها طيلة الأيام القليلة الماضية".

"هل تريد الذهاب للبحث عنها؟".

هزّ ماتي رأسه رافضاً، ومثبثاً عينيه على المياه: "لا، أفضل تناول

الطعام".

فعرض عليه شارلوك: "يمكنني أن أشتري لك فطيرة لحم".
بدا ماتي متحمساً، لكنه هزّ رأسه قائلاً: "لن تكون معي على الدوام.
لذا، أنا لا أستطيع الاعتماد على أي شخص آخر لإطعامي. عليّ إتمام ذلك
بنفسي، ويعني ذلك ضرورة محافظتي على مهاراتي. إذ عليّ التأكد من أنني
أستطيع سرقة القرنبيط أو قطعة لحم من دون أن يلاحظ أحد ذلك".
أجاب شارلوك بهدوء: "حسناً، هذا ليس عملاً خيراً، فنحن صديقان".
تمتم ماتي: "يبدو لي الأمر مثل عمل خيري. وأنا لا أقبل الإحسان
أبداً".

أوماً شارلوك برأسه قائلاً: "أفهم". ثم نظر حوله وتابع: "سوف أذهب
إلى المحطة. هل سأراك لاحقاً؟".

فأجاب ماتي بكآبة: "الأمر مرتبط بموعد وصول الغداء".
ابتعد شارلوك عن ماتي، وهو غير واثق تماماً إلى أين يذهب. كان
يشعر بالانفعال؛ فقد أراد أن يكون في طريقه إلى لندن، لكنه عرف أنه
يجدر به الانتظار حتى اليوم التالي لفعل ذلك؛ إذ إن مايكروفت دقيق
جداً في مواعيده. تجوّل في "هاي ستريت" لبعض الوقت، ومرّ أمام المقاهي
التي تعجّ بالزبائن؛ رغم أن الوقت لا يزال منتصف النهار تقريباً. كما مرّ
أمام المخابز التي عرضت واجهاتها كومات عالية من الخبز المفتول على
شكل عقد والمغطى بالبدور. ومرّ أيضاً أمام المتاجر التي تبيع الخضروات
والفاكهة، أو الأدوات والبدور، أو الملابس العادية وتلك الفاتنة، ثم شقّ
طريقه بين حشود السكان المحليين الذين كانوا يشترون أو يبيعون أو
يقفون في أماكنهم ويثرثرون.

فجأة، ناداه أحدهم: "شارلوك!".

استدار متفاجئاً، ولوهلة لم يتعرّف إلى الرجل الطويل والنحيل، صاحب
الشعر الأسود الطويل، الذي كان يتسم له من الجهة الأخرى من الطريق.
أو بالأحرى، أدرك أنه سبق له رآه، ولكنه لم يكن واثقاً من هويته أو
المكان الذي رآه فيه. تأمل ملابس الرجل ويديه مثلما علّمه أميوس غروي،
باحثاً عن أدلة تشير إلى مهنته. لكن، باستثناء سترته المخملية المرقعة والرّثة
فوق كتفه اليسرى، والغبار البرتقالي بين أظافره، لا توجد أية أدلة.
باستثناء...

صرخ شارلوك: "سيد ستون!". في الوقت نفسه الذي زوّده فيه دماغه
بمعلومة؛ وهي أن هذا الرجل عازف سيّء الحظ، استناداً إلى مظهر ملابسه.

اتسعت ابتسامة روفوس ستون أكثر فأكثر، كاشفة عن السن الذهبية التي يذكرها شارلوك من رحلتيهما معاً إلى مدينة نيويورك ومنها؛ حيث كان الرجل يعلمه العزف على الكمان للمساعدة على مضي الوقت أسرع. صرخ ستون وهو يجتاز الشارع، متفادياً العربات التي اعترضت طريقه، ومتجنباً كومات الروث التي تركتها الأحصنة التي تجرّ تلك العربات. "وحدّهم أصحاب العمل ينادونني "سيد ستون"، وقد تضاعل عددهم خلال الأشهر القليلة الماضية لدرجة أنه بات أقل من الأسنان الموجودة في منقار دجاجة".

"ماذا فعلت بعدما وصلنا إلى ساوثمبتون؟". حرص شارلوك على إبقاء نبرته عادية، محاولاً جعل السؤال يبدو عادياً. لكنه اعتقد أن عازف الكمان كان متوجهاً إلى فارنهام للعمل كمدرّس خصوصي.

جفل ستون وقال: "آه، ثمة اعتراف يجدر بي قوله. كنت مستعداً لنقل حياتي إلى هذه المنطقة من العالم، لكن مساري تحول وذهبت عوضاً عن ذلك إلى ساليسبوري لبضعة أسابيع. يكفي القول إنه كانت هناك ممثلة، بالإضافة إلى مكان شاغر في أوركسترا ساليسبوري بلايهاوس، وفرصة لتأمل وجهها الجميل طوال الليل فيما أنا أعزف الموسيقى وهي تؤدي دورها. سأل شارلوك: "وماذا حصل؟".

فأجاب ستون: "أحبّت طبعاً الرجل الأول في الفرقة. هذا ما يحصل دوماً، مع دعم من نظرات الإعجاب التي يرمقهما بها أتباعهما في الفرقة. اكتشفت لاحقاً أننا جميعاً انضمنا إلى الفرقة بسببها. وكنا جميعنا نتلقى أجوراً أقل من الأجور المعتمدة لمجرد ميزة تواجدنا في تلك الفرقة". وتنهّد بطريقة مسرحية، ثم تابع: "أوه، حسناً. نعيش ونتعلم. إذًا، هل تظن أن في هذا الجزء من هامبشاير من يبحث عن أستاذ لتعليم العزف على الكمان؟".

أجاب شارلوك: "أعتقد ذلك. توجد بعض المدارس الجيدة هنا، بالإضافة إلى بعض المنازل الفخمة جداً في الجوار".

سأل ستون: "وماذا عنك؟ هل ما زلت تتمرّن؟".

اعترف شارلوك: "أبحث عن كمان زهيد الثمن. بالمناسبة، أين آلتك؟". "أملك مسكناً آمناً في الجوار. وكل أغراضي - كما هي - بما فيها آلة الكمان الخاصة بي موجودة في غرفتي. بالمناسبة، أنا في مهمة من قبل صاحبة المسكن، وعليّ تلبية طلبها بسرعة؛ فإذا لم أحضر دجاجة خلال ساعة واحدة، فأعتقد أنني سأصبح في الشارع مجدداً. أخبرني، أين أستطيع

العثور عليك كي نتمكن من متابعة دروسنا؟".
فأجاب شارلوك: "في عزبة آل هولمز. امنحني يوماً أو اثنين لمناقشة الموضوع مع أخي وعمي. لكنني أعتقد أنهما لن يعارضا ذلك".
ابتسم ستون، ومدّ يده نحوه قائلاً: "سررت بتجديد صداقتنا يا سيد هولمز". وفيما كان هولمز يصافحه شعر بأن يده دافئة وجافة، ولاحظ أنه لم يضغط كثيراً أثناء المصافحة. إنه قلق على أصابعه ربما. "أراك قريباً".
استدار ستون، وخلال لحظات قليلة اختفى بين الحشود.
شعر شارلوك بسعادة غامرة لرؤيته روفوس ستون مجدداً، ثم استدار وتوجه لإحضار حصانه.

كانت المحطة تقع في ضواحي المدينة، ولم تكن هناك مواعيد لأي قطارات في هذا الوقت من بداية فترة بعد الظهر، ولذلك كان المكان مقفراً عندما ترجل عن صهوة الحصان واقترب من كشك بيع التذاكر.
قال للرجل العجوز الجالس خلف المكتب: "أريد تذكرتين إلى لندن، وتحديداً على متن القطار المنطلق في تمام الساعة التاسعة والنصف من صباح غد؛ لشخص راشد وشاب واحد، في الدرجة الثانية".
رفع بائع التذاكر حاجبه، وسأله بصوت أجش: "يمكنك دفع كلفة تذكرتين في الدرجة الثانية، أليس كذلك؟ أم إنك ستقول لي إنك ستدفع غداً بعدما يصلك مصروفك؟".

وضع شارلوك حفنة من النقود المعدنية على المكتب. إذ كان مايكروفت يرسل له الأغراض التي يحتاج إليها بواسطة طرود بريدية، وبما أنه لم يكن مضطراً إلى إنفاق الكثير فقد نجح في جمع مبلغ كبير جداً. وبما أن أخاه لم يحدد له كيفية دفع ثمن التذكرتين، ولم يرسل له أي نقود إضافية مرفقة برسالته، افترض شارلوك أن مايكروفت أراد منه أن يدفع من ماله الخاص. إنها خطوة إضافية نحو تحمل المسؤوليات كما يفعل الراشدون.

عندها، قال الرجل العجوز بصوت أجش: "إذاً، تريد تذكرتين. إحداهما لشخص راشد والأخرى لفتى، في الدرجة الثانية". ومرّر قصاصتين من الورق المقوى على المكتب، بالترافق مع كومة أصغر من النقود المعدنية. "وهذا ما تبقى من مالك".

"شكراً لك". ووضع شارلوك التذكرتين في أحد جيبيه، والنقود المعدنية في الجيب الآخر، ثم استدار. وعلى الفور، شاهد شخصاً ما يرتدي ملابس داكنة يدخل ممراً محاذياً للمحطة، وظن أنه امرأة.

أحس بالقشعريرة. هل لحقت به السيدة إيغلانتين لمراقبته؟ هل أذلتها كثيراً لدرجة أنها ستثأر منه بطريقة ما؟ نزل المنحدر المؤدي إلى الفندق بسرعة، واجتاز الطريق، ثم دخل الممر الذي اختفى فيه الشخص الذي رآه. لكنه ما إن اجتاز زاوية المبنى حتى وجد الممر خالياً. تحقق من الجدران، لكنه لم يجد أبواباً يمكن أن يدخل عبرها أي كان. لقد اختفى ذلك الشخص على ما يبدو.

هل تخيل الأمر؟ هل تصوّر عقله شكلاً غير موجود؟! أو ربما يوجد تفسير أكثر بساطة، وهو أن امرأة محلية قررت سلوك طريق مختصر حول الفندق للوصول إلى مقصدها. تقدم شارلوك في الممر، وانحنى للتحقق من الأرض. ثمة آثار أقدام ممتدة إلى البعيد. كانت مقدمة الحذاء مستدقة والكعب صغيراً؛ استناداً إلى الآثار الباقية في الوحل. ولا توجد أي آثار لثقوب في النعل؛ مما يشير إلى أن الحذاء جديد أو يخضع لصيانة جيدة، أو الأمرين معاً. تحقق من الأرض مجدداً، ومشى بضعة أمتار إضافية في الممر، لكنه لم يجد أي شيء آخر لرؤيته.

امتطى حصانه فيلادلفيا وهو شارد الذهن، وانطلق إلى منزل أميوس غروي لتسليمه تذكركه. كانت هناك حركة في المنزل الصغير عندما وصل، وكان حصان فيرجينيا في الحقل الصغير يأكل الأعشاب. أحسّ بمزاجه يتحسن وهو ينزل عن صهوة حصانه ويقرب من الباب المفتوح. لم تكن فيرجينيا في الغرفة الرئيسة، لكن أميوس غروي كان جالساً على كرسي هزاز وهو يقرأ كتاباً. نظر إلى شارلوك لدى دخوله، وتأمله من أعلى عدستي نظارته، وسأله: "هل أحضرت التذكريتين؟". توقف شارلوك مجيباً: "نعم. وقد التقيت روفوس ستون. كان في فارنهام".

زَمَّ غروي شفثيه قائلاً: "هذا واضح. من الغريب أن يأتي إلى هنا؛ إلى المكان الذي تعيش فيه أنت تحديداً". "أرشدته إلى المكان الذي أسكن فيه، وسألته إذا كان يرغب في المجيء إلى فارنهام لتعليمي العزف على الكمان".

قال غروي وعيناه الزرقاوان تتأملان شارلوك: "يا لهذا السخاء منك! أفهم ما يمكن أن تحصل عليه أنت نتيجة ذلك، لكنني لا أرى أي فائدة بالنسبة إلى السيد ستون".

وتابع شارلوك كلامه: "إنه يعيش في مكان ما في المدينة". وأحسّ بعدم الارتياح نتيجة عدم حماسة غروي لدى سماعه خبر وجود روفوس في

المنطقة. "من الأفضل أن يعيش في المكان الذي يرغب فيه الناس بتعلم العزف على الكمان".

"مثلك تماماً".

"نعم، مثلي تماماً".

وضع غروي كتابه على حضنه، ونزع نظارته قائلاً؛ ولكن ليس بفضاظة: "الموسيقى مصدر إلهاء يا شارلوك. إن عزف الموسيقى ليس هواية مناسبة لرجل يحاول ملء دماغه بمعلومات مفيدة. فكّر فقط في مدى انهماك دماغك نتيجة تعلمك كل النغمات الخاصة بقطعة موسيقية. لذا، يستحسن أن تستغله في حفظ الآثار التي تتركها الحيوانات، أو أشكال آذان الأشخاص، أو الآثار الباقية على أيديهم أو ملابسهم نتيجة ما يفعلونه خلال النهار، وليس الموسيقى يا بني. فالموسيقى ليست مفيدة لأي كان".

أجاب شارلوك وهو يشعر بخيبة أمل نتيجة رفض أميوس غروي شيئاً وجد نفسه مهتماً به أكثر فأكثر: "لا أوافقك الرأي". وتذكر أفكاره أثناء توجهه إلى البلدة؛ عن الفرق بين الحيوانات والبشر، فقال: "بلى، أستطيع حفظ كل تلك الأمور. وأستطيع تعلم كل شيء عن أنواع الفطر الصالحة للأكل وتلك السامة، ومعرفة حالة زواج رجل ما من البقع الموجودة على قبعته... لكن، لماذا؟ ما الجدوى؟ إن ذلك يحولني فقط إلى شخص خارق يقدر على تعقب فريسته من خلال الإشارات غير المنظورة تقريباً. لا شك في أن الموسيقى تعني شيئاً ما. ولا شك في أن الحياة تنطوي على ما هو أهم من كوننا أفضل من الحيوانات؟".

سأل غروي وهو ينظر إليه بحذر: "وهل الموسيقى هي الشيء الذي يميزنا عن الحيوانات؟".

"إنها أحد تلك الأشياء".

هزّ غروي كتفه قائلاً: "لا أستطيع القول إنني امتلكت يوماً الوقت الكافي لها. الإنسان بالنسبة إليّ هو الذي يهتم بأقربائه وبنفسه، ويحاول التأكد من أن الأشخاص حوله يهتمون ببعضهم بعضاً. وإذا كان القيام بهذه الأمور يجعلني شبيهاً بالحيوان، إذاً لا مانع عندي".

وجد شارلوك نفسه يسأله: "لكن، ما الهدف من كل ذلك؟ إذا لم يكن هناك شيء ما يشعرونا أننا...". وكافح لإيجاد الكلمة المناسبة، ثم تابع: "أعلى مرتبة، فما الجدوى إذاً من فعل أي شيء على الإطلاق؟".

أجاب غروي ببساطة: "للبقاء على قيد الحياة. نحن نعيش لنبقى على قيد الحياة".

سأل شارلوك وهو خائب الأمل: "أهذا كل شيء؟! أنفعل ذلك لنتمكن من متابعة حياتنا؟! أنعيش لنبقى على قيد الحياة، ونبقى على قيد الحياة لنعيش؟!".

أجاب غروي: "بالضبط. قد تكون فلسفة الموضوع غير جذابة، لكنها تمتاز بكونها قديمة ولا يمكن إنكارها البتة. والآن، هل ستبقى هنا لتناول الطعام أم إنك ستعود إلى عائلتك؟".

قمع شارلوك العبارات التي كان على وشك التفوه بها، وخاب أمله لأن غروي بدّل الموضوع بسرعة كبيرة؛ لكنه في الوقت نفسه سرّ لأنهما لن يتواجها. فهو يحب أميوس غروي، ولا يريد أن تنهار صداقتهما بسبب شيء بسيط مثل دروس الموسيقى. "هل فيرجينيا هنا؟".

"إنها في الخارج، تحضر الماء لسانديا. اذهب للبحث عنها إذا أردت". وفيما توجه شارلوك صوب الباب، هدر صوت غروي: "قد يهملك أن تعرف أن "روفوس ستون" أيضاً اسم قرية قرب ساوثمبتون. إنها مصادفة ربما... أو ربما كان من دون اسم في مرحلة ما، واختار اسماً خطر في باله لأنه قرأه على لافتة طريق في مكان ما. هذه مجرد فكرة". كانت فكرة وجدها شارلوك مقلقة، كما وجد غرابية في أن أميوس غروي قد طرحها.

عثر على فيرجينيا في الخارج. وكانت قد أحضرت دلواً من الماء، وكان حصانها سانديا يشرب منه بحماسة.

سألها فوراً: "ما الذي يملكه والدك ضد روفوس ستون؟". "أوه مرحباً". نظرت إليه جانبياً، ثم أردفت: "هل تقول لي إنك لا تعرف؟".

اعترف قائلاً: "في الحقيقة، لا أعرف". هزّت رأسها قائلة: "قلت لك ذلك سابقاً، وسأكرّره مجدداً؛ بالنسبة إلى شاب ذكي، يمكنك أن تكون غيباً فعلاً أحياناً". احتج قائلاً: "لكن هذا غير منطقي البتة! فكّرت في أن والدك سيفرح لأنني أعقد صداقات جديدة وأعثر على اهتمامات جديدة".

استدارت فيرجينيا نحوه بالكامل، ووقفت واضعة يديها على وركيها. "دعني أطرح عليك سؤالاً. لو كان والدك لا يزال في هذه البلاد بدلاً من كونه في الهند، فما الذي كان سيفعله بأبي؟ هل كانا سيتفقا؟".

قطّب شارلوك جبينه وفكّر في المسألة، ثم قال أخيراً: "أشك في ذلك. فأولاً، هما يتحدران من طبقتين اجتماعيتين مختلفتين، و...". صمت، غير

واثق من كيفية التعبير عن الفكرة بالكلمات.

قالت بسرعة: "وماذا؟".

"وبطريقة ما، يفعل والدك ما كان والدي سيفعله لو كان هنا".
وشعر شارلوك بالغرابة لمجرد سماعه الكلمات التي يتفوه بها: "أي تعليمي
بعض الأمور، واصطحابي في نزعات، وتزويدي بالنصائح".

"صحيح. إنه يتصرف معك كما يتصرف أي والد مع ابنه".

ابتسم لها بطريقة غامضة وسألها: "وأنت، ألا تمنعين؟".

ابتسمت بدورها مجيبة: "وجودك هنا أمر جيد بالنسبة إلي". ونظرت
بعيداً، ثم نظرت إليه مجدداً. "وأنت محق. كان والدك سيغار من قضائك
الكثير من الوقت مع شخص يعاملك كأنك ابنه؛ خصوصاً إذا كان ذلك
الشخص يعلمك أموراً لا يستطيع والدك تعليمك إياها".

بدا لشارلوك وكأن فكرة واضحة انفجرت فجأة في ذهنه. "ووالدك يغار
من روفوس ستون لأنه يظن أنه يتصرف معي مثل والد، أليس كذلك؟".
كانت الفكرة خطيرة جداً؛ لدرجة أنها ملأت كل عقله. "لكن هذا غباء!".
"لماذا؟".

"لأن روفوس ليس بمثابة أب مطلقاً. فهو أشبه بأخ كبير، أو عم
صغير، أو ما شابه. بالإضافة إلى ذلك، إذا تعلمت العزف على الكمان على
يد روفوس، فلن يعني هذا أنني لا أقدر دروس والدك. فهذان الأمران
منفصلان تماماً. هذا... غير منطقي!".

حدّقت إليه، ثم هزّت رأسها قائلة: "العواطف غير منطقية يا شارلوك.
فهي لا تتبع أية قواعد".

أجاب بتمرد: "إذاً، أنا لا أحب العواطف؛ فهي لا تفعل أي شيء
سوى توليد الارتباك والألم".

بقيت الكلمات عالقة بينهما لفترة طويلة، كما لو أن صداها يتردد
مثل الجرس المقروع.

قالت بهدوء، وهي تستدير وتسير بعيداً: "هناك بعض العواطف
الجديرة بأن نشعر بها". ثم انحنت ورفعت الدلو وتابعت: "هذا ما أظنه
على الأقل، وإن كنت لا توافقني الرأي".

مشت بعيداً صوب الجهة الخلفية للمنزل، فتبعها شارلوك بنظراته إلى
أن اختفت وراء الزاوية. أحس أن شيئاً مهماً جداً قد حصل للتو، ولكنه لم
يعرف ماهيته.

بعد قليل، مشى صوب حصانه، وهو يفكر في سره أنه لم يخبر

فيرجينيا أنه سماه فيلادلفيا. إنه لا يعرف الكثير عن العواطف ربما، لكنه يعرف جيداً أن هذا الوقت ليس ملائماً للعودة وإخبارها.

توجه إلى عزبة آل هولمز ورأسه مليء بالأفكار المشوشة حول أميوس غروي، وفيرجينيا، وروفوس ستون، ووالده. ولم يحب أيّاً من تلك الأفكار. فقد كانت معقدة، وغير منطقية، وتدّل على النضج... وعاطفية.

عندما وصل إلى العزبة، بحث عن عمه شرينفورد، وأخبره عن الرسالة التي أرسلها إليه مايكروفت. لم يطلب بالضبط إذناً للذهاب إلى لندن، ولكنه في الوقت نفسه لم يخبر شرينفورد بأنه ذاهب أيّاً كان رأيه؛ بل ترك لديه الانطباع بأن المسألة محسومة. ولحسن الحظ، كان عمه منهمكاً في إعداد إحدى عظاته الدينية التي يبيعها لكل رجال الدين في أرجاء البلاد مقابل بضعة جنيهات للعظة الواحدة. وانهماكه في عمله هذا عنى أنه كان أكثر من مسرور بقبول ما أراد شارلوك فعله؛ طالما أن هذا ما يريده مايكروفت أيضاً.

وفي صباح اليوم التالي، عندما استيقظ شارلوك كانت الشمس تسطع على الأشجار، فيما السماء زرقاء من الأفق إلى الأفق. فبدت مخاوف الليل تافهة تحت نور الشمس الساطع. ارتدى ملابسه بسرعة، وبعد فطور سريع تكوّن من العصيدة والخبز المحمص، سأل عمّه إذا كان من الممكن أن توصله إحدى العربات إلى المحطة؛ فهذا أفضل من ترك حصانه مربوطاً هناك ساعات طويلة أثناء وجوده في لندن.

كان أميوس غروي في انتظاره على الرصيف، وبدا مهيباً وضخماً جداً في بذلته البيضاء وقبعته البيضاء. وما إن رأى شارلوك حتى أومأ برأسه له وتمتم: "أعتقد أن حديثنا سلك مساراً خاطئاً بعد ظهر أمس. وأنا آسف إذا كنت قد بدوت صارماً قليلاً وغير منطقي".

فأجاب شارلوك بنبرة مطمئنة: "لا بأس. إذا كان لديك رأي ما فعليك قوله. وعدم فعل ذلك يعتبر نفاقاً".

تنحج غروي مصدراً صوتاً عميقاً، ثم قال بهدوء: "كانت والدة جيني تحب الأوبرا. أحببت كثيراً مغنياً ألمانياً اسمه واغنز. وبعدها توفيت، لم يعد بوسعي سماع صوت أي أوركسترا، أو صوت أي مغنٍ".

قال شارلوك بهدوء: "أفهمك".

"إذاً، أنت أكثر حكمة مني".

ولحسن الحظ، وصل القطار قبل أن يصبح الحديث بينهما أكثر غرابة. جلسا بمفردهما في مقصورة مرتبة، وكانت المقاعد منجّدة ومريحة.

تصاعد البخار من المحرك مثل سحابة منخفضة أمام النافذة، فتأمل شارلوك من بين الفجوات روعة المشهد الريفي المنبسط أمامهما.

تحقق جاي التذاكر من تذكريتهما مباشرة بعد اجتياز القطار بلدة ووكينغ. وعندما غادر المقصورة وأغلق الباب خلفه، قال غروي: "ماذا لاحظت في الرجل الذي غادر للتو؟".

وبما أن شارلوك يعرف طريقة تفكير غروي، كان يتوقع منه طرح مثل هذا السؤال، فقال: "حذاؤه ملمع حديثاً، وقميصه مكوي جيداً؛ مما يعني أن لديه خادمة أو إنه متزوج. وبما أنني لا أتوقع أن يكون جاي التذاكر قادراً على تحمّل كلفة خادمة لكي قمصانه، فأنا أفترض إذاً أنه متزوج على الأرجح".

تمتم غروي: "هذا جيد للغاية الآن".
فأضاف شارلوك: "زوجته أكبر منه سنّاً".
"كيف عرفت ذلك؟".

"إنه في العقد الثالث من عمره، لكن ياقة قميصه ذات تصميم قديم الطراز؛ فهي شبيهة بياقات قمصان عمي. وثيابه ليست بالية، أي إنه لم يرتدها منذ أعوام عدة. لذا، لا بد أن الشخص المسؤول عن ملابسه يفضل الطراز القديم للياقة. وإذا كانت زوجته هي المسؤولة، فإنها حتماً أكبر منه سنّاً".

قال غروي: "لقد نسيت احتمال أنه قد يملك زوجة أصغر منه سنّاً، ولكنها متحدرة من عائلة قديمة الطراز. لكن شرحك هو الأكثر ترجيحاً".
ختم شارلوك كلامه بنبرة منتصرة: "وهو لا يرى جيداً بعينه اليمنى".
أوماً غروي برأسه مؤكداً صحة ما خمنه شارلوك. "هذا صحيح. كيف عرفت؟".

"لقد حلق الجهة اليسرى من وجهه وعنقه بعناية، لكن الجهة اليمنى لا تزال توجد فيها بعض الشعيرات. لذا، أستنتج أنه يجد صعوبة في الرؤية بواسطة عينه اليمنى".

"ممتاز. مهارتك في الملاحظة ترتقي ببراعة شديدة".
فسأل شارلوك مبتسماً: "هل غفل عني أي شيء؟".

هزّ غروي كتفه وأجاب: "في الواقع، هناك عدة أمور. لقد كان الرجل متزوجاً سابقاً، لكن زوجته ماتت. وزواجه الحالي لم يثمر عن أولاد؛ مما يسبب لزوجته بعض الحزن. أوه، وأعتقد أنه يسرق المال من الشركة، لكن هذا استطراد".

لم يستطع شارلوك الامتناع عن الضحك. "كيف استطعت معرفة كل ذلك؟".

أجاب غروي مبتسماً: "بفضل الخبرة، بالإضافة طبعاً إلى الموهبة الطبيعية. في يوم ما، ستتمكن أنت أيضاً من فعل ذلك".
هزّ شارلوك رأسه وقال ضاحكاً: "أشك في ذلك. أشك في ذلك فعلاً".

الفصل الثالث

بدأت الرحلة إلى واترلو أقصر مما يذكرها شارلوك. وكان غروي أثناءها بمزاج جيد، ويحاول التوصل إلى استنتاجات بشأن مختلف الأشخاص الذين دخلوا مقصورتهم، وبشأن المحطات التي مرّ بها. وفي بعض الأحيان، ولمجرد إغاظه شارلوك، انخرط غروي في محادثات مع بعض الأشخاص، وجعلهم يتحدثون عن الأشياء التي أخبر بها شارلوك سابقاً. وتبدد سوء التفاهم الذي كان بينهما بشأن موضوع روفوس ستون بالكامل.

وعندما شق القطار طريقه إلى واترلو وأبطأ سرعته للتوقف قرب الرصيف، نزل الاثنان ومشيا عبر المحطة للعثور على عربة.

سبق لشارلوك أن رأى الازدحام في محطة واترلو في ما مضى. لكن، فيما كان يشق طريقه مع أميوس غروي عبر حشود غفيرة من الرجال الذين يعتمرون القبعات العالية، تخيل أنه يتحرك عبر مشهد مروّع لمداخن صناعية مرتفعة من مصانع داكنة. وجعل البخار المتصاعد من مداخن القطارات التي مرّت أمام المحطة المقارنة أسوأ. شعر بالانزعاج، وحاول إبعاد الصورة عن رأسه؛ إذ إن هذه الأفكار لا تتنابه غالباً، وهو لا يحب الأمر عندما يحصل. ما من طريقة منطقية للانتقال من القبعات العالية إلى المناظر الصناعية المفعمة بالدخان. إن المقارنة بين القبعات العالية والمداخن شاعرية، وليست تحليلية. وبالتأكيد، لن يوافق أميوس غروي عليها؛ لكن روفوس ستون قد يفعل. وجعلته هذه الفكرة يشعر ببعض الانزعاج.

أوقف غروي عربة خارج المحطة. وبما أنهما لا يملكان أي حقائب صعدا فوراً إلى العربة وانطلقا.

كانت العربة أشبه بصندوق يسير على عجلتين، فيما الحوذي يجلس في المقدمة، والحصان مربوط إلى الجهة الأمامية بواسطة طقم جلدي ولجام. اهتزت العربة بشكل مريع أثناء سلوكها طرقات لندن الوعرة.

قال غروي للحوذي: "إلى نادي دياغونيز".

فأجابه الرجل: "وأين يقع هذا النادي؟".

صرخ غروي: "توجه نحو مقر الأميرالية. ومن هناك، سأرشدك إلى الطريق". استقر غروي على مقعده مسترخياً، فيما انطلقت العربة إلى الأمام، وقال بنبرة محادثة: "النادي موجود منذ عام واحد تقريباً. ويبدو أن أخاك أحد المؤسسين، أو هكذا قال لي. تمّت تسميته تيمناً بالفيلسوف الإغريقي دياغونيز من سينوب. كان دياغونيز أحد مؤسسي الفلسفة الكلية مثلما

باتت معروفة".

قال شارلوك: "سمعت قبلاً بكلمة "كلبية" لكنني لم أكن أعرف معناها بالضبط".

"تقول الفلسفة الكلبية إن الهدف من الحياة هو عيش حياة فاضلة بالتوافق مع الطبيعة؛ مما يعني عملياً رفض كل الرغبات التقليدية في الثروة والسلطة والصحة والشهرة، وعيش حياة بسيطة خالية من الرغبات. لا يمكن إيجاد عيب في ذلك، رغم أن هذه الفلسفة تنفي حصول أي تقدم صناعي في المجتمع. اعتقد أتباع الفلسفة الكلبية أيضاً أن العالم يخص الجميع بالتساوي، وأن المعاناة تنجم عن الأحكام الخاطئة حيال ما هو قيم، وعن العادات والتقاليد غير المجدية التي تسيطر على المجتمع". وتوقف عن الكلام هنيهة، ثم تابع: "لا أعرف كيف ينطبق ذلك على أخيك أو على النادي، لكن عليك أن تعرف أن نادي دياغونيز يملك قاعدة صارمة جداً؛ إذ لا يسمح لأحد بالتحدث داخله، ولو بكلمة واحدة. والاستثناء الوحيد يحصل في قاعة الغرباء التي أفترض أن أخك سيلاقينا فيها. وإلا، فسيكون يومنا مزعجاً".

قعقت العربة لدى مرورها على جسر ويسمنستر، ولفتت انتباه شارلوك القوارب المختلفة التي يتم تجديفها في الماء البني القذر، فسأل: "هل عاش دياغونيز وأفلاطون في الوقت نفسه؟". وتذكر الكتاب الذي أهده إياه أخوه عندما أبحر إلى أميركا؛ كتاب الجمهورية لأفلاطون. أجاب غروي: "نعم، هذا صحيح، لكنهما لم يتفقا. سأخبرك القصة يوماً ما".

وعندما وصلت العربة إلى الجهة الشمالية من النهر، استدارت نحو اليسار، ثم انعطفت صوب جادة عريضة تصطف الأشجار على جانبيها. وفي أعلى الجادة، تعرّف شارلوك إلى ساحة ترافالغار، ورأى النصب التذكاري للورد نلسون. وكان قد رآه في المرة الأخيرة التي جاء فيها إلى لندن. بعد ثوانٍ قليلة توقفت العربة، ونزل الاثنان على الرصيف، ودفع غروي للحوذي أجرته البالغة بضعة بنسات.

كانا لا يزالان في الجادة العريضة التي تصطف الأشجار على جانبيها، ولكنهما في أعلاها؛ حيث تنعطف الجادة نحو طريق أخرى. كان ثمة باب في جدار أمامهما، وقرب الباب علقت صفيحة نحاسية كتب عليها "نادي دياغونيز".

طرق غروي على الباب برأس عصاه. وبعد لحظات، فتح الباب، فمشى

غروي في المقدمة وقد أخفض رأسه تفادياً لارتطامه بإطار الباب المنخفض، فيما لحق به شارلوك.

كانا يسيران في ممر ضيق ذي جدران مغطاة بألواح السنديان وذي أرضية رخامية. وكان هناك درج يؤدي إلى الطابق الأول، وباب مفتوح يؤدي إلى ما بدا مثل قاعة كبيرة مليئة بالكراسي الجلدية الخضراء. كان الصمت مسيطراً؛ لدرجة أن شارلوك شعر به يضغط على أذنيه تقريباً. أما تكتكة الساعة الموجودة في مكان ما في العتمة فقد تردد صداها في القاعة. كان الرجل الذي فتح الباب قصيراً. وبدت ملابسه مرتبة؛ وهي عبارة عن بذلة خادم زرقاء اللون. فيما أوحى طلته بأنه جندي سابق. لم يكن شارلوك خبيراً، لكن الرجل وقف منتصباً، وكان حذاؤه لامعاً؛ لدرجة أن شارلوك اعتقد أنه بإمكانه ربما رؤية انعكاس صورته عليه. أعطاه غروي بطاقة، فألقى نظرة سريعة عليها، ثم أوماً برأسه وأشار إلى غروي وشارلوك للحاق به عبر الغرفة المتفرعة من الردهة؛ القاعة المليئة بالكراسي الخضراء التي يشغلها رجال يقرأون الجرائد. توجه الخادم صوب باب في الطرف البعيد للغرفة، وطرق عليه.

رفع بعض الأشخاص رؤوسهم عن جرائدهم حين دخلا، وحدقوا إلى مصدر الضجيج.

أصغى شارلوك جيداً، لكنه لم يسمع أي جواب. فكّر في ما قاله له غروي، واستنتج أنه إذا لم يكن يسمح لأحد بالتحدث في النادي، فلا يجب أن يتوقع أبداً أن يتفوه أي كان بكلمة "ادخل". وبدا جلياً أن الخادم ينتظر أن يفتح أحدهم الباب.

لم يحصل أي شيء، فطرق الخادم الباب مجدداً. هذه المرة، سُمع شجار من داخل الغرفة، وارتطم شيء ما بالباب، ثم تمت إزاحة لسان القفل وفتح الباب.

وقف مايكروفت هولمز عند الباب، حاجباً الغرفة خلفه بجسمه الضخم، وبدا مرتبكاً. رفع يديه إلى الأعلى كما لو أنه أراد لمس جبينه، وبدا متفاجئاً بقدر شارلوك وغروي والخادم لأنه كان يحمل سكيناً. حدّق مايكروفت في السكين كما لو أنه لم يرها من قبل، ثم أدار رأسه للنظر مجدداً إلى داخل الغرفة. وعندما فعل ذلك، ابتعد قليلاً، واستطاع شارلوك رؤية ما يوجد خلفه.

كانت الغرفة مكسوة بالألواح الخشبية؛ تماماً مثل بقية النادي - وإهما من دون نوافذ - وثمة طاولة كبيرة في وسطها، وقد تم ترتيب الكراسي

المنجدة بشكل متناسق حولها.

كان هناك رجل على أحد الكراسي، واستناداً إلى بقع الدم المنتشرة على قميصه، وطريقة تحديق عينيه في الثريا المتدلّية من السقف العالي، يمكن القول إنه ميت.

قال شارلوك: "مايكروفت؟".

انتشرت الدهشة بين الموجودين في قاعة النادي، تلتها همسات الاحتجاج على هذا الخرق الواضح للقواعد، لكنه لم يبال؛ إذ أراد فقط أن يعرف ما حصل.

تراجع الخادم إلى الخلف، والصّدمة تبدو واضحة في عينيه. ولكن غروي تجاهل الرجل، ثم حاكى إطلاق الصفيّر، فأوماً الخادم برأسه واستدار، وانطلق مبتعداً.

أمسك غروي بذراع شارلوك ودفعه إلى قاعة الغرباء، وأغلق الباب خلفهما.

لاحظ شارلوك أن الجهة الخلفية للباب مبطنة بطبقة سميكة؛ للحؤول ربما دون تسلل الضجيج إلى قاعة النادي. تراجع مايكروفت إلى الخلف، فيما بقيت عيناه مرتبكتين، والسكين في يده. قال بتردد: "لا أفهم".

قال غروي: "سيد هولمز، عليك أن تركز. ماذا حصل؟ أخبرنا كل شيء". فأجاب مايكروفت: "كنت... في انتظاركما". واكتسب صوته المزيد من القوة فيما تكلم. "توقعت وقت وصولكما استناداً إلى جدول مواعيد القطار وحركة السير العادية بين محطة واترلو والنادي في هذا الوقت من النهار. وحين سمعت طرقاتاً على الباب فتحتّه، فوجدت الخادم برينيل يحمل لي بطاقة على صينية. يبدو أن رجلاً ما أراد رؤيتي. لم أعرف من يكون، وكنت على وشك إرساله بعيداً عندما لاحظت أنه تمّت كتابة بعض الكلمات على الجهة الخلفية للبطاقة. كانت كلمات... صادفتها أثناء وظيفتي؛ كلمات مهمة، فأشرت إلى برينيل بضرورة إحضار الرجل إلى هنا، إلى قاعة الغرباء". صمت قليلاً مقطباً جبينه؛ كما لو أنه يحاول تذكر أمر صعب، ثم تابع القول: "انتظرت هنا إلى أن سمعت طرقاتاً على الباب - بدل النداء - فذهبت إلى الباب وفتحتّه. فهذه هي العادة هنا، في نادي دياغونيز؛ لتفادي الكلام غير اللازم، الذي يجده معظم الأعضاء مزعجاً. وكان ثمة رجل واقف في الخارج...".

سأل غروي وهو يشير إلى الجثة الهامدة على الكرسي: "أهو ذلك

الرجل؟".

قال مايكروفت مجفلاً: "نعم، هذا هو الرجل. أشرت إليه ليدخل، ففعل. ثم أغلقت الباب خلفه، و...". اختفى صوته، وارتفعت يده- تلك التي لا تحمل السكين- كما لو أنه أراد لمس شيء في رأسه. "هذا كل ما أتذكره إلى أن سمعت الطرق مجدداً على الباب. اعتقدت أنني أعيش إحدى تلك اللحظات التي يشعر المرء أنها شوهدت من قبل، أي " déjà vu " كما يقال بالفرنسية؛ حين تعتقد أن الشيء الذي يحصل لك قد حصل من قبل. فتحت الباب متوقفاً إيجاد برينيل والزائر في الخارج، لكنني وجدتكما؛ فشعرت بالارتباك. لذا، استدرت متوقفاً رؤية الزائر خلفي". وأشار مايكروفت إلى الجثة على الكرسي، ثم تابع القول بنبرة جافة كان شارلوك معتاداً عليها: "وجدته، ولكن ليس بالطريقة التي توقعتها".

قال غروي: "سيد هولمز، لنكن واضحين تماماً، لأن هذا السؤال سي طرح حتماً من قبل الشرطة: هل قتلت هذا الرجل؟".

قال مايكروفت بحذر: "لا أذكر أنني قتلته". فتنهد غروي قائلاً: "أقترح أن تقول "لا" فقط بكل بساطة عند طرح هذا السؤال عليك في المرة التالية. رغم أن هذا لن يفيدك كثيراً. هل تعرف محامياً جيداً؟".

أجاب مايكروفت: "ثمة محامٍ خاص بالنادي. ويستطيع برينيل إعطاءك المزيد من التفاصيل".

"إذًا، مهما حصل في المستقبل القريب، فابق مطمئناً لأننا سنوكل لك محامي النادي دياغونيز، وسنعمل على إطلاق سراحك".

استدار مايكروفت للنظر إلى الجثة، ثم قال بألم واضح: "قد يكون هذا صعباً؛ فهناك القليل من الأدلة المهمة، وهذا الكم الضئيل يورطني على ما يبدو".

فقال شارلوك بصرامة: "أنت لم تقتله. لا أعرف الكثير عما حصل هنا، لكنني واثق من ذلك".

ابتسم مايكروفت قليلاً، وربّت على كتف شارلوك قائلاً: "شكراً لك. أعتقد أنني بحاجة إلى سماع ذلك".

سمعوا جلبة في الخارج أنذرتهم بوصول الشرطة. قال غروي: "أقترح عليك وضع السكين على الطاولة. فليس جيداً على الإطلاق أن تكون حاملاً سلاحاً عند وصول الشرطة".

توجّه مايكروفت نحو الطاولة، ووضع السكين عليها في اللحظة التي

فتح فيها الباب، ودخلت مجموعة من الرجال الذين يرتدون بذلات زرقاء اللون. تقدم غروي إلى الأمام لحجب حركة مايكروفت وقال: "حصلت جريمة هنا. الجثة قرب الطاولة؛ تماماً مثل السكين التي استخدمت على الأرجح لتنفيذ الجريمة".

سأل كبير رجال الشرطة: "ومن تكون أنت؟".

"اسمي أميوس غروي. ومن أنت؟".

أجاب رجل الشرطة: "أنت رجل غريب". ثم أشار إلى شارلوك ومايكروفت وسأل: "هل كنتما هنا لحظة وقوع الجريمة؟".

فقال غروي بصوت مهذب وإمها صارم: "سألتك عن اسمك".

عندها، أجب الشرطي وهو يقف منتصباً: "أنا الرقيب كولمان. يمكنك الآن ربما الإجابة عن سؤالي". وصمت قليلاً ثم أضاف: "سيدي".

فقال غروي: "كنت خارج الغرفة مع هذا الشاب الصغير. ويستطيع الخادم أن يشهد على ذلك".

"وما اسم الشاب الصغير؟".

أجاب شارلوك: "شارلوك هولمز".

فألح الرقيب بالسؤال: "إذاً، من كان داخل الغرفة؟".

تردد غروي مجفلاً قليلاً، ثم أجب: "أعتقد أن هذا الرجل كان في الغرفة". وأشار إلى مايكروفت بإيماءة من رأسه.

عندها، تقدم الرقيب إلى الأمام وسأل مايكروفت: "هل هذا صحيح يا سيدي؟".

فأوماً مايكروفت برأسه وقال بوضوح: "نعم، كنت في الغرفة".

"وما اسمك؟".

"مايكروفت سيغر هولمز".

"وهل قتلت هذا الرجل يا سيدي؟".

"لم أقتل هذا الرجل".

ولاحظ شارلوك أن شفتي غروي ارتعشتا قليلاً بسبب الصرامة التي بدت واضحة في صوت مايكروفت، فيما بدا الرقيب مصدوماً.

"أخشى القول يا سيدي إنني مضطر إلى توقيفك. سيتم نقلك إلى سكوتلاند يارد، حيث ستستجوب بعد حلف اليمين".

ألقى الشرطي نظرة سريعة على الجثة، ثم نظر إلى أحد رجال الشرطة الذين كانوا برفقته وقال: "أرسل أحداً لإحضار الطبيب الشرعي. الطبيب موردوخ في الخدمة اليوم، لذا اطلب منه الحضور لفحص الجثة،

وأحضر تلك السكين؛ فسنعرضها على القاضي".

بدأت الكلمات مثل قرع جرس عملاق متنافر النغمات على أذني شارلوك. وراقب بذعر سحب رجال الشرطة لمايكروفت من كتفه، وإخراجه من قاعة الغرباء عبر قاعة النادي ومن ثم إلى الردهة، فيما حمل أحد رجال الشرطة السكين من مقبضها بحذر شديد.

بدأ شارلوك القول: "سيد غروي".

فأجاب غروي: "لا وقت لهذا الآن. أفهم أنك متأثر، وهذا أمر متوقع. ولكن المشكلة أننا إذا أردنا تبرة اسم أخيك وإنقاذه من السجن فعلينا التحرك بسرعة، وبدقة تامة. العواطف في الوقت الحاضر تبطننا وتشوش أحكامنا. هل تفهم ما أقوله؟".

فأجاب شارلوك بهمس: "نعم".

"اقمع الحزن والصدمة المسيطرين عليك الآن، وتخيل أنك تلفهما ببطانية، وتربط البطانية بإحكام، وترميها إلى الجهة الخلفية من عقلك. لن أطلب منك أن تنسى المسألة إلى الأبد، وإنما فقط في الوقت الحاضر. يمكنك العودة إلى تلك العواطف لاحقاً؛ حين يكون الوقت آمناً، ولكن ليس الآن".

"نعم، فهمت". وأغمض شارلوك عينيه، وحاول فعل ما اقترحه عليه غروي. حاول تصوّر نفسه وهو يلفّ مزيج العواطف التي يشعر بها على شكل كرة ملتهبة متدلّية داخل رأسه، ثم حاول تخيل فوطة مقاومة للنار وسوداء مثل الليل تلتف حول تلك الكرة النارية. ظهرت حبال وسلاسل من العتمة والتفت حول الفوطة، وشدّتها بإحكام إلى أن اختفت الكرة بالكامل. ثم تخيل تلك الكرة وهي تغرق في العتمة إلى أن استقرت على الأرض في خزانة مليئة بالغبار؛ في الجهة الخلفية لعقله، ثم أغلق الباب.

فتح عينيه وأخذ نفساً عميقاً، فشعر ببعض التحسن، وبذعر أقل. عرف أن المشاعر لا تزال موجودة - في الخزانة - لكنه لم يعد يشعر بها بشدة. يستطيع إخراجها من هناك متى أراد، لكنه في الوقت الحاضر غير واثق مما إذا كان يرغب في فعل ذلك.

"هل أنت بخير؟".

"أنا بخير. ما الذي يجدر بنا فعله؟".

"علينا تفتيش الجثة، وتفتيش الغرفة. أنا سأنجز المهمة الأولى، وأنت أنجز المهمة الثانية".

"اتفقنا". فكر قليلاً ثم تابع: "لماذا تركنا رجال الشرطة بمفردنا هنا

مع... الجنة؟! " .

حدّق غروي بانشده ثم أجاب: "المشكلة في مهنة مكافحة الجرائم هي أن رجال الشرطة يحبون الأجوبة البسيطة والسهلة. فوجود شخصين في غرفة مقفلة؛ أحدهما ميت والثاني لا، بالنسبة إلى رجال الشرطة الجواب بسيط. وعليّ الاعتراف بأنني لو لم أكن أعرف أخاك جيداً لبدا لي الجواب بسيطاً أيضاً. فبرأيهم الشخصي، لقد ألقوا القبض على المجرم. والسكين أشبه بدليل انتصار بالنسبة إليهم؛ فهم يستطيعون التلويح بها أثناء المحاكمة وإخافة القضاة. أما بالنسبة إلى الجنة، حسناً، إنه ميت، ولن يذهب إلى أي مكان قبل أن يأتي الطبيب الشرعي وينقله بعيداً. ويفترض بذلك أن يمنحنا وقتاً كافياً للنظر إلى ما كان بوسعهم اكتشافه لو كبّدوا أنفسهم عناء البحث. والآن، كفى كلاماً، ولنبدأ العمل!".

وفيما انهمك غروي في تفتيش الطاولة، بدأ شارلوك بالبحث في إحدى زوايا الغرفة، وأمعن النظر في كل إنش بطريقة منهجية. لم يكن يعرف ما يبحث عنه، ولذلك بحث عن أي شيء خارج عن المألوف. تحقق من الجدران المرصوفة بالألواح الخشبية والصور المعلقة عليها، حتى إنه سحب أحد الكراسي بعيداً عن الطاولة ونقله صوب الحائط ليتمكن من الصعود عليه وفحص القضبان الحديدية المؤطرة لإحدى الصور الممتدة في الأعلى مباشرة تحت السقف. ثم رمى نفسه على الأرض وتفحص السجادة بحثاً عن أشياء يمكن أن تكون قد سقطت من يد أحدهم أو جيبه وعلقت بين الألياف.

سأله غروي بعد قليل: "هل وجدت شيئاً؟".

فأجاب باكتئاب: "ليس بعد".

واستمر في التحرك في أرجاء الغرفة، وجعل عينيه تجولان في كل مكان. وعندما وصل إلى زاوية الطاولة لاحظ شيئاً ما تحتها على الأرض: علبة جلدية صغيرة متروكة في ظل قائمة الطاولة؛ كما لو أن أحدهم قد وضعها بسرعة بعيداً عن الطريق.

فقال وهو يُخرج العلبة ويضعها على الطاولة: "وجدت شيئاً".

عندها، ابتعد غروي عن الجنة لرؤية ما تم العثور عليه، وتأمل العلبة بدقة، ثم تمتم: "تركيبه خشبية، غطاء جلدي، مفصلات نحاسية، قفل نحاسي، قوائم نحاسية؛ ما من شيء خارج عن المألوف. ما من علامات تدل على اهتراء قوائمها، وما من تلف في المقبض؛ مما يشير إلى أن العلبة جديدة. أوه، انظر إلى المقبض هناك، هل ترى الخيط المربوط حوله؟ حيث

كانت لصاقة السعر معلقة ربما. هذا الرجل - أو ربما شخص آخر - نزع لصاقة السعر لكنه نسي الخيط؛ وهذه غلطة ارتكبها". وحمل العلبة ونقر القفل. "إنها غير مقفلة، وهذا لصالحنا". وفتحها كي يتمكن شارلوك من رؤية ما يوجد داخلها.

كانت العلبة مبطنة بقطعة قماش حمراء؛ حرير أو ساتان ربما. والبطانة سميكة جداً؛ لدرجة أن أي شيء يوضع في العلبة ينضغط بين الجانبين عند إغلاق العلبة.

"ثمّة انخسافان في الحشوة، هل ترى؟". وأشار غروي إلى مساحتين انضغطت فيهما الحشوة إلى الداخل؛ مما يوحي بأن العلبة احتوت على شيئين، لكن شارلوك كان قد رآهما أصلاً. "الانخساف مموه جداً؛ حيث تصعب معرفة الشكلين، رغم أنهما يبدوان مختلفين".

أشار شارلوك إلى أحدهما قائلاً: "الحشوة حول أحدهما ذات لون مختلف. إنها أكثر دكنة بقليل".

فتمتم غروي: "يمكن أن يكون هذا مجرد تلف".

"لكن العلبة جديدة، وقد تم شراؤها للتو".

"نقطة جيدة". ولمس غروي سطح الحشوة. "إنها رطبة قليلاً؛ هذا

غريب! ثمّة شيء رطب كان موضوعاً هنا، ربما قنينة تحتوي على سائل رشح منها جزئياً". فنظر شارلوك في أرجاء الغرفة وسأل: "قنينة ماذا؟".

"لا أعرف بالضبط. دعنا نبقى هذه المعلومة في ذهنينا لاستعمالها

لاحقاً". وأغلق غطاء العلبة، ثم نظر في الغرفة. "ماذا عن هذه الألواح على الجدار؟ هل من أبواب مخفية؟ هل من دليل على وجود نافذة تحتها؟ لا بد أن شخصاً ما قد دخل هذه الغرفة وخرج منها من دون أن يراه أحد".

"فكرت في الأمر، لكن لا دليل على ذلك كوجود مفصلات أو درزات.

وطرقت على الجدران، لكن أياً منها لا يبدو أجوف".

"حسناً".

"هل تريد التحقق منها؟".

بدا غروي متفاجئاً. "ولماذا يجدر بي التحقق؟ تملك عينين جيدتين،

وعقلاً جيداً خلفهما. ماذا عن السجادة؟".

"يبدو لي وكأنه يتم تنظيفها كل يوم، ولم أرَ أي شيء وقع عليها

اليوم".

فقال غروي بكآبة: "إذاً، لا يوجد أي شيء".

بدأ شارلوك بالقول: "باستثناء...".

"باستثناء ماذا؟".

"باستثناء رقعة رطبة على السجادة هنا. وهي رقعة باردة".

فاستدار غروي وحدّق في شارلوك وسأله: "ماذا؟".

"رقعة رطبة. ربما أوقع أحدهم كأس ماء".

رفع غروي حاجبيه. "هذا مثير. لدينا علبة احتوت ربما على قنينة ما، ومملك بقعة رطبة حيث يمكن أن تكون القنينة قد وقعت، لكن ما لا يملكه هو القنينة نفسها، والشيء الذي كان موجوداً مع القنينة. هذا شذوذ، والشذوذ هو ما نحتاج إليه في الوقت الحاضر. الأمور التي لا تنطبق".

لم يكن شارلوك واثقاً. "ما الذي يعنيه هذا؟".

هزّ الرجل الكبير كتفه. "لا أعرف بعد، لكنني سأحتفظ بالمعلومات للتفكير فيها لاحقاً، وأقترح عليك فعل الشيء نفسه. والآن، تابع البحث. فإذا اكتشفت أمراً ما، فهذا لا يعني أنه لا توجد أمور أخرى يمكن اكتشافها".

أمضى شارلوك الدقائق العشر التالية وهو يفتش بقية الغرفة، لكنه حين عاد إلى الزاوية التي بدأ منها توقف. وبدا له أن أميوس غروي قد أنهى تفتيش الجثة أيضاً؛ إذ كان يقف في الخلف وينظر في أرجاء الغرفة. سأله شارلوك: "هل وجدت أي شيء؟".

هزّ غروي كتفه وقال: "بعض الأمور البسيطة ولكن المهمة. في البداية، لم يكن هذا الرجل بصحة جيدة، فقد خسر الكثير من الوزن في الآونة الأخيرة، وكان تحت إشراف طبيب. وجدت هذه". وحمل قنينة زجاجية صغيرة فيها ما يشبه الزر النابض في الأعلى. "أعتقد أنه دواء من نوع ما، رغم أنه يجدر بي التحقق منه".

فسأله شارلوك: "هل يمكنني إلقاء نظرة؟". فأعطاه غروي القنينة. كانت بحجم إبهام شارلوك، وبدا الزر النابض في أعلاها كما لو أنه يستخدم لضخ شيء من القارورة على شكل رذاذ ناعم عبر فوهة صغيرة على الجانب. شمّ شارلوك الرائحة المنبعثة منها، وتراجع إلى الخلف. ثمّة شيء مألوف في تلك الرائحة اللاذعة والقوية، لكنه لم يتمكن من تحديده بالضبط.

تابع غروي القول: "تجعله ملابسه يبدو مثل رجل محترم، لكن الوشوم على ذراعيه توحى بغير ذلك".

وضع شارلوك القنينة الزجاجية في جيبه، ثم توجه للوقوف قرب غروي. كان الرجل نحيلاً، وبرزت أوردة رفيعة وصغيرة في وجنتيه. كما كان

رأسه مرتدّاً إلى الخلف، كما لو أنه يحدّق إلى السقف بعينين منتفختين ومحتقتين بالدم. أما بشرته فبيضاء اللون، لكن شارلوك لم يعرف ما إذا كانت هكذا أصلاً أو إن ذلك ناجم عن موته. وبات قميصه الأبيض بنيّ اللون من الجهة الأمامية؛ نتيجة دمه الجاف، وثمة تمزق فيه على مستوى قلبه؛ حيث انغرزت السكين، كما فكر شارلوك باكتئاب.

لكن، من الذي غرز السكين؟

اقترّب أكثر وتأمّله. ثمة شيء في ذلك التمزق لفت انتباهه، لكنه لم يعرف ما هو بالضبط.

سأله غروي: "هل لمحت شيئاً؟".

تردد شارلوك، ثم قال: "كنت أحاول فقط تذكر شكل السكين؛ تلك التي كانت في يد مايكروفت".

فقال غروي: "عليّ الاعتراف بأنني لم أتأمّلها بدقّة".

أجاب شارلوك: "أنا فعلت. كانت سكيناً رفيعة؛ مثل تلك التي تفتح الرسائل. لكن التمزق في قميصه كبير جداً، أكبر مما يمكن أن يحدثه نصل السكين التي أذكر أنني رأيتها".

قال غروي: "هذا مثير. ألقيت نظرة سريعة على الجرح أنا أيضاً. إنه كبير الحجم، وقد أوحى لي بأن السكين كانت عريضة النصل. لكنك تقول إن السكين التي تم أخذها كدليل كانت ضيقة النصل... هذا شذوذ آخر يحتاج إلى شرح".

سأل شارلوك: "هل يحتمل أن يكون الرجل قد قاوم؟ وهل يحتمل أن تكون مقاومته سبب إحداث النصل تمزّقاً أكبر في قميصه... وجرحاً أكبر في بشرته؟".

فكر غروي قليلاً ثم أجاب: "ربما. مثل هذا الأمر بحاجة إلى التجربة للتحقق منه".

سأل شارلوك متعجباً: "ماذا؟! أتعني أن نطعن شخصاً آخر على أمل أن يقاوم؟".

فضحك غروي مجيباً: "لا. أقصد أن نحضر حيواناً ميتاً من مكان ما ونضع عليه قميصاً، ثم يقوم أحدنا بطعنه بسكين مخصصة لفتح الرسائل، فيما الآخر يحركه قليلاً. وهكذا، سنرى إذا كان بوسعنا تكرار شكل التمزق والجرح اللذين لدى هذا الرجل المسكين. فالتخمين يضعنا عند هذا الحد فقط، ولذلك نحتاج إلى الأدلة أكثر من أي شيء آخر". وأشار إلى الباب قبل أن يتابع: "اذهب وحاول إيجاد ذلك الخادم برينيل، وأحضره إلى هنا.

أريد طرح بعض الأسئلة عليه".

شقّ شارلوك طريقه إلى خارج قاعة النادي، فنظر إليه الجالسون بعصبية أثناء مروره؛ فقد رأوا رجال الشرطة، وعرفوا حتماً أن شيئاً ما خارجاً عن المألوف يحصل، لكنهم بدوا مصرّين على الادعاء أن كل شيء هادئ كالمعتاد داخل النادي. حاول شارلوك جعل نفسه صغيراً وهادئاً قدر الإمكان. وفيما كان يشقّ طريقه بين الكراسي الجلدية الخضراء، تساءل في قرارة نفسه عما وجدته أخوه في هذا النادي؛ فهو المكان الأكثر إثارة للضجر بين الأماكن التي قصدها طيلة حياته. وباستثناء الجريمة الحالية، افترض أن نادي دياغونيز ليس معتاداً على الجرائم.

وجد برينيل في الردهة، وبدا الخادم قلقاً. وكان شارلوك على وشك الطلب إليه مرافقته إلى قاعة الغرباء حين وضع برينيل إصبعاً على شفثيه وأسكته. عندها، أشار شارلوك إلى برينيل ومن ثم إلى قاعة الغرباء، فأوماً برينيل برأسه، وبعد ذلك تجاوز شارلوك والدرج وصولاً إلى باب يفضي إلى مساحة الخدم ربما. وعاد بعد لحظات قليلة برفقة خادم آخر، وكان هذا الأخير أكبر سناً وأكثر صلماً. ترك برينيل الرجل في الردهة للحراسة ومنع الغرباء من الدخول وإحداث ضجيج، ثم لحق بشارلوك عبر قاعة النادي. كان غروي واقفاً بالضبط حيث تركه شارلوك.

قال غروي للخادم فيما أغلق شارلوك الباب: "أقدّر كثيراً تخصيصك بعض الوقت للتحدث إلينا. أفهم أن لديك الكثير من الهموم الآن؛ مع تلك الجريمة وكل ما يترتب عنها".

فقال برينيل: "إنها صدمة حقيقية؛ صدمة بكل معنى الكلمة". وألقى نظرة على الجثة قبل أن يتابع: "ويجدر بنا حلّ اللغز أيضاً".
"أنت من رافق الرجل إلى هنا إلى قاعة الغرباء، أليس كذلك؟".
"نعم، سيدي. هذا صحيح".
"كيف تعامل معك؟".

فكّر برينيل قليلاً ثم أجاب: "جاء عبر الباب الرئيس؛ تماماً مثلما فعلتما، وأعطاني بطاقة. كتب على البطاقة اسم السيد هولمز، بالإضافة إلى كلمات أخرى لم أفهمها جيداً".
"ما كانت تلك الكلمات؟".

قطّب برينيل جبينه محاولاً التذكر، ثم قال: "أعتقد أنه اسم نادٍ آخر، لكنني لا أذكر ما هو. ظننت للوهلة الأولى أن الرجل قد وصل إلى المكان الخطأ؛ إلى أن رأيت اسم السيد هولمز مكتوباً على متن البطاقة".

نادٍ آخر! لسبب ما، لفتت كلمات الرجل انتباه شارلوك. نادٍ آخر. وقرّر الاحتفاظ بالمعلومة للتفكير فيها لاحقاً بتركيز أكبر.

قال غروي: "إذاً، إنه يعرف القواعد المتبعة في نادي دياغونيز، ويعرف جيداً أنه لا يجدر به الكلام".

"أفترض ذلك سيدي. نعم".

"ماذا فعلت حينها؟".

"وضعت البطاقة على صينية وأخذتها إلى السيد هولمز الذي كان ينتظر هنا أصلاً. بدا منفعلاً؛ كما لو أنه لم يكن يتوقع زيارة هذا الرجل، بل كان بانتظار شخص آخر. بدا لي منفعلاً، وأعتقد أنه كان على وشك رفض استقبال الزائر، لكنه قلب البطاقة وقرأ ما كُتب على جهتها الخلفية، ثم بدا أنه غير رأيه وقال: "أدخل الرجل إلى هنا يا برينيل". وهكذا، عدت واصطحبت الرجل إلى هنا وأدخلته".

"كم مضى من الوقت قبل أن نصل نحن؟".

فكّر الخادم قليلاً، ثم قال أخيراً: "لا أعتقد أنه مرّت أكثر من خمس دقائق، أو ربما عشر".

"هل سمعت أي ضجيج أو شغب يصدر من الغرفة؟".

"لا، لا شيء يا سيدي".

فأوماً غروي برأسه وسأله: "وما الذي أثار انتباهك في الزائر حينها؟ ما كان رأيك به؟".

كشّر برينيل ومتمم: "لست مخوّلاً لإبداء رأيي، سيدي".

عندها، رفع غروي يده إلى الأعلى، فلمعت قطعة نقود معدنية بين أصابعه، وقال: "أقدّر رأيك. لن يعرف أحد به؛ باستثنائنا نحن".

فكّر برينيل هنيهة، ثم قال أخيراً: "لا داعي لذلك. أحب السيد هولمز. لطالما كان جيداً معي. كان جيداً معي دوماً. وإذا كنت تحاول مساعدته، فلا مشكلة لدي".

قال غروي: "ممتاز". واختفت قطعة النقود المعدنية في يده الكبيرة.

أجاب برينيل عن سؤال غروي: "وجدت الرجل الذي جاء للزيارة مفرطاً قليلاً في ملابسه بالنسبة إلى مركزه في الحياة، إذا كنت تفهم ما أقصده".

"أفهم بالضبط ما تقصده، وأقدّر صراحتك كثيراً".

سأل شارلوك فجأة: "هل كان الرجل يحمل أي شيء؟".

أوماً أميوس غروي برأسه ومتمم: "سؤال جيد".

قطب برينيل جبينه محاولاً التذكر، ثم أجاب: "أعتقد أنه كان يحمل علبة صغيرة. أذكر أنني حاولت أخذها منه لوضعها في حجرة حفظ الأغراض، لكنه تشبث بها كما لو أنها ذات قيمة كبيرة. لذا، افترضت أنه يحتاج إليها للاجتماع بالسيد هولمز".

قال غروي: "هذه معلومات مهمة".

فتح الباب فجأة بقوة كبيرة، ودخل أحد رجال الشرطة الذين كانوا موجودين سابقاً، وقال: "يريد منك الرقيب كولمان أن تذهب إلى سكوتلاند يارد للإدلاء بشهادتك".

أجاب غروي: "يسرني ذلك. إذ يهمني كثيراً معرفة كيفية سير التحقيق".

كرر الشرطي مبتسماً: "التحقيق؟! لا داعي لذلك؛ فقد قبضنا على المجرم". وأخرجهم الشرطي بسرعة من قاعة الغرباء، وعبر قاعة النادي. وفيما كانوا يغادرون، بدا برينيل وكأنه أراد قول شيء ما، لكنه تقدم بدلاً من ذلك، وأعطى شارلوك قصاصة ورقية. وعندما نظر إليها شارلوك رأى الكلمات: أورفيل جنكينسون، محامٍ بالإضافة إلى العنوان. لا بدّ أنه المحامي الذي ذكره مايكروفت؛ ذلك المعتمد من قبل نادي دياغونيز. فابتسم لبرينيل، وأوماً له شاكراً.

بعد أن أصبحوا في الهواء الطلق، وفيما اندفع الشرطي بنشاط على الرصيف، استدار شارلوك نحو أميوس غروي، وطرح عليه السؤال الذي كان يدور في باله طوال الساعة الماضية. "سيد غروي، إذا لم نستطع إثبات براءة أخي، فما الذي سيحصل؟".

أجاب غروي باكتئاب: "ستجري محاكمته. وإذا تم إثبات التهمة عليه واعتبر مذنباً، فأخشى أنه سيتم شنقه".

الفصل الرابع

كان مركز شرطة بو ستريت ومحكمة القضاة عبارة عن مبنى متناغم مشيد بالحجر الأبيض ويقع في الزاوية؛ مباشرة خلف "كوفنت غاردن". وفيما كانوا يقتربون منه، تأمل شارلوك المبنى كله، وجعل تفاصيله تتغلغل في ذاكرته، وانتابه إحساس غريب بأن هذا المبنى سيصبح مهماً بالنسبة إليه، لكنه أمل ألا يكون السبب كونه المبنى الذي سيُحكم فيه على أخيه بالإعدام.

كانت حجارة الجدران ناتئة، فيما السقف مزوداً بفتحات؛ مما جعله يبدو أشبه بقصر يرجع إلى القرون الوسطى وليس مكاناً لتنفيذ القوانين. ابتسم شارلوك عند النظر إلى تلك الحجارة. لو كان ماتي أرنت هنا لصعد عليها وكأنها سلم للوصول إلى السقف.

كانت الأبواب عند الزاوية على مستوى الشارع، ولا توجد أدراج مؤدية إليها. وثمة مصابيح بيضاء معلقة في الخارج. نظر أميوس غروي إلى المصابيح، ثم استدار نحو الشرطي وسأله: "هل أنت واثق من أنك أحضرتنا إلى المكان الصحيح؟ كنت أعتقد أن مراكز الشرطة في هذه البلاد تملك مصابيح زرقاء في الخارج، وليس مصابيح بيضاء".

أجاب الشرطي: "كانت هذه القاعدة متبعة قبل سبعة أعوام تقريباً، لكن جلالة الملكة عارضت تركيب المصابيح الزرقاء في هذا المبنى. إذ يبدو أن الأمير ريجنت، رحمه الله، مات في غرفة زرقاء، ومنذ ذلك الحين لم يعد بوسعها تحمل رؤية اللون الأزرق. فقد كانت تأتي إلى دار الأوبرا الموجودة في آخر الطريق، وكانت تشعر بالانزعاج كلما مرّت أمام المصابيح الزرقاء. لذا، طلبت أن يتم استبدالها. حسناً، أقول طلبت لكنني أعتقد أنها أمرت رئيس الشرطة باستبدالها، وإلا فستستبدله شخصياً".

تمتم غروي: "من اللافت فعلاً أن تمتلك امرأة مثل هذه القوة في بلد تُحرم نساؤه من حق التصويت وحق الحصول على ملكية".

أدخلهما الشرطي المبنى، فمراً أمام المكتب الكبير في الردهة الأمامية، ثم تغلغا في أعماق المبنى. مرّاً أمام رجال يرتدون بذلات الشرطة وبذلات رسمية، وكان كل منهم منهمكاً في القيام بمهمة معينة. رافقهما الشرطي إلى رواق، ثم انعطفوا جميعاً عند إحدى الزوايا، وصعدوا بعد ذلك مجموعة من الأدراج. عندها، أشار الشرطي نحو غرفة مشتملة على طاولة وثلاثة كراسٍ حولها؛ كرسيان في إحدى الجهات، وكرسي واحد في الجهة المقابلة.

كانت الجدران قرميذية، ومطلية بلون أخضر مسبب للاكتئاب.
قال الشرطي: "انتظرا هنا. سيأتي إليكما الرقيب بعد قليل. لا تغادرا
الغرفة".

وبعدما خرج، جلس غروي بكل ثقله على أحد الكرسي، فطقطق
الكرسي تحت وزنه، ثم قال مخاطباً شارلوك: "اجلس أنت أيضاً في وضعية
مريحة؛ فقد نبقى هنا لبعض الوقت. سيتركنا بمفردنا لفترة من الزمن ربما؛
على أمل أن نشعر بالانزعاج والقلق ونصبح أكثر رغبة في الإجابة عن
أسئلته". وأطلق صوت شخير ثم تابع: "طبعاً، لو كنت مكانه لكنت قد
فصلت الاثنين واستجوبت كل واحد على حدة".

سأل شارلوك وهو يجلس قرب غروي: "لماذا؟".

"إذا استجوب كل واحد منا على حدة، فبإمكانه معرفة ما إذا كنا
نقدّم الأجوبة نفسها عن أسئلته. وإذا لم نفعّل، فسيدرك حينها أننا نكذب
في أمور معينة. لكن، إذا استجوبنا معاً فبإمكانك سماع أجوبتي وتبديل
روايتك وفقاً لها، والعكس صحيح".

تراجع غروي إلى الخلف في جلسة مريحة على الكرسي، وأغمض عينيه،
ثم أنزل قبعته إلى الأمام لحجب الضوء.
نظر شارلوك حوله، لكنه لم يجد في الغرفة أي شيء يثير الاهتمام.
إنها خالية عمداً من أي زينة وزخرفة.

وجد أفكاره تعود إلى مايكروفت، فقد يكون أخوه في مكان مجاور
الآن. لكن أينما كان، لا شك في أنه موجود في مكان أقل راحة من
الغرفة التي وضع فيها شارلوك وأميوس.

بعد ربع ساعة تقريباً، فتح الباب ودخل بسرعة الرقيب كولمان الذي
رأياه سابقاً. كان يحمل دفترًا وقلم رصاص، وقال قبل أن يجلس: "أريد
فقط إيضاح بعض التفاصيل. لا أعتقد أنها قضية صعبة، فهي واضحة تماماً
بالنسبة إلي".

خلع أميوس غروي قبعته ورفع حاجبه وقال: "قد تتفاجأ".

أجاب الرقيب: "تبدو لي الحقائق غير قابلة للإنكار. أوقفني إذا كنت
مخطئاً. لكن الغرفة كانت مقفلة، وفيها سبيل واحد للدخول والخروج؛ ألا
وهو الباب. وكان الرجلان في الداخل. وعندما فتح باب الغرفة، تم العثور
على أحد الرجلين ميتاً، فيما الرجل الثاني يحمل سكيناً. هل غاب عني شيء
ما؟".

أشار شارلوك: "لا يوجد دم على السكين".

"تم مسح الدم بواسطة قميص الرجل الميت عند سحب السكين من صدره".

سأل غروي: "هل تحققت من القميص بحثاً عن علامات المسح أم أن هذا مجرد افتراض؟".

عارض الرقيب قائلاً: "لا يمكننا إنكار وجود دم على القميص".
"نعم، الدم ناجم عن استخراج السكين من الجرح. لكن، هل توجد أية دلائل تشير إلى أنه تم مسح نصل السكين عمداً أو عن غير قصد بالقميص؟ فالاستخراج والمسح يتركان آثاراً عدة".

صرخ كولمان: "هذا غير مهم. فالدم دم، وتوجد سكين واحدة فقط في الغرفة. والآن، ما أريده منكما أيها السيدان هو إخباري عن سبب زيارتكما للمتهم".

قال شارلوك بهدوء: "إنه أخي، والسيد غروي صديق للعائلة. كنا على موعد مع مايكروفت لتناول الغداء معه".

قال كولمان وهو يدوّن على الدفتر: "يشير ذلك إلى أن الجريمة لم يتم التخطيط لها مسبقاً. فأنت لن تقتل رجلاً إذا كنت تعرف أن أحدهم آتٍ لتناول الغداء معك في أية لحظة. كانت المسألة ارتجالية".
سأل غروي: "وما هو الحافز؟".

رفع الرقيب عينيه عن دفتره وأجاب: "خطب ما في العمل، جدال بسبب امرأة؛ هناك الكثير من الأسباب المحتملة. في النهاية، هذا مجرد تفصيل. الشيء المهم هو أنه توجد جريمة ومجرم. هذا كل ما يهم".
وصمت هنيهة ثم تابع: "والآن، أريد اسميكما بالكامل مع عنوانيكما لتدوينها في الملف".

أعطاه غروي المعلومات، فدوّنهما كولمان بعناية. وبالحكم على الطريقة التي وضع فيها يديه على المكتب، وكأنه مستعد للنهوض فوراً على قدميه، أدرك شارلوك أن الاستجواب قد انتهى. شعر كما لو أنهم في قطار، وقد اجتاز عدداً من المسارات المحددة سلفاً، ولا مجال أبداً للعودة واختيار وجهة أخرى.

سأل شارلوك كولمان: "هل يمكننا رؤية مايكروفت؟ لدقائق معدودة فقط".

بدا كولمان متردداً.

فسأله غروي برفق: "وأين الضرر في ذلك؟! ففي النهاية، إنهما أخوان، ومن الممكن أن يصبح سجينك أكثر إذعائاً حين يرى شارلوك الصغير هنا.

وثمة احتمال أكبر بأن يعترف حينها".

ألقى شارلوك نظرة جانبية على غروي مصدوماً، لكن الأميركي الضخم غمزه بالعين التي كانت بعيدة عن كولمان.

فكر الشرطي قليلاً، وبدا رافضاً بشكل جلي. ثم قال أخيراً مكشراً: "أوه، حسناً. لا أفترض أن هذا قد يسبب أي أذى".

وذهب إلى الباب وفتحه. وكان الشرطي الذي رافقهما من نادي دياغونيز يقف هناك للحراسة.

قال كولمان: "خذ هذين الرجلين لرؤية المتهم. امنحهما عشر دقائق معه، ثم رافقهما إلى الباب الأمامي". واستدار نحو غروي وشارلوك وقال: "أقدر منحنا وقتكما أيها السيدان. لا شك في أنها صدفة مؤلمة، لكن تذكر أنه لو لم تكن هناك جرائم لما كنتم بحاجة إلينا، ولكن بوسعي الذهاب والانضمام إلى والدي في بيع الخردوات".

خرج كولمان بسرعة، فأشار إليهما الشرطي للحاق به، ورافقهما عبر المساحة الداخلية للمبنى التي تشبه المتاهة. نزلوا عدة طوابق من الأدراج للوصول إلى طابق سفلي؛ حيث الجدران مكسوة بالطوب غير المطلي، فيما تلالأت برك الماء على الأرضية المكسوة بالبلاط. وكان ثمة صف من الأبواب المعدنية المغلقة والممتدة على طول الرواق. رافقهما الشرطي إلى باب موجود في ثلث المسافة تقريباً، ثم أخرج علاقة مفاتيح من حزامه، واستخدم أحد المفاتيح لفتح قفل الباب، وأشار إليهما للدخول. "عشر دقائق، من دون أي ثانية إضافية. سأكون هنا في حال حصول أي مشكلة".

أشار غروي إلى شارلوك للدخول أولاً، ثم لحق به إلى الداخل.

كان مايكروفت جالساً في وضعية منتصبه على مقعد خشبي ممتد على جانب واحد من الغرفة، وقد شبك يديه بترتيب فوق حضنه. كانت عيناه مغمضتين، لكنه فتحهما ونظر إلى الأعلى لدى دخول شارلوك. دخل الضوء عبر فتحة ضيقة ومكسوة بالزجاج والقضبان المعدنية في أعلى الجدار البعيد، وهي تطلّ على الأرجح على الطريق. كانت الزنانة صغيرة جداً، حيث ملأها الرجال الثلاثة تقريباً. ولم يكن هناك مجال مطلقاً لكي يجلس شارلوك وغروي، ولذلك وقفا.

قال مايكروفت: "تفرحني زيارتكما. أعتذر على المكان".

نظر غروي حوله ثم قال: "إنه مكان حميم. تواجدت في أماكن أسوأ عندما وصلت من أميركا إلى إنكلترا للمرة الأولى".

أشار مايكروفت: "نعم. لكن، كانت لديك حرية المغادرة عندما وصلت

السفينة".

اعترف غروي: "هذا صحيح، لكنك حصلت على هذه الغرفة مجاناً. أما أنا فتوجب عليّ دفع الأجرة".

صرخ شارلوك: "هلا توقفتما! المسألة جدية".
أوما مايكروفت برأسه قائلاً: "أعرف. كنت فقط أحاول التخفيف من وطأة المسألة".

فسأله شارلوك: "وكيف تشعر الآن؟".
"رأسي يؤلمني، وأشعر بتشوش ذهني. قد يكون ذلك ناجماً عن اصطحابي في الشوارع من قبل مجموعة من رجال الشرطة الفظين". وارتعد فيما كان يتابع: "نادراً ما أمشي أكثر من مسافة مئة ياردة بعيداً عن نادي دياغونيز. فمكتبي ومقرّ سكني يقعان ضمن ذلك النطاق". وألقى نظرة على غروي قبل أن يتابع: "هل أحرزت أي تقدم في معرفة كيفية ارتكاب الجريمة؟ توصلت إلى سبع نظريات محتملة، لكنني أفتقد إلى الأدلة للتمييز بينها".

قطّب شارلوك جبينه؛ سبع نظريات محتملة؟! لم يستطع التفكير في نظرية واحدة.

قال غروي: "الرجل الذي زارك حمل علبة معه".
"أذكرها".

"داخلها مبطن، وقد تم وضع شيئين فيها. كان أحدهما رطباً؛ أو على الأقل ترك آثار سائل ما".

قطّب مايكروفت جبينه. "هل لهذا السائل رائحة معينة؟ هل كان دبق الملمس؟".

هزّ غروي رأسه وأجاب: "رائحته وملمسه مثل الماء".
"وهل كانت هناك بقعة سائل في أي مكان في الغرفة؟".
"نعم. وجدها شارلوك".

أوما مايكروفت برأسه قائلاً: "جيد. هذا يقلّص النظريات إلى احتمال واحد".

فقال غروي وهو يومئ برأسه: "نعم، لكن الدليل قد اختفى".
أحسّ شارلوك أنه يطبق كفيه بعصبية. "عمّ تتحدثان بالله عليكم؟ أي احتمال؟".

نظر الرجلان إلى بعضهما، وأشار مايكروفت إلى غروي ليتولى الشرح.
فقال غروي: "فلنتفق على أنه لا مجال أبداً لتواجد رجل آخر في

الغرفة. إذ لا توجد نوافذ، أو أماكن للاختباء فيها. ولو كان هناك أحد آخر في الغرفة لكتنا قد رأيناه عندما فتح أخوك الباب".
أجاب شارلوك: "موافق".

"ولم يقتل أخوك الرجل المييت".
"طبعاً لا".

"إذاً، هو الذي قتل نفسه".

أحسّ شارلوك فجأة أن الأرض قد تزعزعت تحته. "ماذا؟!".
"قتل نفسه. هناك رجلان في غرفة واحدة؛ الأول مقتول، ونعرف أن الثاني لم يقتله. إذاً، هو الذي قتل نفسه".
"لكن...". اختنق صوت شارلوك هنيهة.
"لكن مايكروفت كان يحمل السكين".

صحّ غروي: "كان يحمل سكيناً. دخل الضحية الغرفة حاملاً علبة تحتوي على شيئين. أحدهما السكين التي وجدنا أخاك يحملها. لكن لم يكن هناك دم عليها لأنها ليست السكين التي قتلت الرجل المييت".
احتج شارلوك بالقول: "لكن، لا توجد سكين أخرى!".
قاطعه مايكروفت: "لكن هناك بقعة رطبة في العلبة، وبقعة رطبة على السجادة".

نظر غروي إلى مايكروفت الذي هزّ كتفه وأضاف: "أعتذر. لا أستطيع مقاومة التدخل". ثم نظر مجدداً إلى شارلوك قائلاً: "أخبرني، هل كانت البقعة الرطبة على السجادة باردة؟".
تذكر شارلوك ثم قال: "نعم". وأضاف متعجباً: "جليد؟! أكانت السكين مصنوعة من الجليد؟".

أجاب غروي: "من دون شك. الشيء الثاني في العلبة كان سكيناً مصنوعة من الجليد، والحشوة حالت دون ذوبانها؛ على الرغم من ارتشاح بعض الماء على الساتان. فقد تم حفظ العلبة في مكان بارد ربما قبل استخدامها لضمان عدم ذوبان السكين".

قال مايكروفت باكتئاب: "جعلني الزائر عاجزاً. كيف؟ سنجيب عن هذا السؤال لاحقاً. وبعد جعلني عاجزاً، وضع السكين الحقيقية في يدي، ثم جلس وطعن نفسه بالسكين الجليدية. وبآخر ما تبقى له من قوة، سحب السكين الجليدية من صدره ورمها على الأرض، حيث ذابت بفعل حرارة الغرفة".

أشار غروي: "كان هناك احتمال بأن يموت بسرعة كبيرة؛ حيث سيعجز

عن سحب السكين. لكن في تلك الحالة، كان دفء جثته سيُذيب الجليد على أية حال".

قال شارلوك: "لكن، لماذا استخدم سكينين؟ لماذا لم يطعن نفسه بالسكين الحقيقية ويتركها في الجرح؟".

نظر غروي إلى مايكروفت بطريقة متعاطفة. "الشخص الذي دبّر هذه التمثيلية أراد أن يترك أخاك في ورطة حقيقية. فلو تم العثور عليه في الغرفة مع جثة انغرزت السكين فيها لاستطاع الادعاء ربما أنه وجدها هناك، وكان على وشك الاتصال لطلب المساعدة. لكن، إذا تم العثور عليه والسكين في يده، ومن دون وجود أي سكين في الجرح، فلن يتمكن من إيجاد تبرير مقنع".

اعترف مايكروفت: "إنها خطة مُحكّمة. أنا مذهول فعلاً من قدرة الشخص الذي ابتكر هذا السيناريو".

فسأل شارلوك بتعاسة: "إذًا، لماذا قتل ذلك الرجل نفسه؟ ما هي أسبابه؟".

قال غروي: "نستطيع التكهن فقط. لكن، تذكّر أنني لاحظت أن ذلك الرجل يبدو مريضاً. فقد كان نحيلًا وشاحبًا، ويبدو كما لو أنه يُعالج. فلنفترض أنه كان فقيراً ويحتضر من جراء التهاب الرئتين أو مرض السرطان، ولنفترض أن شخصاً ما غير معروف حالياً بالنسبة إلينا نصحه وقدم له اقتراحاً. وذلك الشخص المجهول ربما سيدفع لعائلة الميت مبلغاً كبيراً من المال إذا استبق ذلك الرجل موته بضعة أسابيع، وقتل نفسه لخدمة ذلك الرجل المجهول. وافق الرجل الذي كان يحتضر على العرض، فتم تزويده ببذلة محترمة، وعلبة محتوية على سكين حقيقية وأخرى جليدية، بالإضافة إلى تعليمات حول ما يجدر به فعله".

قاطعه مايكروفت: "مما يطرح السؤال حول كيفية جعلني فاقداً الوعي مؤقتاً ليتمكن من وضع السكين في يدي".

سأله غروي: "ما الذي تذكره؟".

أغمض مايكروفت عينيه محاولاً التذكر. "دخل الرجل، ووضع حقيبته على الطاولة. كان يسعل، فسألته إذا كان بوسعي مساعدته في أي شيء. أجاب بالنفي، وأضاف أنه يملك دواء يساعده على التنفس بسهولة أكبر. مدّ يده إلى سترته، وأخرج قنينة صغيرة. كان أعلى القنينة غريب الشكل، وأشبه بزّر أكثر من شبهه بالسداة. طلب مني مساعدته، فاقتربت منه... ولا أذكر شيئاً مما حصل لاحقاً. الشيء التالي الذي أذكره هو سماعي صوت طرقكما

على الباب". وصمت قليلاً، ثم تابع: "والرائحة. أذكر أنني شممت رائحة ثقيلة جداً".

قال غروي: "إذاً، أفهم أن قارورة الدواء في الواقع مضخة رذاذ لمحلول أفيون كحولي. وقد رشّه على وجهك، فجعلك فاقدًا الوعي للحظات. فقدانك وعيك يتناغم مع ما حصل بهذه الطريقة. فقد منحه ذلك وقتاً كافياً لإتمام العملية".

إن محلول الأفيون الكحولي المعروف أيضاً باللودنوم هو العقار نفسه الذي حقنه البارون موبرتس في دم شارلوك لأخذه من إنكلترا إلى فرنسا. وما زال شارلوك يذكر فقدانه وعيه بعمق، والأحلام التي انتابته حينها، وفقدانه ذاكرته الذي ترافق مع حقنه بذلك العقار، والإحساس الغريب - ولكن الجميل - بالكسل. طرد الذكريات بعيداً عن ذهنه، إذ إن الوقت غير مناسب للاستغراق في الذكريات.

تابع غروي القول: "إذا اكتشفته الشرطة أو الطبيب الشرعي، فسيُفترض أنه حمله معه لأغراض شخصية؛ ربما للتخفيف من الألم الناجم عن المرض الذي يفتك به".

سأل مايكروفت: "ماذا حلّ بالقينة؟".

هزّ غروي كتفه مجيباً: "أخذها شارلوك. فهذا أفضل من أن تضعيها الشرطة".

أوماً مايكروفت برأسه وفكّر قليلاً ثم قال: "رذاذ يجعل الأشخاص فاقدٍ الوعي مؤقتاً. كم هذا مثيراً! أستطيع التفكير في العديد من الاستعمالات الرسمية وغير الرسمية لذلك الرذاذ".

"حسناً". صمت شارلوك قليلاً محاولاً ترتيب أفكاره، ثم قال: "نعرف كيف حصلت الجريمة ربما؛ إذ نملك نظرية تتطابق مع كل الحقائق. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا؟ لماذا تم ارتكابها؟".

هزّ مايكروفت كتفه وأجاب: "بالنسبة إلى هذا السؤال، أنا أجري حالياً عدة مفاوضات صعبة مع حكومات أجنبية. وربما كانت إحداها راغبة في إبعادي عن الساحة لبعض الوقت كي تتمكن من الاستفادة. ومن جهة أخرى، إن العمل الذي أنجزته سابقاً أفضى عدة مرات إلى معاهدات جرى توقيعها مع بلد معين عوضاً عن بلد آخر. وربما يكون أحد تلك البلدان قد استاء من تصرفاتي وقرر الثأر مني بطريقة ما". ثم خطرت له فكرة: فكرة جدية استناداً إلى التعبير الذي ظهر على وجهه.

"إلا... "

سأل غروي: "إلا ماذا؟".

بدلاً من الإجابة، مدّ مايكروفت يده إلى داخل جيبه قائلاً: "ما زلت أملك البطاقة التي أعطى الرجل الميت برينيل إياها. وكان ثمة شيء مكتوب عليها، شيء جعلني مهتماً بمقابلته".

ثم أخرج بطاقة صغيرة من الورق المقوّى من جيبه الداخلي وقرأ: "جون روبرتساو، إضافة إلى عنوان في تشلسي - طريق غلاسبورز. إنه عنوان زائف ربما، وقد تمت كتابته لإضفاء طابع الدقة على البطاقة".

فقال غروي: "لكن، لا ضير أبداً في التحقق على أية حال".

وقال مايكروفت: "لا أريد إغفال أي دليل لمجرد أننا أبعدناه عن عقولنا". وأدار البطاقة على الوجه الآخر، ثم تابع: "اسمي مكتوب بخط اليد؛ كي يعرف برينيل اسم الشخص الذي يريد مقابلته، بالإضافة إلى ثلاث كلمات". ونظر إلى الأعلى، فالتفت عيناه عيني شارلوك، وقال بكآبة: "بارادول تشامبر".

أحس شارلوك بالصدمة، وعادت به الأفكار إلى الفترة التي قضاها في قبضة البارون موبرتس. فقد ذكر البارون آنذاك منظمة بارادول تشامبر. لم يقل ما هي، ولكنه أشار إليها كما لو أنه يعمل لصالحها، أو ينتمي إليها. كما لو أنها شيء مهم وسري.

تابع مايكروفت القول: "أذكر ما حصل الآن. فقد رأيت الكلمات، وتذكرت ما قلته عن سماعك البارون موبرتس يستخدم العبارة نفسها. لذا، طلبت من برينيل إدخال الرجل كي أستوضح منه الأمر. لكن هذه البطاقة كانت الطعم الذي أوقعني في الشرك".

قال غروي: "وأنت أخذت الطعم".

احتج مايكروفت: "لحماية نفسي. كنت في مكان مألوف، ولم أتوقع أنني سأعرض لأي هجوم".

لوّح غروي بيده الكبيرة. "لكن الأمر حصل. لا يهم هذا الآن، إذ علينا المضي قدماً. سوف أعينّ لك محامياً. شارلوك، هل ما زلت تملك اسم المحامي وعنوانه اللذين أعطاك إياهما الخادم في نادي دياغونيز؟".

أوماً شارلوك برأسه، ومرر له القصاصاة الورقية التي كان يحتفظ بها في جيب قميصه.

فتابع غروي القول: "وأنت يا شارلوك، سوف تحقق في أمر هذه البطاقة". وأعطاه غروي البطاقة التي سحبها مايكروفت من سترته. فأدارها شارلوك، وقرأ العبارة المشؤومة بارادول تشامبر، وأحسّ بقشعريرة في جسمه،

وسأل: "كيف أفعل ذلك؟".

علّمه غروي: "شّم البطاقة".

رفعها شارلوك إلى أنفه. كانت ثمّة رائحة حادة وخفيفة تبعث منها، وإنما ملحوظة. فسأل: "ما هذه الرائحة؟".

أجاب غروي: "إنها رائحة حبر طباعة. فقد تمت طباعة البطاقة حديثاً، وهي وحيدة ربما؛ وقد تم إعدادها لمجرد السماح بدخول الرجل إلى النادي. ففي النهاية، ما من نادٍ محترم يستقبل رجلاً من دون بطاقة. ويبدو واضحاً أنه لا يملك بطاقات خاصة به، نظراً إلى وضعه في الحياة، ولا يستطيع مديره الغامض إعطائه إحدى بطاقاته بالتأكيد. لذا، لقد تمت طباعة البطاقة حديثاً؛ مما يعني أنه تم صنعها محلياً". واستدار نحو شقيق شارلوك، وسأله: "سيد هولمز، كم مطبعة توجد في الجوار؟".

فكر مايكروفت قليلاً ثم أجاب: "أستطيع التفكير في أربع مطابع، جميعها موجودة في منطقة تشانسري لاين. سأعطيك العناوين". وأخذ قصاصة ورقية وقلماً من جيبه وبدأ يكتب.

قال غروي لشارلوك: "تحقق من كل المطابع، واسأل إذا كان بالإمكان التعرف إلى البطاقة. وانتبه إلى ما سيقال لك عن الرجل الذي طبعها". "حسناً".

"ولاقني خارج فندق ساربونييه بعد ساعتين. هل تذكر مكانه؟".

"أهو الفندق الذي نزلنا فيه آخر مرة جئنا فيها إلى لندن؟ نعم، أذكره".

"جيد".

فُتح الباب فيما كان غروي يتكلم، وقال الشرطي: "انتهى الوقت. يجدر بكما المغادرة أيها السيدان".

قال غروي: "لا تقلق يا مايكروفت. سوف نخرجك من هنا".

فأجاب مايكروفت مبتسماً ابتسامة حزينة: "أتمنى أن يحصل هذا قبل موعد العشاء. فقد فوّتت وجبة الغداء، ولست واثقاً من أن الطعام هنا يتطابق مع معايير الاعتيادية".

ومدّ يده لمصافحة شارلوك، وقال له: "حاول ألا تفكر بي بهذه الطريقة".

فأجابه شارلوك وهو يمسك بيده: "هنا، أو في النادي، أو في أي مكان آخر، أنت أخي، وتهتم بي دائماً. والآن، حان دوري لأهتم بك إذا استطعت ذلك".

قال مايكروفت: "يمكنك فعل ذلك، وسوف تنجح. وأنا أعرف أنك حين تصمم على شيء ما، فأنت تنجزه. هذه ميزة ورثناها عن والدنا".
سعل الشرطي، فلحق شارلوك بأميوس غروي على مضض، وخرجا من الزنزانة.

دويّ الباب خلفه جعله يجفل، واستاء من التفكير في ما يمكن أن يفعله هذا الصوت بمايكروفت.
سأل شارلوك حين خرجا إلى الهواء الطلق في "كوفنت غاردن": "إلى أين الآن؟".

"أنت ستذهب إلى منطقة تشانسري لاين، أي في هذا الاتجاه".
لوح غروي بيده بغموض، وتابع: "أما أنا فسأذهب..." وتحقق من البطاقة. "إلى طريق غلاسبورز، تشلسي. نلتقي لاحقاً". واستدار وانطلق مسرعاً من دون النظر إلى الخلف، تاركاً شارلوك يحدّق إليه بانزعاج. بات بمفرده الآن في لندن؛ مجدداً. ولم يستطع منع نفسه من تذكر ما حصل معه في المرة الأخيرة.

في النهاية، استدار وبدأ يمشي بعيداً، في الاتجاه الذي أشار إليه غروي. مرّ أمام المقاهي والمتاجر وأكشاك الخضر، والأشخاص الواقفين في زوايا الشوارع والحاملين الصواني المليئة بالبضائع. كان المكان يعج بأشخاص من مختلف الطبقات؛ من الأرستقراطيين الذين يرتدون ملابس راقية إلى المتسكعين بملابسهم الرثة. كانت لندن بالفعل مجتمعاً متغايّر العناصر، ويجمع كل أنواع البشر.

كان على وشك سؤال أحدهم عن الطريق المؤدية إلى تشانسري لاين حين لاحظ لافتة على جانب الطريق، فسار في الاتجاه الذي تشير إليه اللافتة. بدا المكان صحياً أكثر من المنطقة التي عبرها للتو. ووفقاً للصفائح النحاسية المعلقة على الأبنية، كان يضم شركات حمامة، بالإضافة إلى بعض عيادات الأطباء.

بعد خمس دقائق تقريباً، وصل إلى أول مطبعة. بدا له موقع المطابع منطقياً الآن؛ فالمحامون والقضاة في المنطقة يحتاجون بلا شك إلى الكثير من خدمات الطباعة. دفع الباب بعصبية ودخل.

كانت الرائحة في الداخل مطابقة للرائحة الموجودة على البطاقة، ولكن بشكل مكثف؛ إذ كانت عفنة وحادة. إلا أنه لم يحسب حساب الضجيج؛ فطققة آلات الطباعة في الجهة الخلفية للمطبعة جعلت من المستحيل بالنسبة إليه تقريباً أن يسمع صوته عندما قال: "عفواً".

استدار رجل للنظر إلى شارلوك. كان يرتدي ملابس غير رسمية، ولكنه يعتمر قبعة سوداء عالية. كان شارباه مرتبين، وقد غطيا فمه ومعظم ذقنه أيضاً.

قال: "لا توجد وظائف هنا. لدينا كل تقنيي الطباعة الذين نحتاج إليهم. لذا، غادر المكان".

فقال شارلوك: "أريد أن أطرح سؤالاً".

نظر إليه الرجل بطريقة متشككة وسأله: "ماذا؟".

فأعطاه شارلوك البطاقة. "هل هذه البطاقة طُبعت عندكم؟".

تأملها الرجل بعناية، ثم أجاب: "لا. والآن اذهب".

تراجع شارلوك إلى الخلف، فيما استدار الرجل لمتابعة عمله. وفكّر شارلوك في سرّه أنه إذا كان العاملون في كل المطابع مثل هذا الشخص اللفظ، فسينهي مهمته خلال دقائق معدودة، ولن يعرف ما يجدر به فعله إلى حين لقائه أميوس غروي مجدداً.

غير أن العاملين في المطبعة الثانية كانوا أكثر وداً. وهذه المرة، استطاع شارلوك رؤية الجهة الخلفية من المكان، حيث توجد أسطوانات معدنية مغطاة بأحرف بالغة الصغر يحركها صبية أصغر منه سنّاً، فيضغطون بكل قوتهم على المقابض المعدنية الكبيرة. وكانت الأسطوانات تنضغط على أشرطة طويلة من الورق تُسحب تحتها، تاركة أحرفاً مطبوعة عليها. أما الصبية فكانوا ملطخين ببقع الحبر أيضاً، وبدت بشرة كل منهم مخططة بالأسود والأبيض.

طرح السؤال نفسه، وعرض البطاقة نفسها. لكن، على الرغم من ابتسامة المسؤول عن المطبعة ومحاولته أن يكون ودوداً، إلا أنه أخبره أنه لم يطبع البطاقة أيضاً.

حالف الحظ شارلوك في المطبعة الثالثة.

كان المسؤول هناك طويلاً ونحياً، وشارباه الرفيعان متدليين مثل شريطين على وجنتيه. وعندما نظر إليه شارلوك، تذكر ما قاله له أميوس غروي في القطار عن كيفية حمل كل شخص "بصمات مهنته". إذ بدأ شارلوك بملاحظة العلامات النموذجية التي تشير إلى أنه موظف مطبعة؛ كالحبر المتسلل تحت أظفاره وفي طيات أصابعه، والضلوع على أظفاره نتيجة أعوام عمل فيها على تحريك الأسطوانات المعدنية في المطابع، والجروح الطويلة والمستقيمة في راحتي اليدين الناجمة عن سحب لفافات الورق. كل العلامات موجودة بوضوح للشخص الذي يرغب في رؤيتها.

قال الرجل وهو يومئ برأسه: "أوه، نعم. أذكر هذا الطلب الغريب. إذ يرغب الأشخاص عادة في أربعمئة أو خمسمئة بطاقة لأنهم يريدون توزيعها، أليس كذلك؟ أقصد، أنت لا تعرض بطاقتك على شخص ما ثم تسترجعها منه، أليس كذلك؟ لكن ذلك الرجل أراد فقط هذه البطاقة. وأعطاني قصاصة ورقية كتبت التفاصيل عليها". وهز كتفه ثم تابع: "أخبرته أنه يستطيع الحصول على مئة بطاقة مقابل شيلنغ واحد إضافي فقط، لكنه رفض". ففكر قليلاً ثم قال: "في الواقع، لم يرفض، بل خرج من هنا للتحدث إلى شخص آخر ثم عاد وقال لا".

"هل يمكنك وصف الرجل الذي كان في الخارج؟"

قال موظف المطبعة: "كان رجلاً غريب الأطوار. لكنني تعرفت إليه، أما هو فلم يتعرف إليّ؛ فلا أحد يتعرف إلى الأشخاص الذين يخدمونه". قال شارلوك: "أنا أفعل".

"إذاً، أنت أفضل من بقية الأشخاص. كنت أعمل في مطبعة في منطقة دوري لايم قبل أن آتي إلى هذا المكان، وكنت أنجز الكثير من العمل للمسارح: كالبرامج، والمجلات، والملصقات الإعلانية... كما تعرف، كل تلك الأمور. وذاك الرجل - الذي كان يقف في الخارج - اعتاد على المجيء إلينا أحياناً. كان يعمل في أحد المقاهي الموجودة هناك. عمل بواباً، حيث كان يخرج الأشخاص المزعجين جداً أو الفقراء جداً الذين يعجزون عن الدفع، أو أولئك الذين يستهلون شجارات. أعتقد أنه كان يعمل في "شافتسبوري". كنا نطبع لهم قوائم الطعام والملصقات الإعلانية وأموراً مماثلة. سأل شارلوك وهو يحبس أنفاسه: "هل يمكنك وصفه؟".

هزّ موظف المطبعة كتفه وقال: "إنه قصير القامة مثل الكلب الصغير. وشعره طويل وأشعث، أما لحيته فسوداء. وكان يرتدي معطفاً زغباً. أعتقد أنهم يطلقون عليه اسم الأسترخان. لكنني لا أذكر اسمه".

قال شارلوك: "شكراً لك. إذا احتجت يوماً إلى مطبعة فسوف أتذكرك". ثم غادر المكان وهو يشعر بالنصر. تحقق من ساعته، فوجد أنه ما زالت لديه ساعة ونصف الساعة قبل حلول موعد لقائه أميوس غروي. وهو وقت كافٍ للتحقق ربما من مقهى شافتسبوري. فهذه الطريقة، بإمكانه على الأقل إخبار أميوس غروي أنه لم يتعرف فقط إلى الرجل الذي استخدم الرجل الميت، وإنما تعقب أثره أيضاً.

سأل امرأة تمر في الشارع عن موقع منطقة دوري لاين، ثم انطلق في الاتجاه الذي أرشدته إليه. احتاج فقط إلى عشر دقائق للوصول إلى

هناك.

كانت منطقة دوري لاين مليئة بالمسارح والمقاهي. وبدا جلياً أن بعض المسارح مخصصة للرقص والألعاب البهلوانية، وتقدم عروضاً فنية مختلفة؛ مثل تلك التي يؤديها المهرجون والمغنون ولاعبو الخفة. فيما بعضها الآخر أكثر رقياً، ويقدم عروضاً لمسرحيات كلاسيكية. وثمة مسارح أخرى تستضيف حفلات موسيقية. ووجد شارلوك نفسه يحنّ إلى العزف على الكمان عندما لاحظ أن امرأة تدعى ويلما نورمان- نيرودا (عازفة كمان) تعزف في أحد المسارح.

عثر على مقهى شافتسبوري في منتصف الطريق. وكان محاذياً لمسرح يعلن عن تقديم أوبرا هزلية بعنوان "كوكس وبوكس" من تأليف ف. س. بورنان وأ. سوليفان. ولم تبدُ المسرحية جذابة بالنسبة إلى شارلوك. جلس شارلوك على عتبة خارج المقهى في الجهة المقابلة من الطريق، وانتظر. استرخى على جانب واحد، وجعل رأسه يتكئ على إطار الباب ليبدو وكأنه نائم، لكنه كان يراقب طوال الوقت بحثاً عن رجل قصير ذي شعر أشعث.

وبعد مرور ثلاثة أرباع الساعة تقريباً، خرج من الباب الأمامي للمقهى رجل يتطابق مع المواصفات التي أعطاه إياها عامل المطبعة، ويرتدي الملابس نفسها التي وصفها له. نظر الرجل إلى جهتي الشارع، ثم سار نحو الجهة اليمنى، فلحق به شارلوك. إذ قد يقوده هذا الرجل إلى المكان الذي يعيش فيه. وستكون هذه معلومة مهمة ليقدمها إلى أميوس غروي!

تبع شارلوك الرجل إلى دوري لاين، عبر مكان اسمه سيفن دايلز، ومن ثم في اتجاه ساحة ترافالغار. فبدأ شارلوك بالتعرف إلى بعض أنحاء لندن، وكان منهمكاً في تخزين ما يراه في ذاكرته قدر المستطاع. استدار الرجل إلى اليسار عندما وصل إلى ساحة ترافالغار، ومشى أمام الفناء البني المزخرف لمحطة قطارات تشارينغ كروس وفندق تشارينغ كروس. مشى بسرعة، وتوجب على شارلوك الإسراع في خطواته للحاق به.

استدار الرجل بعد ذلك نحو اليمين في ألدويتش، فأدرك شارلوك أنه متوجه إلى التايمز عبر جسر واترلو. توقف الرجل أمام كشك عند طرف الجسر، وأعطى البائع نقوداً معدنية، ففكر شارلوك بسرعة في سره: هل يجدر به اللحاق بالرجل، أم العودة لرؤية أميوس غروي؟ لكن، ماذا سيقول لغروي؟ هل سيقول له إنه وجد الرجل ومن ثم أضاعه مجدداً؟ لا، عليه

المضي قدماً، على الأقل إلى الجهة الأخرى من الجسر؛ لمعرفة المكان الذي سيقصده الرجل.

فتش شارلوك في جيبه بحثاً عن بعض النقود المعدنية. الأجرة فلس واحد فقط، لذا دفع لمحصّل النقود، واستمر في التقدم للحاق بمن يطارده. تابع الرجل القصير سيره من دون أن ينظر إلى الخلف أو إلى اليسار أو اليمين.

وفي الجهة الأخرى من الجسر، مشى الرجل نحو ما عرف شارلوك أنها محطة واترلو. لكنه بدلاً من أن يدخل المحطة استدار إلى اليسار، فلحق به شارلوك محاولاً إخفاء نفسه خلف أشخاص آخرين؛ في حال استدار الرجل إلى الخلف.

إلا أن الرجل لم يستدر، بل انعطف فجأة إلى اليمين باتجاه قناطر. وعندما عبر شارلوك تحت القناطر، توقف ونظر إلى أطراف المبنى القرميدي المتصدع. كان المكان في الداخل مظلاً، فلم يستطع رؤية الرجل. لذا، تقدم خطوة إلى الأمام، ومن ثم خطوة أخرى؛ إلى أن أصبح في منتصف المسافة بين الضوء والعتمة. لكنه لم يجد أي أثر للرجل؛ فاستدار مستعداً للعودة للقاء أميوس غروي.

إلا أن الرجل قصير القامة وصاحب الشعر الطويل والأشعث كان يقف مباشرة خلفه، وقال له: "كنت تلحق بي، وأريد أن أعرف السبب. وبعد ذلك، ولمجرد التسلية، أريد أن أسمع صراخك".

الفصل الخامس

انتحب شارلوك محاولاً أن يبدو أصغر سنّاً مما هو فعلاً: "هل لديك فلس واحد يا سيدي؟ لم أتناول الطعام منذ أيام. أريد فقط فلساً واحداً لشراء قطعة خبز".

فصرخ الرجل: "لا تلعب معي لعبة صيد الأرناب، فأنا لن أصدقك". عندها، قال شارلوك بصوته العادي، بعد أن انتصب في وقفته: "حسناً. ما هي لعبة صيد الأرناب؟".

ابتسم الرجل ابتسامة عريضة، فظهر ما تبقى من أسنانه السوداء. "هل تريد أن تعرف ما هو صيد الأرناب؟ حسناً، نتحدث هنا عن الأرناب الذي تتم تربيته لظهوّه لاحقاً في القدر، فيكون خنوعاً ولا يهرب عندما تهم بذبحه. أما صائد الأرناب فهو الرجل الذي يدّعي أنه اصطاد أرناباً مروضاً؛ أي الرجل الذي يجعل الشيء السهل يبدو صعباً". قال شارلوك: "أوه، تقصد الرجل المخادع".

"بالضبط. حسناً، بعد أن تفاهمنا الآن، لماذا كنت تلحق بي؟".

اعترض شارلوك: "لم أكن ألحق بك".

فرفع الرجل حاجباً كثيفاً وقال: "تذكر، أستطيع كشف الحقيقة الكامنة خلف أي قناع تحاول وضعه أيها الولد الصغير. بدأت باللاحاق بي خارج المسرح، ورافقتني طوال الطريق. ما أريد أن أعرفه هو لماذا؟". ثم تأمل شارلوك من الأعلى إلى الأسفل.

"لست سارقاً". وانتبه إلى التعبير التي بدت على وجه شارلوك، فأوضح: "أقصد لست نشالاً. فما الذي تسعى وراءه؟".

"لا أسعى وراء أي شيء".

"لقد لحقت بي في كل أرجاء لندن، وفوق جسر واترلو، ومروراً بالأنفاق، ووصولاً إلى هنا".

قال شارلوك: "إنها مجرد صدفة".

فهزّ الرجل كتفه وقال: "لا أعتقد ذلك. لست مضطراً إلى إخباري الآن إذا كنت غير راغب في ذلك. فأنا أستطيع استخراج الحقيقة منك بكل بساطة، وسأستمتع بذلك. إذ مضى وقت طويل منذ أن ألحقت أذى كبيراً بأحد ما. فقد كنت أتبع التعليمات، وأبقي رأسي منخفضاً. ولم أرّ السائل الأحمر يراق منذ بضعة أسابيع، وأحنّ إلى ذلك كثيراً".

سأل شارلوك: "السائل الأحمر!؟". وهو مدرك تماماً أنه لن يحب

الجواب.

"الدم أيها الولد الصغير، الدم". ثم وضع يده في جيبه، وعندما أخرجها كان يمكك بشيئين معدنيين يخشخشان معاً. "حسبما أتصور، أنت تعمل لدى إحدى العصابات المحلية التي تريد أن تعرف بما يجري في المسرح، أو ملحت شيئاً غريباً في المسرح وتأمل في أن تبيع الرواية إلى الشرطة مقابل بضعة دولارات". ومرر أصابع يده اليمنى عبر أحد الشيئين المعدنيين. بدا لشارلوك أن ذلك الشيء عبارة عن مجموعة من الخواتم المثبتة ببعضها بعضاً، والمغطاة بمسامير مستدقة متجهة نحو الخارج، ومرتفعة فوق براجمه. "وفي كلتا الحالتين، سيكلفك فضولك الكثير يا عزيزي". ومرر الرجل الشيء المعدني الآخر عبر أصابع يده اليسرى، ثم رفع قبضتي يديه كي يراهما شارلوك. تلاً للضوء الخفيف على المسامير المعدنية، وبدا لشارلوك أن يدي الرجل قد تحولتا إلى سلاحين قاتلين وقادرين على تمزيق وجهه إرباً إذا اقتربا منه. "والآن، فلنبدأ، أليس كذلك؟ لن أستمّر طويلاً. فهناك أشياء يجدر بي فعلها، وأشخاص يجدر بي رؤيتهم".

بدأ شارلوك بالتراجع نحو الخلف وقلبه يخفق بسرعة أكبر؛ فالرجل يعترض طريق خروجه من تحت القناطر. لكن، لا بد من وجود طريق أخرى في مكان ما خلفه في العتمة، ويجدر به إيجادها.

ابتسم الرجل ببرودة، وأدخل إحدى يديه في جيب معطفه، فعلمت المسامير الموجودة على براجمه بالقماش حين فعل ذلك، ثم أخرج يده من جيبه مجدداً، فلاحظ شارلوك أنها مليئة بحفنة من النقود المعدنية الفضية. نادى عالياً: "نصف كراون لأول شخص يحضر لي الولد! هل تسمعون؟ يمكنكم العيش مثل المملوك لمدة شهر بواسطة هذا المبلغ إذا شئتم. نصف كراون، ولا أبالي حتى إذا انكسر أي شيء فيه؛ طالما أنه يبقى قادراً على الإجابة عن أسئلتني".

بدا الهواء حول شارلوك وكأنه يحدث حفيفاً؛ كما لو أنه جرى ضخ حياة جديدة فيه. كان يظن أنه بمفرده مع الرجل بين القناطر تحت محطة واترلو، لكن الظلمة المحيطة به تحركت، وانفصلت إلى خمسة، أو ستة، أو عشرة أشكال صغيرة. بدا أولئك الأشخاص وكأنهم خرجوا من الجدران، أو أخرجوا أنفسهم من الأرض. كانوا صغاراً، أصغر من شارلوك، حتى إنهم أصغر من صديقه ماتي. وكانت بشراتهم - حيث تمكن من رؤيتها عبر الملابس الممزقة التي كانت أقرب إلى خرق بالية - رمادية نتيجة الأوساخ والدهون المترسبة عليها منذ زمن طويل؛ حيث أصبحت جزءاً

منهم. إنهم أولاد مشردون من دون عائلات، ومن دون وسيلة للعيش؛ باستثناء التفتيش في النفايات بحثاً عن أشياء رماها المارة. كانت عيونهم كبيرة وداكنة؛ مثل عيون الجرذان. أما أظفار أصابع أيديهم وما أمكن رؤيته من أظفار أصابع أقدامهم فكانت حادة وطويلة ومغطاة بالأوساخ. في حين كانت شفاههم متشققة، ومليئة بالقروح، ومشدودة فوق لثاتهم المريضة. وكانت الأسنان القليلة المتبقية في تلك الأفواه سوداء ومثلثة، مثل جبال قديمة. لم يستطع الأولاد الوقوف منتصبين القامة. فحسبما يبدو، لقد أمضوا وقتاً طويلاً جداً في التفتيش في الأنفاق الضيقة والتنقيب في الوحول والطين بحثاً عن النقود المعدنية المتناثرة، فباتت ظهورهم مقوسة ومحدبة. في حين بدت أذرعهم وسيقانهم نحيلة مثل الأغصان، لكن بطونهم منتفخة على نحو غريب. وتدلى شعرهم الأشعث حول وجوههم، فلم يستطع تمييز الصبية عن الفتيات. وجعلتهم الأوساخ والجوع يبدون بالمظهر نفسه. أما الرائحة المنبعثة منهم فكانت رائحة عفن واهترأ قوية جداً! فتساءل شارلوك في سره وهو يتراجع إلى الخلف عن كيفية تمكنهم من العيش هكذا. لم يبدُ في عيونهم سوى الجوع والنهم فيما كانوا يقتربون منه. فبالنسبة إليهم، إنه لا يعدو عن كونه وسيلة لتأمين الوجبة التالية. استمر إدراكه في المراوغة. لثانية أو اثنتين، بدوا وحوشاً؛ كائنات ليلية مستعدة للانقضاض عليه، ثم أصبحوا فجأة أولاداً صغاراً، يدفعهم الجوع إلى القيام بتصرفات متهورة. أحسَّ بعواطفه تتأرجح بشكل مريع بين الذعر منهم والتعاطف معهم. كيف يُسَمَح لأشخاص، لا بل لأولاد، بالعيش هكذا؟! هذا خطأ.

قال وهو لا يزال يتراجع إلى الوراء: "لستم بحاجة إلى فعل ذلك". فأمال الأولاد المتوحشون رؤوسهم لدى سماعهم كلماته، ولكنه لم يكن واثقاً من أنهم قد فهموا ما قاله. وإذا فهموا، فهو ليس واثقاً من أنهم يبالون. فكل ما يعرفونه هو أن الرجل الضخم سيدفع لهم الكثير من المال إذا أحضروا له شارلوك؛ حتى إذا اضطروا إلى كسر ذراعيه وساقيه لمنعهم من الهروب بعيداً.

أحسَّ شارلوك أنه سبق لهم أن فعلوا أموراً أسوأ من هذه؛ هناك في العتمة.

استدار ليركض، لكن كان هناك أربعة - لا بل خمسة - أولاد خلفه؛ ظهوراً من العتمة بصمت تام.

أمسكت يد بكمه، فارتدَّ إلى الخلف ساحباً القماش من الأصابع النحيلة، فسمع القماش يتمزق تحت الأظفار الحادة.

بات محاطاً بهم.

وفي الضوء المنبعث من الشارع، استطاع شارلوك رؤية الظل الضخم للرجل الملتحي، واستطاع سماعه يضحك.

حاول يائساً أن يجمع الذعر الذي ملأ صدره. يجدر به التفكير، وبسرعة. أمسكت يد أخرى بمرفقه، فدفعها بعيداً. كانت البشرة التي لمسها دبقه، فمسح يده بسترته بطريقة عفوية.

خلال ثوانٍ قليلة سينقضون عليه. نظر حوله بحثاً عن شيء ما، أي شيء يمكنه استعماله للهروب بعيداً.

الحائط، أمله الوحيد هو الحائط المقوس إلى يساره. فقد أحاط به الأولاد المتوحشون من كل الجهات، لكن الطريق إلى الحائط خالية تماماً. ركض نحو الحائط، وقفز حين أصبح على بُعد مسافة بضع أقدام منه. بحثت قدماه عن فجوات في الحائط حيث انهار الآجر وتفتت، ونجحت أصابعه في الإمساك بالحجارة في الأعلى. رفع جسده إلى الأعلى، وأحسّ بالانحناء المقوس مباشرة فوق رأسه. تسلق عالياً قدر المستطاع، فيما كانت الجاذبية تشده إلى الأسفل. تحته، حاول الأولاد المتوحشون تسلق الحائط خلفه، لكن تقوُّس الحائط كان يعني أنه بات الآن أقرب إلى وسط النفق.

دفع نفسه بعيداً عن الحائط، حيث وقع أو بالأحرى قفز فوق رؤوسهم. ارتطم بالأرض في وسط النفق فتعث، لكنه سرعان ما وقف على قدميه. وقبل أن يستوعب الأولاد ما فعله، استدار وركض نحو العتمة؛ الاتجاه الوحيد المتوافر أمامه. وخلال لحظات معدودة ابتلعتة الظلمة. وفي المسافة البعيدة خلفه، استطاع سماع وقع خطى الأرجل الحافية على الأرض الرطبة. كانوا يطاردونه، لذا استمرّ في الركض وهو يأمل ألا يرتطم بجدار نفق. بعد قليل، اعتادت عيناه على العتمة، أو إن هناك ضوءاً كان ينبعث من مكان ما في الأعلى، أو ربما كانت هناك بعض الطحالب الفوسفوية الملتصقة بجدران النفق، لكنه استطاع تفادي حواف الحجارة أثناء ركضه.

تفادي الشكل المقوس لقنطرة ثانية في النفق المتصل بذاك الذي كان يركض فيه، ثم انحرف جانبياً، نزولاً في النفق الثاني. فإذا كانت لديه فرصة للفرار من كل متعقبيه، فلا شك في أنها تتمثل في إرباكهم، ومنحهم الكثير من الخيارات في ما يتعلق بالاتجاهات التي ربما يكون قد سلكها. فإذا استمر في الركض في خط مستقيم، فسوف يتعقبون أثره طبعاً، وبعدها... حسناً، ليس واثقاً من أن الوعد بنصف كراون قد يتفوق على جوعهم

الفوري، ورغبتهم في تفتيش جيوبه بحثاً عن أية نقود معدنية موجودة معه.

انتهى النفق عند حائط أسود، وكاد شارلوك يرتطم به. وحده التغيير المؤقت في نوعية الهواء النتن أنذره بوجود عائق أمامه، فتوقف فجأة، ومدّ يده إلى الأمام بحذر. ولو لم ينتبه إلى ذلك في الوقت المناسب لارتطم به وانهار، ولجعل نفسه فريسة سهلة لمتعقبه المتوحشين.

هل سيضطر إلى العودة إلى الخلف، ومحاولة إيجاد طريقه بينهم؟ لفحت وجهه نسمة دافئة ومنتنة، لكنها نسمة حتماً. في النهاية، قد لا تكون هذه الطريق مسدودة. ربما وصل إلى تقاطع حيث ينتهي النفق ويتصل بنفق آخر.

استدار إلى اليسار وبدأ يركض، ماداً ذراعه أمامه ليحول دون ارتطامه بالجدار. إلا أنه لم يرتطم به؛ إذ امتد النفق إلى الأمام... إلى الجحيم الذي ينتظره.

جعلته ضجة مدوية ومفاجئة يجفل في مكانه. وبدت الضجة وكأنها متواصلة، فيما تناثرت قطرات من الماء ذي الرائحة الكريهة على رأسه من سقف النفق. هل هذا قطار؟ إنه موجود ربما تحت السكك المتشعبة من محطة واترلو.

قد يكون القطار متوجهاً إلى فارنهام، حيث يوجد أصدقاؤه. هل سيراهم مجدداً؟ أم سيموت هنا، في العتمة، ويبقى مختفياً إلى الأبد؟ أحسّ بأنفاسه عالقة في حنجرته. ففي مكان ما في الأعلى، يوجد عالم هادئ ومنظم، حيث الأشخاص يرتدون ملابس مرتبة، ويتحركون عمداً ذهاباً وإياباً. هناك في الأعلى توجد سماء زرقاء، وجدران قرميذية متينة، وأرضيات رخامية صلبة، وأنوار مضاءة. هناك في الأعلى توجد الحياة. أما هنا في الأسفل فتوجد الحجارة المتفتتة والمشبعة بالماء، والأرضية الرطبة، والرائحة التي تجمع بين أسوأ عناصر القطران والأوساخ البشرية والنباتات المتحللة، بالإضافة إلى الأولاد الذين يشبهون الحيوانات بقذارتهم.

أحسّ وكأنه لا يستطيع المضي قدماً. أراد الجلوس، والتفوق على شكل كرة، والأمل في أن يوقظ نفسه من هذا الكابوس. فهذا كابوس في النهاية، أليس كذلك؟ لا يمكن أن تتواجد أماكن كهذه في العالم المرتب والمنظم الذي عاش فيه.

لكنه الواقع. عرف أن ما يعيشه حقيقي. لذا، لا يستطيع الاستسلام، وعليه إيجاد طريق للخروج، فمايكروفت يعتمد عليه.

في البعيد أمامه، استطاع رؤية شعاع ضوئي يعبر النفق بشكل مائل، من الأعلى إلى الأسفل. إنه ربما مجرد صدع في الحائط يتسلل عبره نور الشمس الضعيف. لكن عينيه اللتين اعتادتتا على العتمة وجدتا ذلك بمثابة شعاع ذهبي. تقدم نحوه على أمل أن يكون الصدع كبيراً بما فيه الكفاية ليتسلل عبره صعوداً إلى المحطة، صعوداً إلى الأمان والعقلانية.

لكنه لم يكن كذلك؛ فالصدع بالكاد يسمح بمرور أصابعه عبره، فيما الضوء مجرد وميض منعكس عبر قطرات الماء المتدفقة من الأعلى. تشبث بالحجارة بغضب على أمل أن يتمكن من توسيع الفتحة. شعر ببعض المقاومة قليلاً، لكن الحجارة انهارت بعد ذلك، ووقعت على أرض النفق.

وخلف الحجارة، ملح شارلوك شيئاً يتحرك، شيئاً صلباً وأسود ولامعاً. حدّق شارلوك ملياً، متسائلاً عن طبيعة ذلك الشيء، ثم ارتدّ إلى الخلف مذعوراً حين أدرك أنه ينظر إلى كتلة من النحل، أو ربما من الصراصير الهاربة كلها من الضوء والهواء بعد أن دمر الآن جدران مخبئها؛ ملجئها. غير أنها اختفت خلال ثوانٍ قليلة، تاركة فجوة كبيرة خلفها. نظر شارلوك حوله، وأحسّ بقشعريرة في جسمه. هل سيتكرر الأمر نفسه خلف كل حائط، وخلف كل حجر في النفق؟ هل يوجد عالم ثانٍ مخبأ من الحشرات التي تعيش في التجاويف والقنوات، وتقتات مما يخلفه الأولاد المتوحشون خلفهم؟

أصغى بعناية، وظنّ أنه قد يتمكن من سماع أزيز حشرات النحل في كل مكان حوله، وهي تحيط به، وتدفنه.

أطلق صرخة ذعر نابعة من القلب، وبدأ يركض.

وبعد نزوله عشر درجات في النفق، وقع شيء ما عليه من العتمة المحيطة به.

صرخ عالياً، وأمسك بالشيء الذي كان يلتف حول وجهه. جعله الذعر الشديد الذي يشعر به يظن أن ذلك الشيء عبارة عن مجموعة من النحل التي تعمل كلها معاً، أو ربما صرصور واحد عملاق بحجم رأسه. لكن، حين أمسكت أصابعه بذلك الشيء، وجد أنه يلمس خرقاً بالية وبشرة قذرة، وأدرك أن ثمة يداً تحاول الإمساك بالمساحة تحت ذقنه. إنها فتاة! واحدة من الأولاد المتوحشين الذين كانوا يتعقبونه في الأنفاق! لقد نجحت بطريقة ما في أن تسبقه وتنتظره، وألصقت جسدها بالحائط القرميدي قبل أن تلقي بنفسها عليه حين مرّ أمامها. أطبق أصابعه حول عنقها، لكنه أحسّ بفمها - مع بقايا الأسنان التي لا تزال موجودة لديها - ينقضّ على

وجنته. كانت صغيرة وضعيفة. وعلى الرغم من الطريقة التي تلوت بها للهروب منه، إلا أنه نجح في الإمساك بساقها، أو ربما بذراعها بيده الأخرى. تردد هنيهة، مدركاً أنها مجرد طفلة؛ مجرد فتاة، ومدركاً أن الأشخاص المتمدنين لا يؤذون الفتيات. لكن أظفارها انغرزت بشكل مؤلم في بشرته، فأدرك أنه لا يملك أي خيار. دفعها بعيداً عنه بحركة متشنجة، ورمها على أرض النفق، فارتطمت بالأرض الرطبة وتدحرجت بعيداً. وفي الضوء البسيط المتسلل إلى النفق، استطاع رؤية عينيها تتقدان. هسهست، ثم تراجعت إلى الخلف في العتمة، لكنه عرف أنها لم تذهب بعيداً. فهي لا تزال موجودة، تراقبه وتنتظر فرصتها.

تضاربت مشاعره مجدداً، وفكر بحزن في ماتي الذي يعيش بالاعتماد على ذكائه، ويتساءل دوماً من أين ستأتيه الوجبة التالية. كم سيمر من الوقت قبل أن يندفع ماتي إلى مثل هذه الحياة؟ ليس كثيراً برأيه. إنهم أولاد وليسوا مصاصي دماء! تحرك إلى الأمام، وسمع خشخشة في العتمة، فيما سبقته الفتاة. استطاع سماع عواء يصدر من مكان ما في الخلف، فيما بقية الأولاد يفتشون عنه من دون التفوه بأي كلمة.

أولاد أو مصاصو دماء... هذا لا يهم؛ فسوف يموت. إذ لا مجال للخروج من هنا على الإطلاق. أحسّ بقلبه يخفق بقوة بين ضلوعه، وأحسّ باليأس فيما حاول حبس أنفاسه في رئتيه، وأحس بحرقه في عضلات ساقيه فيما كان يتحرك من دون ثقة. لن ينجح.

فجأة، همس صوت ولد من خلفه: "ربع بنس مقابل حياتك".
فقال: "حسناً، ربع بنس".

عندها، أصرّ الصوت: "أريد رؤيته الآن".

أدخل شارلوك يده في جيبه وأخرج حفنة من النقود المعدنية وقال: "يمكنك الحصول على كل هذا إذا تركتني أخرج حياً من هنا". فأطلق الولد المختفي في العتمة صغيراً ثم قال: "لم أر يوماً هذا القدر من المال. لا بد أنك غني".

قال شارلوك بإلحاح، وهو مدرك تماماً اقتراب أصوات الأولاد الذين يفتشون عنه في العتمة: "لن ينفعني هذا كثيراً إذا متّ هنا. خذني من حيث جئت".

"لا أستطيع فعل ذلك، فهم يراقبون وينتظرون. عليك إيجاد سبيل آخر".

ذعر شارلوك: "أي سبيل؟".

"الحق بي".

فجأة، ظهر شكل قرب شارلوك، وكأنه أخرج نفسه من الحائط. وبالكد وصل ارتفاعه إلى صدر شارلوك، لكن ثمة شيء في عينيه جعله يبدو أكبر سنًا.

سأل شارلوك فيما تسلل الولد بعيداً في العتمة مثل السمكة: "ما اسمك؟".

قال الصوت الهامس: "لا أملك اسماً".

أصرّ شارلوك: "كل واحد يملك اسماً".

"ليس هنا في الأسفل. فالأسماء لا تنفع أبداً".

لاحظ شارلوك أن الولد استدار جانبياً، ودخل عبر حائط مقوّس - من حيث أتى - فأدرك أن ثمة فجوة ممتدة من الأرض وحتى ارتفاع الرأس. ليست صدعاً، وإنما هي فجوة اصطناعية عادية. إنها مخصصة للتهوئة ربما، أو لغرض آخر. سمع شارلوك خريشة في الداخل، فحبس أنفاسه ولحق بالولد.

كانت الدقائق الخمس التالية أسوأ دقائق عاشها شارلوك في حياته. فقد كان محاصراً بين جرفين صخريين عموديين رطبين ومفتتين، وسمع - أو ربما تخيل سماعه - الحشرات العمياء وهي تزحف عبر قنواتها على مسافة بضعة إنشات من وجهه، فيما دفع نفسه في المجهول. احتكّ الآجر الخشن بوجهه ويديه، وعلقت في شعره شبك العنكبوت الممتدة من جانب إلى آخر. كما وقعت أشياء من الشباك على ياقته، فتوجّب عليه مقاومة الرغبة الملحة جداً في نفض ملابسه للتخلص منها فيما بحثت عن مكان لتختبئ فيه. وبين الحين والآخر، ارتطمت يدها الباحثتان بشيء رطب على الجدران. افترض أنه ماء، لكنه في العتمة لم يستطع أن يتأكد من ماهيته. وإذا كان ماء، فإن رائحته لا تشبه أبداً أي شيء شمّه من قبل؛ إذ كان أشبه بشيء دبق. وشعر شارلوك كما لو أنه يدفع نفسه أكثر فأكثر داخل حنجرة تتين عملاق قديم، وما لامسه هو لعابه. أحسّ بالأرض - إذا كانت أرضاً وليست لساناً - تنسحق تحت قدميه فيما كان يمشي، وراوده ذلك الشعور المريع بأنه إذا توجب عليه التوقف فسيغرق في الوحل ببطء؛ وصولاً إلى ركبتيه، ومن ثم إلى وركيه، ومن ثم إلى عنقه... وإذا لم تلمس قدماه شيئاً صلباً، فسيغمر الوحل الطري رأسه ويخنقه. بدا له وكأن الصبي المتوحش أمامه يتسلق أكثر مما يمشي. إذ عثرت أصابع يديه وقدميه على فتحات في الحجارة، وتحرك فوق الوحل وليس عبره، فيما كشطت أظفاره الحجارة

مصدرة صوتاً جعل شارلوك راغباً في الصراخ. يبدو جلياً أنه تعلم كيفية التحرك في الأنفاق والقناطر بطريقة يعجز شارلوك عن فعلها.

فجأة، صارت المسافة الفاصلة بين الجدارين ضيقة، وتوجب على شارلوك الاستدارة جانبياً للمرور عبرهما. وشعر كما لو أن الجدارين يطبقان على صدره وظهره، فزفر الهواء وجعل صدره مسطحاً قدر الإمكان، ودفع نفسه إلى الأمام قدر المستطاع. لكن، في النهاية علق حجر ناتئ بضلوعه، وعرف أنه عاجز عن المضي قدماً.

لم يعد بإمكانه التنفس. هذا ليس جيداً؛ فالفتحة صغيرة جداً، مما يعني أنه لن يحصل إلا على القليل من الهواء.

ازداد ذعراً، وحاول العودة إلى الخلف، لكن شيئاً ما في الصدع الضيق تبدل. فعندما تحرك عبره، أزاح ربما بعض حجارتها؛ مما جعل الفتحة خلفه تصبح أكثر ضيقاً مما كانت عليه عندما عبرها. وعندما حاول دفع نفسه إلى الخلف، وجد أن شيئاً ما يضغط على عموده الفقري. لم يستطع التحرك إلى الأمام أو إلى الخلف. لقد علق! أراد الصراخ، لكنه لم يستطع إخراج هواء كافٍ من رئتيه. وبدا له وكأن رذاذاً أحمر قد تناثر أمام عينيه، فيما خفق قلبه بقوة وبطريقة غير منتظمة؛ كما لو أنه يحاول الخروج من قفصه الصدري بالتوق نفسه الذي حاول فيه شخصياً الخروج من الصدع.

فجأة، شعر بيد تمسك بمعصمه وتسحبه بقوة، فكشطت الحجارة ظهره وضلوعه، وانهارت بعدها على شكل سيل من الغبار الخشن والحشرات اليائسة المتطايرة، فقفز إلى مساحة أوسع؛ تماماً مثل الفلينة التي تطير من القنينة.

كان الصبي المتوحش واقفاً أمامه. ولا بد أن يده هي التي سحبت شارلوك وحررتة.

تنفس جرعات كبيرة من الهواء وقال: "كان بوسعك تركي. كان بوسعك الانتظار إلى أن أختنق فتأخذ بعدها كل المال من جيوبي".

فقال الصبي وقد بدا على وجهه تعبير غير مفهوم: "أوه، نعم، أفترض أنه كان بوسعي فعل ذلك". ثم استدار وسار مبتعداً، وبعد ذلك نظر إلى شارلوك قائلاً: "علينا المضي قدماً، فهم ليسوا بعيدين عنا".

بعد بضع أقدام فقط، انتهت الفجوة عند سلّم ضيق. لحق شارلوك بالصبي إلى الأعلى وصولاً إلى مساحة غائرة، وما رآه هناك جعله يشهق وهو غير مصدق.

فقد خرجا إلى ما بدا مستودعاً كبيراً مليئاً بالصناديق المكدسة فوق بعضها، حيث عجز شارلوك عن رؤية الجدران. إلا أنه استطاع رؤية السقف الذي كان مؤلفاً من ألواح زجاجية مثبتة ببعضها بإطار حديدي، فيما تسلل نور الشمس عبرها. وكان ذلك النور ساطعاً جداً بالنسبة إلى عينيه اللتين اعتادتتا على العتمة، حيث توجب عليه إغماضهما نصف إغماضة لرؤية أي شيء. ثمّة عارضات حديدية كبيرة في المكان تحتهما. وفي مكان ما في الأعلى، استطاع سماع العصافير وهي تصفق بأجنحتها.

لكن الصناديق هي التي لفتت انتباهه. إذ كانت طويلة- طويلة- طولها سبع أقدام تقريباً- وضيقة، لكن جوانبها غير منتظمة. فقد كانت عريضة إلى أقصى حدّ لربع المسافة تقريباً من الأعلى، وضيقة من الأسفل. حدّق إليها هنيهة بذهول، محاولاً معرفة طبيعتها، ثم أدرك حقيقة الأمر. في الواقع، لقد عرف منذ أول لحظة رآها، لكن عقله لم يسمح له بقبول الحقيقة المرعبة؛ إنها تواييت!

شهق قائلاً: "ما هذا المكان؟".

"هنا يتم تخزين الجثث، استعداداً لشحنها إلى نيكروبس".

"نيكروبس؟". لم يكن شارلوك قد سمع بهذه الكلمة من قبل.

"نعم، كما تعلم، المكان الذي يؤخذ إليه الموتى".

تسارعت أفكار شارلوك. "أتقصد المقبرة؟". ثم فهم. "تقصد نيكروبوليس".

وعادت اللغة اليونانية التي تعلمها في مدرسة دييدن إلى الذاكرة. نيكروبوليس أو مدينة الموتى.

"نعم. في أسفل بروكوود. تذهب القطارات إلى هناك".

بروكوود؟ أي بالقرب من فارنهام حيث يعيش عمه وزوجته، أي حيث يقيم هو. ثم تذكر أمراً قاله له ماتي أرنت حين التقيا للمرة الأولى، عن عدم رغبته في الذهاب إلى بروكوود. لم يشأ الإفصاح عن السبب، ولم يلحّ عليه شارلوك لمعرفته، ولكنه عرفه الآن. يبدو جلياً أنه توجد مقبرة كبيرة جداً في بروكوود، مكان تشحن إليه الجثث من أمكنة بعيدة.

سأل: "لماذا لا يتم دفنها في لندن؟".

قال منقذه باقتضاب: "لا يوجد مكان هنا؛ فالمدافن مليئة، وقد تم دفن الجثث فوق بعضها بعضاً". هبت عاصفة قوية ففتحت التواييت، وباتت الجثث مكشوفة للعيان.

نظر شارلوك حوله إلى كومات التواييت، ولاحظ أنها تكشف كلها عن رقم مدوّن على جانبها. يفترض أن تتطابق هذه الأرقام مع سجلات في

لائحة دُونها أحدهم في مكان ما؛ كي يتم ربط تابوت معين بمكان دفن معين، وشخص معين. "وهل كل هذه التوابيت... مليئة؟".
أوما الصبي برأسه مجيباً: "كلها". صمت قليلاً ثم تابع: "عائدات جيدة".

"ماذا تقصد؟".

"يتم إسقاط الصناديق أحياناً، أو تحطيمها. ويدفن بعض الأشخاص أحياناً مع ممتلكاتهم؛ أي ساعاتهم، وخواتمهم... كل أنواع الأشياء. وهناك ملابس أيضاً. يدفع بعض الأشخاص مبلغاً كبيراً ثمن سُرّ جميلة، ولا يهتمون إن كان قد ارتداها أحد قبلهم".

أحس شارلوك بالغثيان. إنه عالم جديد تماماً؛ عالم لا يريد أن يكون جزءاً منه. لكن، رغماً عنه، لم يستطع منع نفسه من طرح المزيد من الأسئلة؛ فقد أراد أن يعرف.

"كيف يتم نقلها إلى بروكوود؟".

"بواسطة سكة حديدية خاصة". أشار الصبي بعيداً، وتابع: "سكك نيكرويس. المسارات موجودة هناك".
"أهناك قطارات فقط للموتى؟".

"وللذين يتكونهم خلفهم". ابتسم الولد كاشفاً عن فم داخله سن واحدة مهترئة فقط. "تذاكر سفر في الدرجة الأولى والثانية والثالثة، فقط للتوابيت. يمكنك السفر بأناقة حين تكون ميتاً". وأشار حوله. "لحسن الحظ، إن الأشخاص لا يرون كيف يتم التعامل مع أحبابهم قبل وضعهم في القطار، أليس كذلك؟".

نظر شارلوك حوله مجدداً إلى صفوف التوابيت التي يكتظ بها المكان، والمكدسة في كومات أعلى من رأسه، وتحتوي على جثث داخلها. كان يقف بين عدد من الموتى يكفي ملء بلدة صغيرة. يا له من مشهد مريع!
قال: "حسناً، فلنذهب".

فهزّ الصبي رأسه قائلاً: "أصبحت بمفردك الآن يا صديقي".
"حسناً". وأعطاه شارلوك حفنة النقود المعدنية التي أخرجها من جيبه قائلاً: "شكراً".

أوما الصبي برأسه. "أنت إنسان محترم". ثم تراجع إلى الخلف، ووضع أصابعه على شفثيه، وأطلق صفيراً عالياً جداً صمّ أذني شارلوك، وصرخ بأعلى صوته: "إنه هنا! إنه يهرب!".

قال شارلوك معترضاً: "ظننت أنك تساعدني".

"كنت". وهزّ الصبي قبضة يده التي يحمل بها النقود ثم تابع قائلاً:
"انتهت الصفقة. والآن، سأساعدكم. فقد يسمحون لي ربما بالحصول على
حذائك".

استطاع شارلوك سماع أصوات تصدر من الفتحة الضيقة التي خرجا
منها؛ أصوات أظفار طويلة تخدش الحجارة. وعندما نظر جيداً إلى العتمة،
استطاع رؤية بريق العيون الصغيرة التي تطرف في الضوء.
تقدم إلى الأمام، وأمسك الصبي من معصمه، ثم أداره ودفعه نحو
الفتحة، وصرخ عالياً: "لقد أخذ مالي. إنه يحمل مالي!".

حدّق الصبي إلى شارلوك مذعوراً قبل أن يتم سحبه إلى العتمة
بواسطة مجموعة من الأيدي الصغيرة. فسمعه شارلوك يصرخ، وبعدها لم
يعد يسمع أي شيء باستثناء أصوات الشجار وتمزيق الملابس. فاستغل
شارلوك فرصة انهماكهم معاً وركض للهرب بعيداً.

كان لا يزال يشعر بأنه منقطع الأنفاس، كما شعر بحرقة في رثتيه
وعضلاته. لكنه تحرك بأسرع ما يمكن عبر كومات التوابيت. وبعد لحظات
قليلة، أصبح في فناء مفتوح.

ظهرت أمامه ثلاثة قطارات بخارية. كانت واقفة على السكك على
طرف الخط، مثبتة بحواجز. وكانت شبيهة بالقطار الذي استقله مع أميوس
غروي لدى قدومهما إلى لندن، لكن هذه القطارات مطلية باللون الأسود:
المحركات والمقطورات. وظهرت على كل واحدة من المقطورات جمجمة بيضاء
مرسومة على الجهة الأمامية والجهة الخلفية. وخلف الجماجم البيضاء عظامٌ
متشابكة.

افترض شارلوك أن القطارات تنطلق فقط بعد حلول الظلام. إذ إن
رؤية مثل هذه القطارات في النهار يمكن أن تكون تجربة مسببة للاكتئاب
لأي كان.

لكن هنا أيضاً، يمكن أن يكون ظهور مثل هذا القطار ليلاً وسط
سحابة من الدخان، ومع مرجل أحمر متقد بحرارة الفحم المشتعل تجربةً
مريعةً.

نظر شارلوك إلى الخلف، إلى كومات التوابيت. وفي الظلال حولها، ظنّ
أنه استطاع رؤية لمعان عيون تراقبه، لكنه لم يكن واثقاً. الشيء المهم هو
أنهم لا يتبعونه. لن يخرجوا إلى الضوء، وهو لن يعود حتماً إلى العتمة.
لقد انتهى الأمر... في الوقت الحاضر.

استدار وتقدم خطوة إلى الأمام، فانسحق شيء تحت قدميه. نظر إلى

الأسفل، فرأى قسماً أبيض من عظم ناتئ من الأرض. لقد داس عليه وحطّمه إلى جزئين. قال الصبي المتوحش: يتم إسقاط الصناديق أحياناً، أو تحطيمها. بدا له وكأن الجث قد تركت حيث وقعت. كل هذه الأبهة والعظمة للموتى- قطارات خاصة، مدينة كبيرة للموتى في بروكود- لكن الجث تترك حيث تقع في حال تحطمت التوابيت. أهل الفقيد لا يعرفون، أو ربما لا يبالون في ما إذا كان فرد العائلة الذي خسروه موجوداً في التابوت عند دفنه.

في مكان ما خلف القطارات، تفضي السكك الحديدية إلى الهواء الطلق. إذ ثمة نسيم يهبّ ويبعد رائحة سراديب الموتى التي هرب شارلوك عبرها وكاد يخسر فيها حياته. تقدم بمشية منهكة صوب نور الشمس الخفيف. ففي مكان ما هناك، سيعود إلى العالم الحقيقي. لا يزال مايكروفت يواجه تهمة ارتكابه جريمة، ويتوجب عليه مساعدته لتبرئة نفسه. كان مرهقاً ومتألماً، لكن هذا لا يهم الآن؛ فمايكروفت بحاجة إلى مساعدته. كان منهمكاً في أفكاره جداً، حيث احتاج إلى بضع ثوانٍ لاستيعاب فكرة أن الرجل صاحب الشعر الأشعث خرج فجأة من خلف محرك أحد القطارات.

قال له: "لن تهرب أيها الولد". ورفع يديه، فلمع الضوء الخفيف على المسامير المعدنية الناتئة فوق براحمه. "ويبدو لي أنني وفّرت على نفسي نصف كراون أيضاً".

الفصل السادس

أحسّ شارلوك بقلبه ينفطر. فرغم كل هذا الجهد، وكل هذا الركض، وكل هذا الكشط الذي تعرضت له بشرته بسبب الحجارة لم ينجح. كان متعباً جداً، وغير قادر على القيام بأي شيء آخر. لقد نفذت منه الطاقة. قال بصعوبة: "كيف وجدتني؟".

فأجاب الرجل: "لا أستطيع عبور تلك الفجوات، أليس كذلك؟ لكنني أعرف أن معظم الفجوات تفضي إلى هنا؛ إلى فناءات العظام، ولذلك جئت من الجهة الخارجية وانتظرت. وكنت على وشك الاستسلام حين سمعتك تصرخ وأنت تمرّ عبر الفجوات". وصمت قليلاً ثم أضاف: "لا أزال بحاجة إلى أن تخبرني بسبب لحاقتك بي، وبعدها ستموت". في تلك الأثناء، لاحظ شارلوك شخصاً ضخماً يتحرك في المسافة الفاصلة بين المحرك والمقطورة، خلف الرجل صاحب اللحية. وكان ذلك الشخص يعتمر قبعة.

تعرفّ شارلوك إلى أميوس غروي، فيما طوّق غروي بذراعه اليسرى عنق الرجل، وأمسك معصمه بيده اليمنى، فعلق عنق الرجل في منحنى مرفق غروي. لاحظ شارلوك أن قماش كمّ غروي بات مشدوداً حين شدّ عضلاته، فيما انتفخت عينا الرجل ورفع يديه للإمساك بذراع غروي، لكنه لم يستطع التحرك مطلقاً مهما حاول جاهداً، وتحوّل لون وجهه إلى الأرجواني، فيما كان شارلوك يراقب ما يحصل وهو منهك جداً؛ إلى درجة جعلته عاجزاً عن الإحساس بالذهول.

لا بدّ أن غروي يفرض قوة كبيرة لمنع الرجل من التنفس. ركل الرجل يائساً بجزمة قدمه اليمنى، لكن غروي ثبتّ ساقيه على الجانبين، فلم يستطع أسيره الوصول إليهما. بعد ذلك، أبعد الرجل يديه عن ذراع غروي التي تطبق على عنقه، ودفع نفسه إلى الوراء، على أمل أن يصيب غروي بالمسامير الناتئة فوق براجمه. لكن غروي أزاح رأسه بعيداً في الوقت المناسب، وزاد الضغط على حنجرة الرجل.

وقال غروي لشارلوك بلطف، وهو ينظر إليه من فوق كتف الرجل: "لقد خاب أملي فيك، فقد كنت مهملاً كفاية حيث سمحت لهذا الرجل بروؤيتك وأنت تلحق به".

مرر شارلوك يده عبر شعره وقال: "آسف. ظننت أنني أبقيت نفسي بعيداً عن مرآه".

قال غروي بطريقة ودودة: "تعلم درساً مما حصل؛ إذ يمكن أن

تنعكس الأفخاخ. هذا هو الفارق بين الحيوانات والبشر؛ فالأرانب لا تستدير فجأة وتطارد الثعالب، لكن البشر يستطيعون قلب الأدوار. وهكذا، يتحول المطارِد إلى مُطارِد. ابحث عن الإشارات. فإذا أخذك مطارِدك إلى مكان معزول، فهذا يعني أنه لمحك على الأرجح ويريد الاستفراء بك".

سأل شارلوك بصوت منهك: "ألا تتوقف عن التعليم؟". متذكراً الدرس على البحيرة فيما كانا يصطادان السمك.

"الحياة تعلمنا طوال الوقت؛ إذا كنا يقظين كفاية لنفهم". ونظر غروي جانبياً؛ إلى وجه الرجل الذي أصبح محتقناً أكثر فأكثر، وعينيه الجاحظتين، ثم قال له بنبرة محادثة: "والآن، دعنا نتحدث أنا وأنت قليلاً. لماذا تهدد صديقي بالعنف؟ ليست هذه طريقة متمدنة، يا صديقي".

قال الرجل منتحباً: "كان يلاحقني".

نظر غروي إلى شارلوك وقد رفع حاجبه متسائلاً: "أعتقد أنك تملك سبباً وجيهاً، أليس كذلك؟ فأنت لم تكن تمارس فقط مهارات التعقب؛ رغم أنها تحتاج بشكلٍ جليٍّ إلى بعض التمرين".

فأجاب شارلوك: "وجدت المطبعة التي أصدرت البطاقة. وقال المسؤول هناك إن هذا الرجل كان ينتظر الشخص الذي طلب طباعة البطاقة في الشارع، ثم غادرا معاً".

أوماً غروي برأسه وقال: "افترضت شيئاً من هذا القبيل". ثم أعاد توجيه انتباهه إلى أسيره. "إذاً، هذا يقودنا إلى السؤال: لماذا؟ لماذا دفعت لرجل مريض وفقير كي يطبع بطاقة واحدة؟ ولماذا أرسلته بعد ذلك لزيارة السيد مايكروفت هولمز في ناديه؟".

تلوَّى الرجل تحت ذراع غروي المحكمة حول عنقه وقال: "أنت تخنقني!".

"أحسن. أنا أخنقك".

"أنت تكسر عنقي!".

"ليس بعد. بضع أونصات إضافية من الضغط وسينكسر عنقك مثل غصن مهترئ. نعم، سيحصل هذا ولكن ليس الآن. فسوف تخنق أولاً".

"أنت تقتلني!".

أكد غروي: "نعم. أعتقد ذلك. تحدث بسرعة".

"تم دفع المال لي".

"طبعاً. لا أعتقد أنك فعلت ذلك حباً بجلالة الملكة والبلاد. السؤال

هو: من دفع لك؟".

ضرب الرجل ذراع غروي اليسرى الصلبة وأجاب: "لا أعرف أسماءهم! دعني أتنفس! أرجوك!".

أرخی غروي قبضته لجزء من الثانية، فاستنشق الرجل نفساً عميقاً مرتعداً. كان شعره ملتصقاً بوجهه الذي فقد بعضاً من لونه الأحمر. قال: "جاء إليّ شخص ما ذات ليلة في مقهى شافتسبوري. يعرف الناس أنني أحل المشاكل؛ فأنا أستطيع عقد الصفقات، وإيجاد الأشخاص المناسبين للتجسس، وأي شيء تريده. طُلب مني إيجاد رجل على وشك الموت ويحتاج إلى المال لعائلته. وطلب مني إقناعه بفعل شيء أخير، وإذا فعله جيداً، فباستطاعته تأمين مستقبل عائلته".

"وهل كنت تعرف رجلاً كهذا؟".

"أعرف مئات الرجال. إنهم منتشرون بكثرة هنا. التهاب في الرئتين، إدمان على الشراب، آلام في المعدة... هناك الكثير من الطرائق المختلفة للموت في لندن".

"وما كانت تلك المهمة المحددة التي يجدر به إنجازها؟".

بقي الرجل صامتاً.

شدّ غروي قبضته وغمتم: "أونصة واحدة إضافية من الضغط وسيكون آخر صوت تسمعه هو طقطقة عنقك. لقد فعلت هذا سابقاً بحيوانات الكوغر، وكذلك بالتماسيح، حتى إنني قتلت ثوراً بهذه الطريقة. لذا، لن تشكّل تحدياً صعباً بالنسبة إليّ، صدّقي".

قال الرجل بسرعة: "توجب عليه الذهاب إلى النادي في وايت هول وطلب رؤية رجل على انفراد؛ لوحده. رجل اسمه مايكروفت هولمز. ومن ثم تسليم بطاقة يجدر بنا طباعتها؛ البطاقة الوحيدة فقط. وعندما يصبح بمفرده مع ذلك الرجل، يجدر به رش شيء ما على وجه الرجل؛ مادة موجودة في شيء يشبه قارورة العطر. حينها، سيسقط الرجل عليه فاقداً وعيه. وبعد ذلك، يجب عليه أن يضع سكيناً حقيقية في يد الرجل، ثم يطعن نفسه في القلب مباشرة بواسطة سكين أخرى مصنوعة من الجليد. وكأنها مسرحية هزلية".

"ومن أين حصل على السكينين؟".

"قيل لي إن شاباً سيلاقينا عندما نصل إلى النادي، وسيعطينا العلبة المحتوية على السكينين. توجب علينا فعل الأمر بهذه الطريقة، وإلا فقد تذوب السكين الجليدية؛ حتى لو كانت في العلبة".

ابتسم غروي وسأل: "ألا يبدو لك كل هذا غريباً بعض الشيء؟".

اعترف الرجل: "لقد فعلت أموراً أكثر غرابة، وتلقيت مبلغاً جيداً من المال".

"هل تعرف اسم الرجل الذي استخدمك؟ هل يمكنك وصفه؟".

"لم أقل إنه رجل، هل قلت ذلك؟".

ارتفع حاجبا غروي بذهول واضح وأجاب: "في الواقع، لم تقل ذلك. إنها غلطتي. إذًا، هل تم استخدامك من قبل امرأة؟".
أوماً برأسه بقدر ما استطاع بوجود ذراع غروي المشدودة حول عنقه.
"نعم، امرأة".

"صفها لنا".

"شابة نحيلة وأنيقة".

صرخ غروي: "الوجه، يا رجل. صف لنا الوجه".

"لم أستطع رؤيته. كانت تعتمر قبعة كبيرة وتضع خماراً".

"ماذا عن لون شعرها؟".

"لم أستطع رؤيته تحت القبعة".

"لكنك لحقت بها بعدما استخدمتك، أليس كذلك؟".

لاحظ شارلوك أن عيني الرجل اتسعتا بفعل دهشته وقال: "كيف عرفت ذلك؟".

"أعرفك يا صديقي، أو على الأقل، أعرف الرجال أمثالك. امرأة تملك كمية كبيرة من المال النقدي... إذًا، لا شك في أنك ستلحق بها. فقد أردت أن تعرف أين تعيش؛ في حال استطعت دخول منزلها لاحقاً وسرقة بقية المال النقدي الذي تحتفظ به معها. فالرجال أمثالك يبحثون دائماً عن فرصة. إذًا، إلى أين ذهبت؟".

هزّ الرجل كتفه، وأبعد ذراع غروي قليلاً.

"لم تذهب إلى منزل، بل ذهبت إلى متحف في بوو اسمه باسمور إدواردز. كان قصراً كبيراً في ما مضى. انتظرت هناك لمدة ساعتين، لكنها لم تخرج منه قط. لا أعرف إذا كانت تعيش هناك، أو إذا كان هناك مخرج في الجهة الخلفية، لكنني لم أرها مجدداً مطلقاً".

"هل هناك شيء آخر؟ هل هناك حقائق أخرى تريد إخبارنا بها؟".

"لا، لا، أقسم!".

أفلت غروي الرجل فجأة، فسقط هذا الأخير على ركبتيه وهو يمسك بحنجرتة ويكاد يختنق.

قال غروي لشارلوك: "أعتقد أننا حصلنا على كل المعلومات من هذا

الرجل. إذا كنت قادراً على ذلك، فلنذهب إلى أحد المقاهي ولنحتسِ القليل من الشراب". ونظر ملياً إلى سروال شارلوك وحذائه المملطخين بالوحل، وإلى سترته المغطاة بغبار الحجارة ثم قال: "يجب علينا أولاً إيجاد متجر لنشتري منه الثياب؛ فلن نترك انطباعاً جيداً هكذا".

لكن، قبل أن يتمكن شارلوك من الإجابة، نهض الرجل الصغير فجأة عن الأرض، وأدار ذراعه، موجهاً المسامير الناتئة صوب وجه أميوس غروي. كان يصرخ بقوة، وقد ظهر الغضب الشديد على وجهه: "حاول خنقي، هل تريد؟".

تراجع غروي إلى الخلف بعيداً عن المسامير، فعبرت مباشرة أمام عينيه؛ على مسافة إنشات قليلة فقط. وبعد ذلك، تقدم غروي خطوة إلى الأمام، وأدار جسمه إلى اليسار وركل بقدمه اليمنى، فارتطمت جزمته بركبة الرجل. سمع شارلوك شيئاً يتحطم، وسرعان ما انهار الرجل على الأرض صارخاً بصوت عالٍ.

قال غروي وهو يشير إلى شارلوك: "فلنذهب. أشعر أن هناك إبريقاً من القهوة وقالباً من الحلوى في مكان ما مع اسمي عليهما، وأنوي إيجادهما".

مشى في المقدمة، فلحق به شارلوك. تركا الرجل صغير القامة متفوقاً على الأرض، وممسكاً بركبته المحطمة.

سأل شارلوك: "ألا يجدر بنا إبلاغ الشرطة؟ ألا يجدر بهم اعتقاله؟". هزّ غروي كتفه وأجاب: "إذا كان هذا الأمر يشعرك بالتحسن فأعتقد أنه بوسعنا القيام به. لكن أقواله ستكون مناقضة لأقوالنا، والضرر الوحيد الذي سيلحق به حرصت شخصياً على التسبب به. لذا، إن أي شرطي يحترم نفسه سيعتقلني على الأرجح بدلاً من اعتقاله، أو سيعتقلنا معاً إلى أن يفهم حقيقة ما حصل".

احتج شارلوك: "لكن هذا ليس منصفاً".

"ربما، لكنها العدالة. وإذا كنت لا تعرف الفرق بين الاثنين، فعليك أن تتعلم".

توجّه غروي نحو الطريق المؤدية إلى الشوارع والممرات والقناطر في المساحة الممتدة حول محطة واترلو.

وسأله شارلوك فيما كان يمشي قربه: "كيف وجدتني؟".

"الجواب بسيط. كنت أتبعك".

قال شارلوك: "لكنني لم أرك".

"هذا ما يجدر بك توقعه حين ألحق بك. فأنا على عكسك، أستطيع إبقاء نفسي في الظل، أو بين الحشود، أو في الزوايا".
"لماذا كنت تلحق بي؟".

"بعدها تحققت من العنوان المدون على البطاقة - والذي كان زائفاً بالمناسبة - اعتقدت أنني أستطيع اللحاق بك. تحققت من المطابع في التسلسل المعاكس؛ بدءاً من آخر مطبعة مذكورة في اللائحة، ورأيتك فيما كنت تغادر المطبعة الثانية التي دخلتها أنا؛ أي المطبعة الثالثة التي دخلتها أنت. حاولت اللحاق بك، لكنك مشيت بسرعة. ثم توقفت وبدأت تراقب مقهى، فعرفت أنك تبحث عن شيء ما، ولم أشأ لفت الانتباه إليك، ولذلك اختبأت في أحد المداخل لرؤية ما يجري. بعد برهة، بدأت تلحق بذلك الرجل ذي اللحية، فلحقت بكما معاً. رأيته حين حاصرك، لكنك هربت قبل أن أستطيع التدخل. أمضيت الساعة التالية وأنا أشقّ طريقي في الجهة الخارجية، محاولاً توقع المكان الذي قد تخرج منه.
قال شارلوك بهدوء: "أوه، هذا منطقي".

أصبحت الآن في الجهة الأمامية للمحطة. لمح غروي متجراً صغيراً يبيع الثياب على مسافة قريبة من متجر لبيع الأحذية. وفي غضون عشر دقائق، اشتريا سروالاً جديداً وسترة جديدة، وقميصاً جديداً، وجزمة جديدة لشارلوك. دفع غروي المال من دون أي تعليق، فافترض شارلوك أنه سيأخذ المال من مايكروفت لاحقاً؛ إذا تم إطلاق سراحه.

بعد مغادرتهما متجر الأحذية، توجه غروي إلى مقهى مجاور، وجلسا إلى طاولة قرب النافذة. أحسّ شارلوك أنه منفصل عن الواقع؛ فقبل أقل من ساعة، كان يحاول النجاة بحياته عابراً الأنفاق المعتمة، وها هو الآن يجلس تحت نور الشمس في انتظار وصول الحلوى. الحياة غريبة أحياناً. في الواقع، الحياة غريبة في معظم الأوقات.
وبعد وصول صينية القهوة والحلوى، سأل: "إذاً، ما هي الخطوة التالية؟".

تناول غروي قزمة كبيرة من الحلوى الاسفنجية ثم أجاب: "أولاً، دعنا نحلل ما نعرفه. ثمة فاصل مزدوج بين الشخص الذي يعطي الأوامر والأشخاص الذين ينفذونها".

قطّب شارلوك جبينه وسأل مستوضحاً: "ما الذي تقصده بالفاصل المزدوج؟".

"أقصد أن الرجل الذي قتل نفسه في النادي لم يلتق قط المرأة ذات

الخمارة. فقد استخدمت الرجل ذا اللحية، الذي استخدم بدوره الرجل الذي كان مستعداً لقتل نفسه كي يضمن المستقبل لعائلته".
"تلك المرأة مستخدمة ربما من قبل شخص آخر. إذًا، ربما كانت هناك ثلاثة فواصل".

أجاب غروي: "هذا محتمل. فالشخص الذي نظم كل ذلك شديد الحذر؛ إذ حرص على ألا يتمكن أحد من اقتفاء أثره. والسبب الوحيد الذي أوصلنا إلى هنا يعود إلى حدثين غير مخطط لهما؛ الأول هو تعرّف موظف المطبعة على الرجل ذي اللحية، والثاني هو كون الرجل ذي اللحية جشعاً وفاسداً كفاية. فقد دفعه جشعه إلى اللحاق بالمرأة التي استخدمته، مما إلى وصوله إلى ذلك المتحف الذي تحدث عنه. لا تقلل أبداً من أهمية الصدفة غير المخطط لها".

سأل شارلوك: "لكن، ما الهدف؟ ما الذي يحاولون تحقيقه بالضبط؟".
هزّ غروي كتفيه وأجاب: "يبدو أن الهدف الأساسي هو تشويه سمعة أخيك، وإبعاده عن طريق أحدهم. أما الهدف طويل الأمد فلست واثقاً منه بعد؛ إذ نحتاج إلى المزيد من المعلومات".

تنهد شارلوك. كان يظنّ أنه جائع بعد كل ذلك الركض، لكنه لم يحب الحلوى الموجودة أمامه، فسأل: "ما الذي يمكننا فعله؟".

أجاب غروي: "برأيي، نحن نملك ثلاثة خيارات. أولاً، نستطيع إخبار الشرطة بما نعرفه، ثم نعود إلى فارنهام على أمل أن ينجح محامي نادي دياغونيز في إخراج مايكروفت من السجن وتبرئته".

سأل شارلوك: "ما هي احتمالات حصول ذلك؟".
"ضئيلة. فالشرطة لن تميل إلى التحقيق في جريمة تملك أدلة واضحة فيها ضد رجل تم توقيفه أصلاً. وحتى لو امتلك رجال الشرطة أفضل النوايا في العالم، فلن يسهل تصديق روايتنا. كما اختفت كل أدلتنا".
"لكننا نملك قنينة رذاذ الأفيون!".

فهزّ غروي كتفه مجيباً: "يمكن أن يكون دواء مثلما قال أخوك. ولا يمكننا الكشف عن هذا الدليل من دون أن نملك دليلاً آخر يدعم أقوالنا. فثمة احتمال في أننا اشتريناه من صيدلية في الشارع".
"ما هو الخيار الثاني؟".

"أن نبقى في لندن ونحدث إلى مديري أخيك في وزارة الخارجية، ونقنعهم بالعمل على إخراجه".

جفل شارلوك وقال: "حتى أنا لا أجد أن هذا الاحتمال قابل للنجاح".

"بالفعل. فثمة احتمال كبير في أن تترك وزارة الخارجية أخاك يتخبط بمفرده. فأخر ما تريده هو إحراجها أمام العفن".

قال شارلوك بنبرة حاسمة: "إذاً، سنعتمد الخيار الثالث".

ابتسم غروي. "لكنك لا تعرفه بعد".

"أستطيع التخمين". التقت عينا شارلوك نظرات غروي الودودة، وتابع:

"نجمع بنفسينا ما يكفي من الأدلة لتبرئة اسم مايكروفت. لذا، يجب علينا

أن نذهب إلى ذلك المتحف في بوو، ونحاول إيجاد المرأة صاحبة الخمار".

أوماً غروي برأسه. "هذا صحيح تقريباً. وبصراحة، لا أعلق آمالاً كبيرة

على فرص نجاحنا. الطريق أماننا طويلة".

انفجر شارلوك غاضباً: "لماذا لا يوجد شخص يمكننا اللجوء إليه؟ لماذا

لا يوجد شخص يستطيع التحقيق في الأمور التي لا تحقق فيها الشرطة أو

تعجز عنها؟ ألا يوجد نوع من المحققين المستقلين الذين يستطيعون إيضاح

الأمور؛ مثل وكالة بينكرتون في أميركا التي أخبرتني عنها؟".

قال غروي وتعبير غريب مرتسم على وجهه: "يستلزم ذلك مجموعة

كاملة من المزايا المهمة. لكنها بيئة عمل غير مزدهرة حالياً هنا في إنكلترا".

ثم بدا وكأنه يسحب نفسه من حيث قادته أفكاره وقال: "حسناً، أقترح

أن نوقف عربة ونطلب من الحوذي إيصالنا إلى المتحف في بوو".

وعلى الفور أوقفا عربة. ولاحظ شارلوك أن غروي تعمد إهمال عربتين

فارغتين من دون توقيفهما، واختار العربة الثالثة في اللحظة الأخيرة فيما

كانت على وشك الابتعاد عن المكان الذي وقفا فيه.

سأله شارلوك بعد أن صعدا إلى العربة: "لماذا لم توقف أول عربة؟".

أجاب غروي: "لأننا نمشي باضطراب حول حواف شبكة حبكها أحدهم،

وأردت التأكد من أن العربة التي سنصعد إليها ستكون من اختيارنا نحن،

وليست مختارة من قبل شخص آخر".

"إذاً، ما المشكلة في العربة الثانية؟".

ابتسم غروي وأجاب: "كان الحصان أعرج، وأشك في أن يستطيع

الوصول إلى بوو. ولم أحب شاري الحوذي".

جلسا على المقعد الخلفي، وظهر وجه السائق في الفتحة الصغيرة

فوقهما. "إلى أين أيها السيدان؟".

سأل غروي: "هل تعرف متحف باسمور إدواردز؟".

استغرقت الرحلة نصف ساعة تقريباً. وأمضى شارلوك الوقت وهو

يتأمل الحياة الحقيقية المعروضة أمامه. رأى صفوفاً من الحبال المليئة

بالملابس والمعلقة بين النوافذ على جانبي الشارع، ورجالاً ذوي وجوه قاسية يتحركون في زوايا الشارع، وبائعين متجولين مع صواني مليئة بالحلويات والفاكهة والأزهار، وشاحذي سكاكين يجرون عرباتهم وينادون لمعرفة ما إذا كان أحد ما يرغب في شحذ سكينه على حجارة الشحذ العاملة بالدواسات التي يدفعونها أمامهم.

كان المتحف عبارة عن مبنى حجري ذي لون برتقالي مائل إلى البني، مع زوايا ناتئة ومدخل مزخرف بالأعمدة. وكان المبنى متراجعاً عن الشارع، ومفصلاً عن الرصيف بشريط عشبي وسور معدني يصل ارتفاعه إلى الركبة. وثمة لافتة حجرية كبيرة على الجدار الموجود قرب الباب الأمامي محفورة عليها الكلمات التالية: متحف باسمور إدواردز للمتحف الطبيعية.

نادى غروي الحوذي قائلاً: "تجاوز المبنى. أنزلنا عند زاوية الشارع". أوقف الحوذي العربة تماماً حيث أشار غروي، فدفح له غروي الأجرة، ونزل الاثنان من العربة.

قال غروي: "لا تنظر إلى المبنى مباشرة. فلنقف هنا ونتحدث لبضع ثوانٍ. دعنا نتناقش في انطباعاتنا".

قال شارلوك: "قل عني إنني غبي، لكن انطباعي عنه أنه متحف، والمكان لا يبدو لي واجهة لأي شيء".

فردّ غروي وهو مستغرق في التفكير: "يمكن أن يكون المكان مناسباً للقاءات العمل؛ أي كمكان يتم اختياره عشوائياً بدلاً من أن يكون المقر الرئيس لمؤامرة. وفي هذه الحالة، لن نكتشف أي شيء هنا، وسنكون قد فوّتنا الكثير من الأدلة التي يمكننا اللحاق بها".

أشار شارلوك بإصبعه قائلاً: "أقل ما يمكننا فعله هو تأمل المكان حول المبنى. فقد نلاحظ شيئاً ما، أو نسمع شيئاً ما، أو قد يتذكر شخص ما رؤيته امرأة تضع خمراً".

فقال غروي: "فكرة جيدة. أحسنت".

توجه غروي برفقة شارلوك نحو الباب الأمامي؛ بالطريقة نفسها التي يصطحب فيها أب ابنه في نزهة. دخلا ردهة فارغة، داخلها أدراج مؤدية إلى الأعلى، حيث تنشطر يميناً ويساراً. يمكن أن تكون هذه الردهة المدخل الرئيس لأي منزل كبير في المدينة، لولا العلبة الزجاجية العملاقة الموجودة وسط الأرضية المرصوفة بالبلاط. وداخل العلبة يوجد مجسم دقيق لقسم من غابة، مع أنواع متعددة من الحيوانات: ثعلب، ذئب عدة، والعديد من الفئران والجرذان وفئران الحقول، وثلعب ماء عجوز بدا وكأنه ينتمي إلى

مكان آخر تماماً. تم تثبيت الحيوانات في وضعيات يقظة ومروعة، كما لو أنه تم إلقاء القبض عليها بطريقة غير متوقعة وسط ضجيج كبير. وبدت عيونها الزجاجية السوداء وكأنها تحدق في كل الاتجاهات.

اقترب منهما رجل يرتدي بذلة زرقاء ويعتمر قبعة زرقاء مستدقة وقال: "هل تريدان تذكرتين؟ ادفعا بنسين فقط لكل تذكرة، ويمكنكما عندها البقاء بقدر ما تشاءان. المتحف هادئ جداً في الوقت الحاضر." قال غروي وهو يعطي الرجل بعض النقود المعدنية: "شكراً لك. بماذا تنصحننا في ما يتعلق بصالات العرض؟".

فكر الرجل قليلاً ثم أجاب: "صالة عرض الثدييات الصغيرة في الأعلى إلى اليمين مشهورة بدقتها. أما صالة عرض البرمائيات في الأعلى إلى اليسار، فتحتوي على عدد من الأنواع غير الاعتيادية التي يحب الأولاد رؤيتها." قال غروي فيما ابتعد الرجل: "سوف ننفصل. أنا سأذهب إلى صالة عرض البرمائيات، وأنت ستذهب إلى صالة عرض الثدييات، وسنلتقي هنا مجدداً بعد نصف ساعة. وإذا لم نكتشف أي شيء مهم، فيمكننا الانتقال إلى صالة عرض أخرى." "ما الذي يعتبر مهماً؟".

"مثلما قلت لك في نادي دياغونيز، أي شيء لا يتلاءم مع الواقع، أو في غير مكانه... أي شيء لافت للنظر." "في متحف للحيوانات المحنطة؟".

ابتسم غروي وقال: "للأمر علاقة بالسياق. فعلى سبيل المثال، لا تعتبر رؤية كلب يتنزه في الشارع أمراً غير اعتيادي. لكن في متحف الحيوانات المحنطة، لا شك في أن هذا غريب." قال شارلوك بتردد: "حسناً".

صعدا معاً أول مجموعة من الأدراج الرخامية، ثم انفصلا حيث تفرّعت الأدراج يميناً ويساراً. فذهب شارلوك إلى اليمين، فيما توجه غروي إلى اليسار.

أفضت الدرجات إلى شرفة ممتدة حول المساحة العلوية لردهة المدخل. كانت الشرفة محاطة بدرابزين حجري عالٍ حتى الخصر، وثمة أبواب تؤدي إلى ما يفترض أن يكون صالات عرض مختلفة. تدلّت ثريا من الشموع والزجاج المصقول من وسط السقف.

توجه شارلوك إلى الباب الأول. وعندما دخل، وجد نفسه في غرفة طويلة مشتملة على سلسلة من العلب الزجاجية التي لم يستطع رؤية

نهايتها. وكانت ثمة كوة في السقف سمحت بدخول نور الشمس الساطع. واستطاع سماع أصوات تصدر من مكان ما في الغرفة، لكنه لم يستطع رؤية أي شخص آخر.

توجه نحو الطرف الآخر، ومشى حول العلب حين اضطر إلى فعل ذلك، وتحقق بسرعة من كل واحدة منها. مثلما قال الموظف، هذه صالة عرض للثدييات الصغيرة. فقد كان هناك ابن مقرض يجلس بغرور وسط مجموعة من الأعشاب اليابسة داخل إحدى العلب، بالقرب من هرة كبيرة سمراء اللون ذات أذنين متدليتين جالسة على بقعة مسطحة من الرمل الصحراوي. وثمة غرير مخطط بالأسود والأبيض يظهر جزئياً من جحره؛ على مسافة أقدم قليلة من ثعلب ذي أذنين كبيرتين جداً جالس على بقعة من الثلج والجليد الاصطناعي. يفترض أن يبدو هذا المشهد منطقياً لشخص ما. توقف شارلوك قرب الغرير هنيهة وتأمله. جعله منظر الحيوان يعود بالذاكرة إلى فارنهام، والغرير الميت الذي استخدمه لإلهاء كلب حراسة البارون موبرتس. في ذلك الوقت، بدت له الحياة في أسوأ حالاتها. لو كان فقط يعرف...

مرّ أمام علب زجاجية تحتوي على جرذان وفئران متعددة، وهرة، وكلاب صغيرة قبل أن يصل إلى النهاية. وبدت عيونها وكأنها تتعقبه فيما هو يمرّ أمامها. وأفضى الباب الموجود في النهاية إلى ردهة أصغر حجماً مع بابين متفرعين منها. اختار أحدهما بصورة عشوائية ودخل عبره، فلاح فوقه شكل بذراعين مرفوعتين إلى الأعلى، ومسامير ضخمة متشعبة من يديه. عندها، تراجع شارلوك إلى الخلف مذعوراً وكاد يقع، ثم أدرك أن ذلك الشكل موضوع في علبة، وأن ما ظن أنه مسامير على اليدين هو في الواقع مخالب، وليس الرجل ذا اللحية الذي حاول قتله في محطة واترلو. وقف منتصباً ورفض سترته بخجل. إنه دب من نوع ما، ذو جلد بني، وخطم تمت معالجته بطريقة ما ليبدو رطباً. كان أكبر من أميوس غروي، ويعني ذلك أنه ضخم جداً. احتوت الغرفة التي انتصب فيها الدب على مجموعة من العلب الكبيرة. وبالإضافة إلى الدب، كان هناك أيل ذو قرون متشعبة مثل الأغصان، وعدد من الخزائير البرية ذات الوبر الخشن والأنياب الكبيرة المجتمعة معاً كما لو أنها عائلة، بالإضافة إلى ما بدا بقرة مغطاة بالكثير من الوبر البني الطويل؛ لدرجة أن شارلوك لم يستطع حتى رؤية عينيها.

أفضى الباب الموجود في نهاية الغرفة إلى غرفة أخرى، وبدأ شارلوك

يشعر أنه في متاهة من نوع ما. فبالإضافة إلى العلب الزجاجية المصطفة قرب الجدران، كانت هناك أيضاً علب في الوسط، وقد احتوت كل منها على طائر من نوع ما. وحسبما لاحظ شارلوك، كانت كلها طيوراً جارحة. احتوت أقرب علبة إلى شارلوك على نسر وحيد مثبت في وضعية مهيبة. وقد رُسمت على الستارة خلفه سماء زرقاء خالية من الغيوم، وجبال بعيدة.

تقدم شارلوك في الغرفة أكثر، فسمع صوت شيء ما يتحرك؛ وكأنه كشط حذاء على الأرض. بدا جلياً أنه يوجد شخص آخر معه في الغرفة، رغم أنه لم يستطع سماع أية أصوات أخرى. إنه ربما زائر وحيد. مرّ أمام علب عدّة مشتملة على بومات من أنواع متعددة. كانت البومات جامئة على أغصان حقيقية ربما، أو مصنوعة من الجصّ - لم يتأكد شارلوك من ذلك - وقد طوّقتها بمخالبها التي بدت مثل أسلحة حادة وقاتلة مغلّفة ببشرة محرشفة. وبدت تلك المخالب مصممة لتنغرز في جسم فريستها، ولترفعها إلى الأعلى وتحلّق بها بعيداً إلى أعشاشها للاحتفال هناك. وفيما تابع شارلوك سيره، ملح حركة في زاوية عينه، فاستدار بسرعة ونظر جيداً. كانت الطيور كلها تحديق إليه. ألم تكن رؤوسها متجهة صوب الباب حين دخل؟ لقد باتت الآن متجهة صوب وسط الغرفة. أم إن هذه ميزة في البومات تجعل من الصعب على أي كان معرفة الاتجاه الذي تنظر إليه؟

رفرف شيء ما عبر الجانب الآخر من الغرفة. هل هناك طائر حقيقي عالق في الغرفة؟ أهنالك عصفور دوري أو حمامة أو ما شابه؟ احتوت العلب القليلة التالية على مجموعة من الطيور الجارحة. ولمح شارلوك عدة صقور، وطيور باز، وطيور عقاب، وعدة أنواع من الطيور الأخرى التي لم يتعرف إليها.

ورغم أن الطيور كانت ميتة ومحنطة، إلا أن ثمة شيئاً غريباً بشأنها؛ أكثر من الثدييات الصغيرة أو الحيوانات الأكبر حجماً. إذ يبدو الريش ربما واقعياً أكثر من الفرو عندما تم وضع الحشوة تحته بدلاً من اللحم والعظام. أو ربما ثمة شيء ما في شكل الجماجم وقلة دهن الجسم، حيث جعلتها عملية التحنيط تبدو وكأنها على وشك أن تدير رؤوسها في أية لحظة وتنفض ريشها، أو تمدد أجنحتها لفك الانقباضات من عضلاتها. ورغم أن عيونها مصنوعة من الخرز الزجاجي، أحسّ شارلوك أنه استطاع كشف برودة فيها؛ نوع من الخطورة. نظرت الفئران إلى الزوار وكأنهم حيوانات

مفترة، أما الطيور في هذه الغرفة فقد نظرت إلى الزوار وكأنهم فرائس.
ها هو يتخيل الأشياء مجدداً، ولن يجديه ذلك نفعاً.
فكر في سره: إنها مجرد طيور محنطة، وليست حقيقية. وهي لا
تستطيع التحرك.

فجأة، سمع مجدداً حركة أخرى مفاجئة في الطرف البعيد من الغرفة؛
صوت خطوات ربما، أو ربما كان الصوت ناجماً عن احتكاك ملابس بالحافة
الخشبية لعلبة عرض. لا يهم، سوف يصادف زواراً آخرين في مرحلة ما. ثم
ذهل لدى سماعه صوتاً مدوياً وعالياً. صدم هنيهة وتساءل عن طبيعة ذلك
الصوت، ثم خطر له أن الباب في طرف الغرفة قد انغلق بقوة كبيرة، وأن
ذلك ناجم ربما عن تيار هوائي.

تحرك شارلوك حول علبة كانت تحجب عنه الرؤية. وأمامه، كانت
هناك علبة أكبر احتوت على نسر رأسه خالٍ من الريش، ومنقاره معقوف
إلى الأسفل، وجناحاه ممتدان كما لو أنه على وشك التحليق.

نظر إلى الأعلى فرأى طائراً آخر؛ إنه صقر مثلما يعتقد، لكنه ليس
محتجزاً خلف الزجاج. بل إنه جاثم على أعلى العلبة كما لو أنه حطَّ
هناك للتو. وسمع في الأجواء صوت صفير من ثلاث نغمات موسيقية.
وفيما راقب شارلوك، أدار الصقر رأسه كي يتمكن من رؤيته بوضوح،
ثم انحنى إلى الأمام كما لو أنه على وشك الانطلاق والانقضاض على
وجهه.

الفصل السابع

لفت شعاع من الضوء انتباه شارلوك. إذ تم تثبيت شيء ما برجلي الصقر؛ شفرات معدنية ناتئة مثل مخالب إضافية. وفيما ارتفع الصقر عن العلبة، لاحظ شارلوك الشظايا الخشبية اللماعة التي جرى تثبيت القطع المعدنية فيها.

فجأة، انقضّ الطائر على شارلوك مدفوعاً بخفقة واحدة من جناحيه الممددين. كانت رجلاه ممددتين بصلاية خلفه، ومخالبه المعدنية ناتئة. تراجع شارلوك إلى الخلف، لكن قدميه تشابكتا فوق أرضاً. وبدأ له وكأنه ينقلب إلى الخلف بحركة بطيئة. وشاهد الصقر وهو يقترب منه، ومخالبه تتجه صوب عينيه، واستطاع رؤية كل ريشة من الريش الذي غطى بطنه. هبّ هواء على وجهه فيما خفق الطائر بجناحيه فوقه ثم ابتعد عنه. مرّ الوقت ببطء، مما جعله يتساءل عما إذا كان قد توقف في منتصف الزمن أو علق في الهواء، لكن الصدمة المفاجئة عند ارتطام كتفيه بالأرض سحبت الأنفاس من جسمه وجعلت النجوم تدور حول رأسه.

تدحرج أرضاً، وانحشر في الزاوية حيث القاعدة الخشبية للعبة الزجاجية ملتصقة بالأرض، ثم اندفع إلى الأمام متوقفاً الإحساس بمخالب الطائر وهي تنغرز في لحم عنقه في أية ثانية، وتشنجت عضلات عنقه بشكل مؤلم. ولمح من زاوية عينه مجموعة من الريش البني فابتعد جانبياً. لكن، عندما لم يتحرك أي شيء نحوه، نظر عن كثب أكبر، ولاحظ أنه عوسق محنط ومعروض خلف الزجاج. كان قريباً منه جداً، لدرجة أنه استطاع رؤية الدرزات حول عنقه والغبار على عينيه الزجاجيتين السوداوين.

رفع رأسه بحذر ونظر إلى الأعلى، ولكنه لم يرَ أي أثر للصقر. عندها، وقف ونظر حوله، وفتشت عيناه في كل زاوية مظلمة، وفي كل معتزل معتم. ولكن، لم يرَ أي شيء مطلقاً؛ فقد اختفى الصقر. بعد قليل، سمع خفقان أجنحة في مكان بعيد، وتردد صدى الصوت بين الجدران العارية للغرفة من دون أن يتمكن من تحديد مصدره. عندها، أسند شارلوك ظهره على اللوح الزجاجي للعبة، فأحسّ بالبرودة تتسلل إلى جسده عبر سترته وقميصه.

ما هو أفضل شيء يمكنه فعله؟ يستطيع التوجه الى الأمام، ولكنه عندئذ سيتوجه إلى أرض غير مألوفة. يجدر به التراجع ربما، والعودة إلى ردهة المدخل؛ إذ يستطيع انتظار أميوس غروي هناك، أو اللحاق به إلى

قسم البرمائيات والزواحف. ودفعته هذه الفكرة إلى التفكير في أمر آخر؛ التفكير في أميوس غروي وهو يكافح لإنقاذ حياته من تمساح أو عذاء كبيرة، مثل تلك التي صادفها مع ماتي وفيرجينيا في أميركا؛ تماماً مثلما كافح شارلوك منذ قليل لإنقاذ حياته من طائر جارح في قسم الطيور المحنطة. إنها فكرة غبية بلا شك، إذ لا داعي للتفكير في أن الحيوانات المحنطة تعود إلى الحياة وتترك عليها الزجاجية، لكن التساؤلات بدأت تتسارع في عقله. ما الذي يفعله صقر حيّ في متحف؟ بل ما الذي يفعله الصقر في لندن؟ ولماذا كانت مخالبه مغطاة بشفرات معدنية حادة؟

كل تلك الأسئلة لديها إجابة واحدة. وهي أنه لا شك في أن الطائر يخص أحداً ما؛ الشخص صاحب الصفارة، وذلك الشخص يستخدم الصقر لإيذاء شارلوك أو قتله. لقد تم اللحاق بهما إلى المتحف ربما، أو ربما كان المتحف يُستخدم كقاعدة عمليات، وقد تمّ لمهما وهما يدخلانه.

وكما لو أنه إثبات لفرضيته، عاد صوت صفير قصير ليكسر الصمت السائد في المكان مجدداً؛ ثلاث صفرات، لا بد أنها إشارة إلى الصقر. وعلى الفور، سمع شارلوك خفقان الجناحين، ورفرف شيء ما في الأعلى قرب السقف، وعكست أشعة الشمس المتسللة عبر السقف الزجاجي والمرتدة عن زجاج علبة العرض ظلّه. وسرعان ما رأى شارلوك الطائر نفسه يحلّق في الهواء.

ثم ساد الصمت مجدداً.

عندها، تحرك شارلوك بأكبر قدر ممكن من الهدوء باتجاه الباب الذي دخل منه، وجال نظره في كل الاتجاهات، محاولاً معرفة الاتجاه الذي سيأتي منه الهجوم.

ملاً الغبار منخريه، وأحسّ أنه على وشك أن يعطس. عندها، قرص أرنبه أنفه بقوة، وشدّ عليها إلى أن اختفت حاجته إلى العطاس. فأخر ما يريده الآن هو لفت انتباه الصقر إليه.

نظر حوله، وأدرك أنه ليس واثقاً من مكانه. لم يتعرف إلى أنواع الطيور المعروضة في العلب، ولكنه ظنّ أنها نسور، غير أن ريشها كان أبيض بمعظمه، وهناك أطواق حول أعناقها.

لم يمرّ شارلوك أمام هذه العلب أثناء دخوله. إذًا، لا بدّ أن هناك مساراً آخر قد فوّته. هل يمضي قدماً أو يعود إلى الخلف؟

قرر المضي قدماً. وإذا كان محظوظاً، فيإمكانه العثور على مخرج آخر. أما إذا لم يكن محظوظاً، فسيعثّر عليه الصقر، أو ربما صاحب الصقر.

نظر إلى العلب حوله فيما كان يتحرك. احتوت العلبة الموجودة إلى يساره مباشرة على طائر جارح بني اللون ذي منقار حاد. تابع تقدمه ناظراً في كل الاتجاهات، لكن شيئاً ما في باطن عقله كان يحاول رفع علم الإنذار. وظن أن ما أثار انتباهه هو الشبه بين الطائر الموجود في العلبة والصقر الذي كاد يقتلع عينيه. لكن الطائر الموجود في العلبة أدار رأسه ونظر إليه، فأدرك شارلوك فوراً أنه ليس في العلبة، وأن العلبة فارغة؛ وأنه ينظر عبرها إلى الطائر الجاثم على إفريز خلفها.

فجأة، طار الصقر إلى الأعلى، ودفع نفسه بخفقان جناحيه المهيب. تسمّر في الهواء هنيهة؛ مباشرة فوق العلبة الفارغة، ثم انقضّ على شارلوك الذي رفع ذراعيه للدفاع عن نفسه، وصالب ساعديه أمام وجهه. اصطدم به الطائر، وهاجمه بجناحيه ومخالبه المعدنية التي حاولت التشبث بذراعيه، ولكنها نجحت فقط في تمزيق كمّي سترته. خفق جناحا الطائر قرب أذني شارلوك، فسمع ضربات قوية؛ تماماً مثل ضربات الملاك. ونجح أحد المخالب في تمزيق قماش سترته وقميصه، وأحسّ بخط أحمر ساخن يرسم على ذراعه اليسرى، تلاه دفق من الرطوبة التي انتشرت في القماش. في بداية الأمر، أغمض عينيه بصورة تلقائية حين ضربه الطائر، لكنه فتحهما بعد ذلك، ووجد أن رأسه على مسافة إنشات قليلة فقط من رأس الطائر. كان الطائر ينسحب إلى الخلف، ويثبت نفسه بمخالبه، ويستعد للانقضاض عليه بمنقاره الحاد؛ مباشرة على عين شارلوك اليمنى. عندها، أحسّ شارلوك بالغضب والذعر في الوقت نفسه، فلوحّ بيده اليمنى دفاعاً عن نفسه، فارتطمت براحمه بصدر الطائر وأبعدته عنه. خفق الطائر بجناحيه وابتعد، لكنه بدل أن ينكفئ عاد وتوجه نحوه مباشرة.

حمى شارلوك وجهه بإحدى ذراعيه، فيما ضرب الطائر بالذراع الأخرى. ولو أصابه، لنجح ربما في كسر جناحه، لكن حركة الطائر كانت سريعة جداً؛ إذ انحرف في الهواء متفادياً قبضة شارلوك المطبقة. راقبه شارلوك فيما كان يحلّق بعيداً؛ باتجاه ممر بين علب العرض، ومن ثم نزل صوب الأرض محرّكاً جناحيه الممددين، ليعود ويرتفع بسرعة مجدداً وهو يخفق بجناحيه لإبعاد علبة موجوة أمامه.

انحنى شارلوك إلى الأمام لبضع ثوانٍ، واضعاً يديه على ركبتيه، فيما علقت أنفاسه في حنجرتة. وأحسّ بالدم ينبض في شرايين عنقه ويخفق في صدغيه.

وفيما كان لا يزال منحنياً إلى الأمام، أحسّ بوخز خفيف في قفا

عنقه، فانتصب فجأة ونظر حوله. استطاع رؤية عدة عيون تحديق إليه، لكنها كلها عيون زجاجية. نظر إلى المساحات المظلمة قرب السقف العالي بحثاً عن دليل يشير إلى وجود الطائر، فلم يرَ أي شيء في أي مكان. لكنه استطاع رؤيته؛ بل أحسّ به.

ربما توقع الشخص الذي يملك الطائر أن ينسحب شارلوك مجدداً نحو المخرج الذي كان يتوجه إليه سابقاً. لذا، تحرك شارلوك إلى الأمام؛ في الاتجاه الذي سلكه الصقر. فعلى الأقل، قد يكون هذا الأمر ذا تأثير فجائي. وصل إلى علبة العرض الكبيرة التي اختفى وراءها الطائر. احتوت العلبة على مجموعة من الطيور الأصغر حجماً، الجائمة على أسلاك معدنية، وأجنحتها ممددة كما لو أنها تحلق في الهواء. وحين وصل إلى هناك، تفرع المكان في اتجاهين؛ إلى اليسار واليمين. فاختر شارلوك الجهة اليمنى عشوائياً، ومرّ أمام مجموعة من طيور النورس. وفي الطرف البعيد، كان ثمة منعطف إلى اليمين، فتوقف في مكانه، وجال بنظره في المكان قرب الزاوية.

وجد أمامه مساحة مفتوحة انتهت بباب خشبي كبير يفضي على الأرح إلى الغرفة التالية. وكانت هناك نوافذ تمتد من الأرض إلى السقف على جانبي الغرفة سمحت بدخول نور الشمس. وسط الغرفة، وقف رجل مغمور بالضوء المتسلل من النافذة البعيدة. كان يدير ظهره نحو الباب، فلم يستطع شارلوك رؤية قسامته، وإنما كوّن انطباعاً عاماً بأن الرجل ضخم وذو كتفين عريضتين. كان يحمل عصا في إحدى يديه لدعم وزنه، فيما يده الأخرى ممتدة لحمل وزن الصقر. بدا جلياً أن الصقر مضطرب؛ إذ كان رأسه يتمايل من جهة إلى أخرى، وبدا كما لو أنه يتحرك من رجل إلى أخرى. كان الرجل يتحدث إليه بصوت هادئ، فاسترخى الطائر تدريجياً إلى أن أصبح يقظاً، ومن دون أن يقوم بأي حركة.

أدار الرجل رأسه ونظر إلى اليسار ثم اليمين، ففعل الطائر الشيء نفسه. فسحب شارلوك رأسه بسرعة كي لا يراه أحد.

ما الذي يجدر به فعله؟

لا يستطيع الوصول إلى الباب أمامه؛ فالرجل يعترض طريقه. إذًا، عليه العودة إلى الباب الذي دخل منه.

ثم خطرت له فكرة، فخلع حذاءه ووضعها في جيبه. إذ إن جوربيه سيصدران ضجيجاً أقل على الأرضية الخشبية. تراجع إلى الخلف، ثم استدار وركض في الممر. أضع الطريق الصحيح، لكنه في متحف وليس في متاهة. وطالما أنه يسلك الاتجاه الصحيح، فلن تكون هناك مشكلة.

استدار إلى اليسار ومن ثم إلى اليمين. كانت الطيور في كل مكان، تحديق إليه بعيون باردة. ربما رآها من قبل، وربما لم يرها. كانت تختلط مع بعضها بعضاً.

علبة زجاجية فارغة! هنا رأى الصقر سابقاً، عبر الزجاج، فيما كان جاثماً على إفريز على الجدار. ظنّ أنه يعرف الطريق من هنا... فلا يزال هناك منعطفان إضافيان...

علق شيء ما بين عظمي كتفيه وأوقعه أرضاً، وانغرزت المخالب في عضلات ظهره، ومزقت قماش سترته وقميصه كما لو أنهما منديلان ورقيان. توقع في أية لحظة الإحساس بمنقار الصقر وهو ينقض على قفا عنقه، فاقشعرّ بدنه لمجرد التفكير في ذلك. تدحرج أرضاً محاولاً جعل الطائر يعلق تحته، لكن الطائر كان سريعاً جداً. فقد أفلته وقفز بضع أقدام في الرواق، ثم حلق عالياً. وترك الخفقان القوي لجناحيه بعض الريش المتناثر في الهواء.

وقف شارلوك على قدميه وهو يرتجف ويفكر في أنه لا يستطيع تحمل المزيد من هذا.

وسمع الرجل الكبير - صاحب الطائر - وهو يصفر مجدداً. وفي الطرف البعيد من الرواق، حلق الصقر فجأة إلى الأعلى، ثم توقف، وبدا وكأنه ينعطف في منتصف الهواء بحركة جناحين معقدة، ليعود بعد ذلك إلى الرواق مجدداً؛ متجهاً نحوه مثل رصاصة مكسوة بالريش. مدّ شارلوك يده اليسرى لتثبيت نفسه على العلبة الفارغة قرب، فانزاح الباب الزجاجي قليلاً تحت أصابعه. لم يكن مقفلاً. لا بد أن الشخص المسؤول عن ترتيب المعروضات ترك الباب مفتوحاً لإحضار طائر محنط والمواد اللازمة للمنظر الخلفي وراءه.

أصبح الصقر في منتصف المسافة الآن، وكان يتجه نزولاً نحو الأرض، لكن خفقان جناحيه المفرط زاد من سرعته وجعله مرتفعاً في الأعلى. كان متجهاً صوب حنجرته.

عندها، أمسك شارلوك بباب العلبة من وسطه. لا وقت لحساب التوقيت الصحيح، بل عليه فعل ذلك فطرياً.

وعندما أصبح الطائر على مسافة ست أقدام منه، حرّك شارلوك الباب الزجاجي، ففتح بالكامل واعترض طريق الصقر مباشرة. ارتطم الطائر بالزجاج، وسقط أرضاً مذهولاً، وسط سيل من الشظايا الزجاجية. وراقبه شارلوك فيما كان يهزّ رأسه ويحاول النهوض. لم يستطع رؤية أي دم، وبدا أن جناحي

الطائر لم يتعرض للأذى، لكنه لم يكن في حالة تسمح له بمتابعة الطيران. فجأة، تحول الطائر الجارح إلى طائر عاجز.

نظر شارلوك أمامه، على طول الرواق. وفي الطرف البعيد، وقف الرجل الضخم مع عصاه. كان لا يزال يبدو مثل ظل أسود بسبب الضوء خلفه، لكن شارلوك أحس بأن عيني الرجل تحدقان إلى جبينه؛ تماماً مثلما أحس سابقاً بأن عيني الصقر تحدقان إلى الجهة الخلفية من ظهره.

رفع يده بتلويحة توحى باسترخاء أكبر بكثير مما يشعر به فعلاً، ثم استدار وتوجه نحو الباب الذي دخل منه سابقاً. لم يبال باحتمال أن يكون الباب مقفلاً؛ فقد قاتل صقراً جارحاً، ويفترض بباب مقفل أن يكون أمراً سخيفاً.

بالفعل، كان الباب لا يزال مقفلاً. لكن، عندما وصل إليه، كان هناك شخص يطرق على الباب وينادي. وبعد لحظات، سُمع صوت مفتاح يبرم في القفل، ثم فتح الباب. كاد الرجل المرتدي بذلة الحارس يقع ما إن فُتح الباب.

وسأل: "ماذا يجري؟ من أقفل هذا الباب؟".

فأجابه شارلوك: "أنت أخبرني. أنت من يحمل المفتاح".

حدّقت عينا الحارس إلى ملابس شارلوك الممزقة والملطخة بالدماء، ثم سأل: "ما الذي يجري هنا؟ سمعت صوت تحطم زجاج".

كان شارلوك على وشك إخباره بكل شيء، لكنه كبح الكلمات. إذ سيبدو الأمر وكأنه لُقّق القصة لإخفاء تخريبه المتعمّد للممتلكات. فمن سيصدق أن صقراً حياً قد هاجمه؟ وبالتأكيد، سيعلق وسط دوامة من الأسئلة والالتهامات المضادة لساعات طويلة، فيما ينبغي له العثور على أميوس غروي لإخباره بما حصل معه.

قال شارلوك بملل: "فتح باب إحدى علب العرض فيما كنت أمرّ قربها، فاصطدمت بالزجاج وجرحت. من الذي يجدر بي إبلاغه بالأمر؟".

كرر الحارس: "من الذي يجدر بك إبلاغه بالأمر؟!".

"نعم. فقد تعرضت للإصابة، وربما يجدر بي مراجعة أحدهم للحصول على تعويض، أليس كذلك؟".

تراجع الحارس إلى الخلف مرتبكاً وقال: "أفترض أنه يجدر بك رؤية المدير". وبدا هادئاً أكثر مما كان عليه قبل لحظات قليلة.

"أين أستطيع العثور عليه؟".

"في مكتبه. مباشرة بين قردة الربّاح وذوات الحوافر".

"شكراً لك". وغادر شارلوك المكان بكل الوقار الذي استطاع التظاهر به.

مشى عبر مختلف صالات العرض متوجهاً صوب المدخل الرئيس، وهو يفكر في أنه يتوجب عليه إيجاد أميوس غروي وإخباره بما حصل. على افتراض طبعاً ألا يكون غروي قد وقع هو أيضاً ضحية اعتداء ما. وجد غروي في مقهى صغير يقع في الجانب الآخر من الأدرج الرئيسة. كان جالساً على كرسي حديدي مطلي باللون الأبيض، ويرتشف من كوب من الخزف الصيني الذي بدا وكأنه خاص بمنزل دمية صغيرة بين يديه الضخمتين. تم تركيب أغصان أشجار زائفة على الحائط المصنوع من الجص، وجرت تغطيتها بأوراق قماشية، فيما وزعت بينها بطريقة جميلة ببغاوات وطيور أخرى محنطة، وسطح ريشها الأخضر والأحمر والأزرق والأصفر اللامع مثل المجوهرات. كان المقهى خالياً تقريباً، باستثناء رجل يجلس بمفرده في إحدى الزوايا وهو يقرأ جريدة، وامرأتين عجوزين تثرثان قرب نافذة. وكان ثمة رجل شاب يرتدي سروالاً أسود ومعطفاً مخططاً يتحرك بين الطاولات، ويزيل فتات الخبز المتناثرة على "شراشف" الطاولات.

قال غروي بهدوء وهو يتأمل مظهر شارلوك من الأعلى إلى الأسفل: "تبدو وكأنك تستطيع تناول قطعة من الحلوى الإسفنجية. آه، وتستطيع ربما شرب كوب من الليموناضة أيضاً".

زمجر شارلوك: "ألا تريد أن تعرف بما حصل؟". وانهار على كرسي في الجانب الآخر من الطاولة.

فأجابه غروي: "أستطيع إخبارك بمعظم القصة بمجرد النظر إليك. لقد تعرضت لهجوم، ومن قبل نوع من الحيوانات مثلما أعتقد، ونجوت منه بأفضل طريقة ممكنة، لكنك تعرضت لبعض الأذى. ما كان نوع الحيوان الذي هاجمك؟". وصمت قليلاً مقطباً جبينه ثم قال: "لا، لا تقل لي! أهو طائر؟ أهو نسر؟ لا، النسر صغير جداً. أوه، إنه صقر مثلما أعتقد؛ وفقاً لحجم التمزقات في ملابسك".

"كنت في قسم الطيور الجارحة، وتعرضت لهجوم من طائر جارح".

"ليس واحداً محنطاً مثلما أفترض".

أجاب شارلوك بغضب شديد: "لا، بل كان صقراً حقيقياً".

قال غروي بطريقة ودودة: "طبعاً. كنت أمازحك فقط".

نظر شارلوك إلى مرشده عن كثب. بدت بذلة غروي البيضاء والمرتبة جداً عادة مجعدة حول طيَّتي الصدر؛ كما لو أن أحداً ما قد أمسك بها

وشدّها بقوة. وثمة زر ناقص من الكم الأيسر أيضاً. وبالإضافة إلى ذلك، شعره غير مرتب؛ كما لو أن رياحاً قوية هبّت عليه وشعثته. قال شارلوك: "لا تبدو جذاباً جداً أنت أيضاً. ماذا حصل؟".

كشّر غروي ثم أجاب: "كنت أتساءل عما إذا كنت ستلاحظ أي شيء. وجدت باباً يفضي إلى بعض المكاتب، وكنت أتتقن مما يتواجد وراء الكواليس بعد أن حضرت رواية مسبقة؛ إذ كنت سأقول إنني أبحث عن غرفة المراحيض. لكن، بدلاً من طرح أسئلة محددة عن سبب وجودي هناك، حاول أحدهم ضربي من الخلف. ولحسن الحظ، تمكنت من رؤية ظله فيما كان يحاول ضربي، فنجحت في إبعاد نفسي في اللحظة المناسبة. حصل نوع من الشجار بيننا، ارتطمت أثناءه بإطار باب. لكن، لا بدّ أن المعتدي عليّ قرر بعد اختفاء عنصر المفاجأة، أنه لن يكون من السهل التغلب عليّ، ولذلك انسحب فيما كنت أحاول استجماع قواي. وبالإضافة إلى كون المعتدي عليّ ذكراً، وضخم البنية، وبارعاً جداً في الهجوم، لا أستطيع قول الكثير عنه".

قال شارلوك: "إذاً، تعرضنا كلانا للهجوم؛ مما يعني أننا نسير على السكة الصحيحة".

"لم أكن واثقاً مما إذا كان الاعتداء عليّ مرتبطاً بتحقيقنا، أو ما إذا كان مجرد اعتداء عرضي. لكن تزامنه مع الاعتداء عليك يجعلني أفترض أننا تحت مجهر الاعتداء".

نظر شارلوك حوله: "هل تظن أننا مراقبان الآن؟".
أوماً غروي برأسه مجيباً: "لن يفاجئني ذلك". ثم جال ببصره في أرجاء الغرفة؛ نظر إلى الرجل الذي يقرأ صحيفة، وإلى المرأتين اللتين تثرثران، وإلى النادل صاحب المعطف المقلّم. "لكن ربما ليس من قبل زبائن هذا المكان الجميل. لست أكيداً من الرجل صاحب الملابس الأنيقة الذي يدوّن طلبات الزبائن".

قال شارلوك: "المشكلة هي أنني لم أجد أي شيء غريب، أو مثير للاهتمام في أية حال".

قال غروي: "قد تتفاجأ مما سأقوله، ولكن حسبما أعرفك، أميل إلى التفكير في أنك اكتشفت بعض التفاصيل الصغيرة التي قد تساعدنا".
"هل اكتشفت أنت أي شيء؟ أعني قبل تعرضك للهجوم؟".

هزّ غروي كتفه وأجاب: "نظرت حولي جيداً، بما في ذلك بعض المساحات التي لا يفترض بالعامّة الدخول إليها. لكن، عليّ الاعتراف بأنني لم

أتوصل إلى أية نتيجة. وإذا كانت ثمة أمور تجري هنا، فإنني فوتت الإشارات".

سأل شارلوك: "هل نعرف ما يكفي لإبلاغ الشرطة؟ إذ لا يمكننا التحقق من هذا المكان بمفردنا. ليس بعد أن عرف القِيمون على بارادول تشامبر بأننا هنا".

أوما غروي برأسه. "لقد تعرضنا كلانا للاعتداء، وهذا سبب كافٍ لتدخل الشرطة. وإذا كنا محظوظين، سيعثرون على شيء مُجَرَّم أثناء تفتيشهم المكان بحثاً عن المعتدين علينا". وضرب بيده على الطاولة بقوة، مما جعل كوب الشاي يهتز قليلاً على الصحن، وتابع: "قد ننال منهم!". ثم وقف على قدميه وقال: "ستفوت الحلوى الإسفنجية للأسف. فلنعد إلى مركز شرطة بو ستريت ولنقدّم شكوى رسمية".

الفصل الثامن

سأل شارلوك: "سيد غروي، ماذا حصل لأخي؟ ماذا حصل لمايكروفت؟".
ففي الصباح التالي لمغامرتهما في المتحف، جلس الاثنان إلى مائدة
الفطور في فندق ساربونييه؛ حيث مكث شارلوك في آخر زيارة له إلى
لندن. وكان غروي قد استيقظ وغادر قبل أن يستيقظ شارلوك، وعندما نزل
شارلوك لتناول الفطور، كان غروي يعاود دخول الفندق.

أجاب غروي: "الخبر الجيد أنه تم إطلاق سراحه بعد دفع كفالة".
"ما الذي يعنيه ذلك؟".

"يعني أن شخصاً ما دفع بعض المال النقدي ليتم إيداعه في المحكمة،
وهنا في هذه الحالة، نادي دياغونيز هو الذي دفع الكفالة. وتقرر المحكمة
بنفسها المبلغ الواجب إيداعه، وتتخذ هذا القرار استناداً إلى ضخامة المبلغ
الذي سيمنع المشتبه به من الفرار. وهكذا، إذا اختفى أخوك قبل
المحاكمة- في حال حصول محاكمة- فستتم مصادرة ذلك المبلغ المالي".
ضحك. "في النهاية، حتى لو استلزم الأمر دفع خمسة شلنات فقط للخروج
بناء على كفالة، فإن أي مجرم يملك القليل من المال النقدي سيكون خارج
السجن خلال نصف ساعة، ويلوذ معظمهم بالفرار".

"وكم كان المبلغ اللازم لإخراج مايكروفت بناء على كفالة؟".

"أعتقد أن المبلغ المذكور كان خمسة آلاف جنيه استرليني".

أجفل شارلوك. "أين مايكروفت الآن؟".

"إنه يتناقش مع محاميه إلى مائدة الفطور في نادي دياغونيز. أرسلت
إليه برقية أخبرته فيها أنك بأمان، وأنا نقيم هنا في فندق ساربونييه.
يستطيع الانضمام إلينا لاحقاً".

سأل شارلوك: "من أين جاء نادي دياغونيز بالمال النقدي؟".

"يبدو أن النادي يملك اعتماداً يسهم فيه الأعضاء؛ مما يتيح لهم
الحصول على مشورة ومساعدة قانونية". فجأة، أصبح تعبير وجه غروي
مكتئباً. "الغريب أنني لا أجد مديره متعاونين كثيراً. فهم يلتزمون الصمت
المطبق حيال كل القضية. أعتقد أنهم لا يريدون الإفصاح عن تدخلهم نظراً
إلى كونهم جزءاً من الحكومة، وبالتالي إنهم مرتبطون بالشرطة".

فكر شارلوك هنيهة، ثم قال: "لكن ذلك الرجل الذي وجدناه - ذلك
الذي هاجمني تحت محطة واترلو - اعترف بأن مايكروفت قد وقع في
الفخ. ثمة شخص آخر ارتكب الجريمة".

"هذه هي الحقيقة، لكن الشرطة تحتاج إلى بعض الوقت لجمع الأدلة المبرئة لأخيك. الشيء المهم هو أن محامي نادي دياغونيز يستطيع توجيه الشرطة في الاتجاه الصحيح". قطب غروي جبينه وتابع قائلاً: "ما يهمني الآن هو أن الأشخاص الذين أوقعوا السيد هولمز في الفخ لا يزالون طليقين، ولا نعرف دوافعهم أو ما قد يحاولون فعله لاحقاً".

"هل تظن أنهم قد يحاولون توريطه في جريمة أخرى؟".

هزّ غروي كتفه مجيباً: "لا أستطيع الجزم. لكن، بعد تبرئته من واحدة - على افتراض أن ذلك سيتم قريباً - من غير المستبعد أن يتم إلصاق تهمة أخرى به. ثمة مثل اعتدنا على قوله خلال الحرب بين الدول: المرة الأولى مصادفة، لكن الثانية تصرف عدو. حتى الشرطة ستدرك ذلك. لا، أعتقد أنه علينا الاستعداد لحصول أمر آخر؛ ملؤامرة أخرى".

"إذاً، ما الذي يجدر بنا فعله؟ كيف نحمي مايكروفت؟".

حدّق غروي في شارلوك هنيهة. كانت عيناه الزرقاوان باردتين بطريقة غريبة، لكن شارلوك عرف أنهما تريان عبر كل شيء. "أنت مخلص جداً لأخيك، أليس كذلك؟ فبعض الأولاد في عمرك يتركون إخوتهم الأكبر سنّاً يهتمون بحياتهم بمفردهم، ولكن ليس أنت. فأنت تريد حمايته".

استدار شارلوك كي لا يرى غروي لمعان الدموع في عينيه، وقال أخيراً: "والدي في الهند، وأمي مريضة. وأختي... حسناً، ليست في وضع يخولها مساعدة أي كان. لذا، ليس لديّ سوى مايكروفت، وأنا كل ما لديه. وعلينا الاهتمام ببعضنا بعضاً". وأجبر نفسه على الابتسام وتابع: "وربما لاحظت أنه ليس من الأشخاص النشيطين أو الرشيقين. لذا، يحتاج إلى المساعدة لمجرد الانتقال من جهة إلى أخرى في المدينة". وضحك عالياً. "سمعت ذات مرة أنه تمت دعوته لتناول الطعام في منزل أحدهم في الريف. إنه لا يقبل الدعوات الاجتماعية عادة، لكن صاحب المنزل يملك قبواً استثنائياً مليئاً بمختلف أنواع الشراب، وتشتهر الطاهية هناك بنوعية حلوياتها، ولذلك بذل جهداً خاصاً. فاستقل عربة مرتبة إلى المحطة، ومن ثم استقل القطار لمدة ساعة، ونجح بعدها في إيجاد عربة في الجهة الأخرى لتنقله مسافة خمسة أميال إلى المنزل. كان القسم الأخير من الرحلة يتطلب منه تسلق هضبة صغيرة للوصول إلى الباب الأمامي، لكنه نظر مرة واحدة إلى الهضبة، ثم استدار وطلب من الحوذي أن يعيده إلى محطة القطارات. إنه من هذا النوع من الأشخاص. فهو ذكي بشكل استثنائي، لكنه ليس عملياً البتة".

"وأنت تحبه".

"إنه أخي، طبعاً أحبه". وشعر شارلوك بالانزعاج من جراء مناقشته مشاعره الشخصية الحميمة مع غروي فنظر إليه وسأله: "هل تملك أخاً؟". فجأة، بدا وكأن وجه غروي قد تحول إلى قناع جامد، وقال: "دعنا لا نتطرق إلى هذا الموضوع". وبدا صوته شبيهاً بالصوت الذي يصدره حجران لدى احتكاكهما ببعضهما.

ساد الصمت هنيهة، فيما تابعا تناول فطورهما. وفي النهاية، نظر غروي حوله، وأشار إلى نادل شاب كان يقدم الفطور لعائلة مجاورة وقال له: "دعنا نرى كم تذكرت مما علّمتك إياه في الآونة الأخيرة. ما الذي تستطيع إخباري عنه؟".

فكر شارلوك قليلاً ثم قال: "أذكره من المرة الأخيرة التي رأيته فيها حين كنا هنا". وتأمل الرجل من الأعلى إلى الأسفل ثم تابع: "بذلته قصيرة قليلاً عليه، وتم رتق السروال مرات عدة. لا شك في أنه يرتديه منذ مدة من دون استبداله. إما لأن راتبه ضئيل، أو لأنه ينفق المال على أشياء أخرى. لكن حذاه يبدو جديداً، وملمّعاً جيداً؛ مما يناقض مظهر بذلته". ونظر شارلوك إلى وجه الرجل وشعره. "إنه يضع زيت ماكاسار للشعر". وشمّ الهواء ثم تابع مؤكداً: "نعم، أستطيع شمّ روائح الياسمين والبرتقال وجوز الهند. وزيت ماكاسار ليس زهيد الثمن. إذًا، أفترض أنه ينفق معظم راتبه على أمور تجعله جذاباً بالنسبة إلى النساء؛ مثل زيت الشعر والحذاء، ومثلما أعتقد، الملابس التي يرتديها حين لا يكون في العمل. يوحي ذلك بأنه غير متزوج". وهزّ كتفه. "هذا كل شيء".

قال غروي: "ماذا لو أخبرتك أنه تمت إدانته بالنشل ثلاث مرات، وأنه أمضى وقتاً في السجن. أخبرني البواب بذلك. وقد ساعده مدير الفندق، لأنه ابن أخته".

نظر شارلوك إلى النادل بعناية أكبر ثم قال: "إنه يمضي الكثير من الوقت قرب الأب. ربما كان يبحث عن فرصة لسرقة شيء من جيبه". وفيما راقب شارلوك، أوقع النادل سكيناً، ثم تمتم معتذراً من العائلة، وانحنى لرفع السكين.

قال شارلوك بإلحاح: "راقب! أعتقد أنه فعل ذلك عمداً. لا بد أنه سوف يمدّ يده إلى جيب سترة الوالد فيما الجميع مشغولين بالسكين!". قال غروي: "في الواقع، لم تتم إدانته بالنشل مطلقاً. كل ذلك ملفق. إنه يغني في جوقة ويسمنستر، لكنه ابن أخت المدير".

شعر شارلوك بالارتباك، وعاود النظر إلى ما يحصل قرب الطاولة

المجاورة. ما بدا قبل لحظات بمثابة نشاط مشبوه بات الآن بريئاً جداً، فيما انتصب النادل وهو يحمل السكين".
سأل: "هل هذا صحيح؟".

قال غروي: "لا. كل ذلك ملفق أيضاً. في الواقع، طعن رجلاً بالسكين أثناء شجار حصل بينهما في مقهى في العام الماضي. لكن، تم إسقاط التهمة نظراً إلى عدم توافر شهود راغبين في الإدلاء بشهادة ضده".
المشهد نفسه- المائدة، والعائلة الجالسة إليها، والنادل الواقف قربها- اتخذ الآن بعداً مختلفاً تماماً بالنسبة إلى شارلوك. إذ بدا النادل الآن وكأنه يحمل السكين بطريقة مهددة فوق عنق الوالد.

سأل بعصبية: "ليس هذا صحيحاً أيضاً، أليس كذلك؟".
اعترف غروي: "لا. في الواقع، لا أعرف أي شيء عن النادل سوى القليل الذي يمكن ملاحظته من ملابسه وشعره ويديه. لا أعرف أي شيء عن تاريخه. وفكرتي هي أننا جميعاً نرى الأمور مختلفة؛ حسب اللصائق التي نضعها على الأشياء، وتكون تلك اللصائق مرتكزة على ما نعرفه، أو ما نظن أننا نعرفه. العقل المدرب يرفض اللصائق التقليدية ويباشر في استخدام الحقائق الفعلية والمستنتجة. والعقل المدرب يستفيد أيضاً من افتراضات بقية الأشخاص بهدف توجيههم في اتجاهات محددة، وجعلهم ينجزون أشياء محددة".

كان شارلوك على وشك سؤال غروي عن الكلام المثير الذي أخبره إياه؛ عن كيفية تمكن شخص ما من التأثير في تفكير شخص آخر بمجرد استخدامه كلمات محددة، غير أنهما سمعا صوتاً مألوفاً في المطعم.
"شارلوك، سيد غروي... هل أستطيع الانضمام إليكما؟".

صرخ شارلوك: "مايكروفت!".
اجتاز أخوه المطعم وصولاً إلى الطاولة التي جلسا إليها. وبدا مرتباً وأنيقاً أكثر من أي وقت مضى- فقد كان يرتدي بذلة مكوية جيداً ومعطفاً، ويعتمر قبعة أنيقة- لكن بشرته كانت شاحبة، وعينييه مثل عيني رجل شاهد مؤخراً أموراً تمنى نسيانها.

قال غروي وهو يقف: "سيد هولمز، تفضل أرجوك. هل أطلب لك كوباً من القهوة، أو ربما بعض الشاي؟".

أجاب مايكروفت وهو يجلس على كرسي بدا غير مناسب تماماً لتحمل وزنه: "سيكون الشاي ممتازاً، والفتور رائعاً".

علق شارلوك قائلاً: "اعتقدت أنك تناولت الفتور مع محاميك".

حدّق إليه مايكروفت برزانه ثم قال: "إذا كان هناك قانون يمنع استهلاك أكثر من فطور واحد خلال الصباح، فلا شك في أنني غافل عنه. يمكنني القول إن فطوري السابق بالكاد يتطابق مع تسميته. فالخبز كان رطباً، واللحم المقدد طرياً، والبودينغ الأسود هشاً جداً. ولن أتحدث أبداً عن المرّي. غبتُ عن نادي دياغونيز ليوم واحد فقط وبدأ المكان ينهار. كل ما فعلته تلك الوجبة هو أنها جعلتني أتوق إلى فطور حقيقي، وأعتقد تماماً أنه متوافر هنا".

أشار غروي إلى النادل ليحضر فطوراً لشخص واحد وإبريق شاي. لحق مايكروفت بإشارته، وحدّق في النادل هنيهة، ثم سأل غروي: "الزوج؟".
أجاب غروي: "فنلندا".

هزّ مايكروفت رأسه وقال: "نعم، طبعاً. الوقت القصير الذي أمضيته في الإقامة الجبرية أطاح بكل مهاراتي المنطقية".
انتبه غروي إلى نظرة شارلوك، فشرح له قائلاً: "أعرف أنني قلت لك إنني لا أعرف أي شيء عنه، لكن تلك كانت كذبة أيضاً. عائلته من فنلندا، ويمكنك معرفة ذلك من قصة شعره".
احتج شارلوك: "ولمّ الكذب مجدداً؟".

أجاب غروي: "إنها حقيقة غريبة في الحياة. فحين يكشف رجل إنكليزي كذبة واحدة أو حتى كذبتين أو ثلاث كذبات لشخص آخر، يفترض ذلك الشخص فوراً أن الرجل الإنكليزي سيخبره بعدها بالحقيقة. إن لهذا علاقة ربما بالمنطق البريطاني في ما يتعلق بالإنصاف؛ مثلما أعتقد. لكن، في الحقيقة، إذا كذب رجل مرة فثمة احتمال في أن يكذب بشكل متكرر وغالباً".

حوّل مايكروفت نظره إلى شارلوك وقال: "فهمت أنك تعرضت لأمر... بغيض؛ شيء له علاقة بطائر جارح. هل أنت بخير؟".
"أنا بخير. ماذا عنك؟".

هزّ مايكروفت كتفه مجيباً: "أستطيع الآن على الأقل القول إنني رأيت كيف يعيش النصف الآخر من الناس، رغم أنني لست متحمساً للتجربة. يتوقع محامي أن يتم سحب التهمة بعد ظهر اليوم".
سأله غروي: "هل لديك أي فكرة عن سبب استهدافك أساساً؟".

أجاب مايكروفت: "ثمة عدد ضئيل من الاحتمالات. يحتمل أن شخصاً ما يثار مني لسبب معين، لكنني لا أستطيع أن أعرف من أو ماذا. وثمة احتمال أكبر؛ وهو أن شخصاً ما أراد إلهاً عن أحداث كانت على وشك

الحصول، أو عن شيء ما كان سيصل إلى مكتبي وكنت على وشك استهلال العمل بشأنه". ونظر إلى شارلوك، ثم تابع: "أنت تعي تماماً أنني أعمل في وزارة الخارجية. وتملك الحكومة العديد من الاختصاصيين في مختلف المجالات، لكنني أعتبر نفسي شخصاً متعدد الكفاءات. لذا، إن حقائق وتخمينات من كل الأنواع تصل إلى مكتبي، وأبحث عن أنماط، وعن روابط بين أشياء منفصلة ظاهرياً. وترتكز السياسة الخارجية غالباً على مثل هذه الروابط".

سأل غروي: "هل من شيء معين لفت انتباهك؟".
تمتم مايكروفت: "لا يجدر بي فعلاً مناقشة مسائل الحكومة خارج جدران قصر وايت هول. أوه، ها قد وصل فطوري".
وضع النادل الطبق أمامه ونزع عنه الغطاء المعدني، فارتسمت ابتسامة على وجه مايكروفت وهو ينظر إلى أنواع الطعام، ثم قال: "رائع. فطور مثالي تم إعداده بطريقة مثالية. تحياتي إلى الطاهي". وفيما ابتعد النادل، تابع القول: "نعم، مثلما كنت أقول، لا يجدر بي مناقشة مسائل الحكومة خارج جدران قصر وايت هول، خصوصاً مع رجل يعود انتماؤه إلى بلد آخر تماماً. لكن، نظراً إلى معرفتي طويلة الأمد بك، أعتقد أنه يمكنني الوثوق بك في الحفاظ على سرِّ يا سيد غروي". وغرز شوكته في حبة فطر والتهمها. "آه، رائعة". وأغمض عينيه ومضغ متلذذاً، ثم قال وهو يفتح عينيه مجدداً: "نعم، أين كنت؟ هناك العديد من الحوادث الدولية التي قد ترتبط بهذه المسألة في الوقت الحاضر. لكن المسألة التي أعتقد أنها الأكثر ارتباطاً بها تتعلق ببيع قطعة أرض كبيرة في بلدك مؤخراً يا سيد غروي".
رفع غروي أحد حاجبيه مستغرباً وقال: "لم أطلع على هذا الخبر تحديداً يا سيد هولمز".

"لست متفاجئاً؛ إذ لم يتصدّر الخبر عناوين العديد من الصحف. دعني أخص لك الأمر: في وقت ما من العام الماضي، تم بيع قطعة أرض كبيرة للحكومة الأمريكية مقابل سبعة ملايين ومئتي ألف دولار، وتم دفع المبلغ بالذهب. اكتشفت لاحقاً أن السعر بلغ سنتين فقط للأكر الواحد؛ الأمر الذي بدا لي بمثابة صفقة غريبة. فالأرض نفسها تقع في شمال غرب القارة الأمريكية الشمالية، ومحاطة بكندا لجهة الشرق، والدائرة القطبية لجهة الشمال، والمحيط الهادئ لجهتي الغرب والجنوب".

سأل شارلوك: "من كان يملك الأرض سابقاً؟".
"هذا سؤال مهم جداً. كانت ملكاً لروسيا التي تصل إمبراطوريتها إلى

مضيق برينغ - إنه اسم تلك المنطقة من المحيط الهادئ - رغم وجود عدد من القبائل الأصلية هناك".
"ما اسم ذلك المكان؟".

أجاب مايكروفت: "يطلق عليه الروسيون اسم أليسكا، لكن يبدو أن الحكومة الأميركية استقرت على اسم ولاية ألاسكا".

قال غروي: "إذاً، نحن أمام بيع للأرض؛ يحصل هذا في أميركا على الدوام. أملك شخصياً قطعة أرض في ألبوكويرك يديرها بعض معارفي خلال غيابي. أين المشكلة؟".

تنهد مايكروفت مجيباً: "المشكلة - مثلما تسميها - هي أن عملية البيع لم تكن قانونية تماماً".

ساد الصمت بضع لحظات، فيما استوعب الآخرون أهمية ما قاله مايكروفت للتو.

سأل شارلوك في النهاية: "كيف يمكن أن يحصل ذلك؟ لا شك في أن الحكومتين الروسية والأميركية تملكان مستشارين قانونيين يتحققون من التفاصيل في العقود قبل إبرام الصفقات؟".

"لا يتعلق الأمر بمصادقية العقد، بل بعدم دفع أي مبلغ؛ مما يجعل عملية البيع الفعلية ملتبسة قانونياً".

قال غروي بتروؤ: "السؤال هو: هل يريد شخص آخر ألاسكا؟ إذا كان الجواب لا، فالمسألة إذاً من دون أهمية عملية، ويجدر بالروسيين فقط المطالبة بهمالم".

نقل مايكروفت قطعة من البودينغ الأسود إلى قطعة من الخبز المقلي ثم وضعها في فمه. ولدقيقة تقريباً، تناول طعامه بصمت، مع ابتسامة سعيدة مرتسمة على وجهه.

قال أخيراً: "هنا تصبح الأمور حساسة وشخصية نوعاً ما. فقد امتلكت لبعض الوقت "رجلاً" في موسكو. أقول إنه رجلي لأنه على الرغم من دفع راتبه ونفقاته من قبل وزارة الخارجية، إلا أنه مرتبط بي مباشرة دون سواي".

سأل غروي: "أفترض أنك تقصد أنه موجود هناك بذريعة القيام بشيء ما لكنه في الواقع ينجز شيئاً آخر، أليس كذلك؟".

"إنه هناك بصفة صحافي، وهو في الواقع صحافي جيد، لكنه بالإضافة إلى ذلك يزودني بمعلومات عن القيصر وبلاطه". تنهد غروي ودفع طبقه بعيداً. "عند مراجعتي اتصالاتي الأخيرة هذا الصباح- أي تلك التي وردتني

فيما كنت محتجزاً في مركز شرطة بوو ستريت- وجدت اتصاليين على صلة بذلك الرجل. الاتصال الأول كان منه، ويخبرني فيه أنه يملك معلومات موثوقة بأن السفير الإسباني في بلاط القيصر إسكندر الثاني قدّم للتو عرضاً بقيمة عشرة ملايين دولار أميركي ثمناً لآلاسكا، على أن يتم دفع المبلغ- بالذهب- فور توقيع الاتفاقية. أما الاتصال الثاني فكان من أحد موظفي الدبلوماسية البريطانية في موسكو. وقد أبلغوني أن رجلي أو وكيلي قد اختفى". ورفع كوب الشاي إلى شفتيه، ثم أخفضه مجدداً. "يملك القيصر قوة شرطة سرية، إضافة إلى قوة الشرطة العادية. وتعرف تلك القوة باسم "قسم المخابرات" في المستشارية الإمبراطورية الخاصة بجلالته. ليس هذا اسماً جذاباً جداً، لكنه روسي جداً. الرجل المسؤول عن ذلك القسم هو الكونت شوفالوف. وقد التقيته في فرنسا قبل بضعة أعوام، واتفقنا جيداً. قسم المخابرات يهتم بالجرائم السياسية، وأعتقد أن رجلي وقع في فخ أحد مكاتبه وتم اختطافه ليلاً".

قال شارلوك لكسر الصمت الذي تلا ذلك: "قيصر! أهو مثل الملك أو الإمبراطور؟".

أجاب مايكروفت: "نوعاً ما". وحاول طرد الأفكار السوداء من رأسه. "لكن، لا يمكن ترجمة هذه الكلمة. إنها تشتق من الكلمة اللاتينية Caesar". وهزّ رأسه وهو يتابع الشرح: "الروسيون رسميون جداً في ما يتعلق بالألقاب وما شابه، أكثر منا نحن الإنكليز. آخر مراسلة دبلوماسية رأيتها من مكتب القيصر تبدأ، مثلما أذكر - وأغمض عينيه متذكراً - بعبارة "نحن، الإسكندر الثاني، بمشيئة الله، الإمبراطور والحاكم المطلق لكل الروسيين في موسكو وكييف وفلاديمير ونوفغورود، وقيصر قازان، وقيصر أسترخان، وقيصر بولندا، وقيصر سيبيريا، وقيصر توريك تشيرسونيوس، وقيصر جورجيا، ولورد بسكوف، والدوق الكبير لسمولنسك، وليتوانيا، وفولينيا، وبودوليا، وفلندا، وأمير إستونيا، وليفونيا، وكورلاند، وسيميغاليا، وساموغيتيا، وبيلوستوك، وكاريليا، وتفير، ويوغرا، وبيرم، وفياتكا، وبلغاريا والأراضي الأخرى؛ اللورد والدوق الكبير لنيزهني نوفغورود، حاكم شرينغوف، وريازان، وبولوتسك، وروستوف، وياروسلاف، وبييلوزيرو، وأدوروي، وأدوبوريا، وكونديا، وفيتبسك، ومستيسلاف، وكل الأراضي الشمالية؛ حاكم إيفيريا، وكارتالينيا، والأراضي الكاباردينية والأراضي الأرمينية- اللورد الوريث وحاكم الشركسيين وجبل الأمراء؛ لورد تركستان، وريث النروج، دوق شليزويغ-هولستين، ستورمارن، ديثمارستن، أولندبورغ، وما إلى ذلك وما إلى ذلك وما إلى ذلك...". فتح عينيه مجدداً وأخذ نفساً

عميقاً، ثم تابع: "كانت التحية أطول من بقية الرسالة. لذا لن تتفاجأ إن علمت أن معظم الدبلوماسيين لا يحبذون إرسالهم إلى موسكو. إذ يجدر بهم تذكر كل هذا".

أشار شارلوك: "لكنك تذكرته".

قال مايكروفت متفاجئاً: "نعم، لكنني مايكروفت هولمز".

قاطعهما غروي: "فلنتوجه إلى صلب الموضوع. ما هي النتيجة التي ستترتب على فشل بيع ألاسكا للولايات المتحدة، وحصول إسبانيا عليها في المقابل؟ ولماذا يجدر بنا أن نهتم؟".

أجاب مايكروفت ببساطة: "لأن هذا يزعزع استقرار المنطقة. كندا دولة جديدة وهشة. وتملك فرنسا أصلاً تأثيراً قوياً في منطقة كيبك، ولا تزال بريطانيا العظمى تسيطر على كولومبيا البريطانية. لذا، إذا سيطرت إسبانيا على ألاسكا، فسننقل حينها إلى قارة أخرى كل المشاكل التي حصلت هنا سابقاً في أوروبا. فكرا في الحروب التي حصلت بين فرنسا وإنكلترا وإسبانيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر. آخر ما نريده هو حصول ذلك مجدداً. هل تريد أن تعرف ما سيحصل إذا سمح لإسبانيا بالسيطرة على ألاسكا يا سيد غروي؟ حسناً، الجواب هو الحرب، الحرب التي ستمزق أميركا فيما تحاول إيجاد حليف لها!".

أوماً غروي برأسه الكبير ببطء وقال: "فهمت الأمر. اجمع عدة دول مع بعضها بهذه الطريقة، وستحصل على المشاكل. الأمر شبيه بعيش ثلاث أو أربع عائلات مع بعضها في منزل صغير؛ إذ لا بد حينها من حصول نقاشات".

قال مايكروفت: "الاستقرار يبقى لصالحنا. وعندما أقول صالحنا، فأنا أقصد صالحك وصالحي. أي صالح أميركا وبريطانيا العظمى. ومثلما يبدو، كانت بريطانيا العظمى تبيع العديد من مستعمراتها خلال العقد الماضي. وهكذا، أصبحت مستعمراتنا في كندا بلداً بحد ذاته، وأتوقع أن يتم تسليم كولومبيا البريطانية للانضمام إلى كندا في القريب العاجل. نحن نبذل ما بوسعنا لتوطيد الاستقرار في المنطقة. لذا، إن تدخل الإسبان أو الفرنسيين أو غيرهم سيقلب الموازين، وسيؤثر في المشهدين السياسي والجغرافي لمئات السنوات".

قال غروي: "كل هذا خارج نطاق اختصاصي. لست سياسياً ولا أنوي أبداً أن أصبح كذلك".

تمتم مايكروفت: "يستحسن ألا تفعل ذلك. فقد رأيتك وأنت تفاوض،

ولا تعتبر قبضات اليد عادة بمثابة أسلحة دبلوماسية".
أجاب غروي بهدوء: "أوه، لا أعرف. ألم يقل كلوزويتش إن الحرب
استمرار للعلاقات السياسية؟".

قال مايكروفت بعصبية: "نعم، لكنه كان ألمانياً".
سأل غروي: "وما الذي يعنيه كل ذلك بالنسبة إلينا؟ هل تعتقد أن
الأشخاص الذين لفقوا لك الجريمة عملاء لإسبانيا؟".

هزّ مايكروفت رأسه وأجاب: "ربما، لكن هذا مستبعد. فلماذا سيرغب
البلاط الإسباني بإخفاء حقيقة تقديمه عرضاً مقابلاً؛ إلا إذا كانت المفاوضات
في مرحلة دقيقة نسبياً. وأنا لا أعتقد أنهم يرتكبون جريمة على هذا
الأساس. لذا، ثمة احتمال بأن يكون الروسيون أنفسهم من فعل ذلك. ولكن
مجدداً، لماذا سيرغبون في إخفاء حقيقة حصول مفاوضات؟". فكر قليلاً
وربّت بأصابعه على ذقنه ثم أردف: "إلا إذا كان القيصر لا يريد أن تعلم
الحكومة الأميركية بأنه يتحدث إلى الإسبان؛ على أساس أن الكونغرس الأميركي
قد يوافق فجأة على صرف سبعة ملايين دولار ذهباً، وبالتالي سيعرقل
خطته بالحصول على المزيد من المال من فريق آخر. القصة كلها ترتبط
بكون الصفقة الأساسية غامضة أصلاً إلى أن يتم دفع المال".
تمتم غروي: "ثمة احتمال آخر".

أجاب مايكروفت: "نعم صحيح. ثمة عناصر في حكومتك يحاولون ربما
تفادي أي حديث عن الغموض المحتمل لصفقة الأرض إلى أن ينجزوا
الصفقة نهائياً، وينقلوا الذهب إلى القيصر".

هزّ غروي كتفه وقال: "لن أدافع عن حكومتي؛ فقد اتخذت العديد
من القرارات الغريبة على مرّ الأعوام".

قال شارلوك، وهو يشعر بضرورة قوله شيئاً ما: "أو ربما يكون هناك
فريق آخر".

سأل غروي: "أتعني فريقاً ثالثاً؟".
أوضح مايكروفت: "بل سيكون فريقاً رابعاً؛ بعد الروس والأميركيين
والإسبان".

قال شارلوك: "بل إنه الخامس؛ فأنتم معنيون أيضاً، وأقصد بذلك
بريطانيا العظمى".

قال غروي مبتسماً: "أفهم الآن سبب تعقيد الدبلوماسية. لكن كل
ذلك ليس على علاقة بقضيتنا، أليس كذلك؟ لقد أدركت ما يجري، وسوف
تقوم بشيء دبلوماسي. ما من احتمال بأن يحصل أي عمل آخر ضدك، أو

ضد شارلوك، أو حتى ضدي. والشخص الذي حاول توريطك في المقام الأول يجب أن يفترض أنك عدت إلى مكتبك، ورأيت التقارير وتوصلت إلى الاستنتاجات الصحيحة".

هزّ مايكروفت رأسه ببطء وأجاب: "ليس الأمر بهذه البساطة. ففي البداية، لا يميل المدبرون المسؤولون عني إلى أخذ كلامي على محمل الجد. فهم سيجرون تحقيقاتهم الخاصة؛ الأمر الذي قد يستغرق شهراً أو سنوات. وأنا خسرت مصدر معلوماتي الأساسي في روسيا". وسيطر الاكتئاب على تعابير وجهه وهو يتابع كلامه: "أدين له بمعرفة ما حصل. فإذا كان في إحدى زنانات قسم المخابرات، فقد أتمكن على الأقل من إخراجه من هناك. وإذا كان ميتاً، فأستطيع المحاولة وتقديم المجرمين للعدالة؛ أو ما يعتبر عدالة في بلاط القيصر".

سأل غروي: "أنت تملك المزيد من الأشخاص في موسكو، أليس كذلك؟ إنهم بالتأكيد يستطيعون فعل ذلك".
"لا أملك أحداً في موسكو أستطيع الوثوق به. عليّ الذهاب بنفسني إلى هناك بعد سحب التهم الموجهة ضدي".

الفصل التاسع

طغى الصمت على الطاولة لفترة، ثم سأل شارلوك مذهولاً: "هل ستذهب إلى موسكو؟ في روسيا؟".

أجاب مايكروفت: "نعم، سأفعل ذلك".

"لكنك تصاب بالدوار إذا ذهبت إلى شمال شارع أوكسفورد! ".

ابتسم مايكروفت واحدة من تلك الابتسامات التي يكون فيها المرح مجرد غطاء رقيق لألم كبير. "إن حقيقة عدم رغبتني في الذهاب إلى روسيا ليست مهمة أبداً؛ فعليّ الذهاب. راحتي الشخصية غير مهمة البتة".
اعترض شارلوك قائلاً: "لا أفهم".

أوما أميوس غروي برأسه بهدوء وقال: "أنا فهمت. كيف تتوقع من التابعين لك أن يثقوا بك، وأن يتبعوا تعليماتك إذا كانوا يظنون أنك ستتخلى عنهم فور مصادفتهم المشاكل؟".

"هذا هو الأمر بالضبط. يجب أن يعرف رجالي في أنحاء العالم كافة أنني لست فقط صديقاً في الظروف المؤاتية. فحين تهبّ العواصف - وهذا أمر حتمي - سأكون واقفاً تحت المطر معهم. مهما كان الأمر مزعجاً".
قال شارلوك: "وأنت فضولي".

"فضولي؟".

"تريد معرفة الحقيقة. تريد معرفة من حاول بالضبط توريطك في الجريمة، وحقيقة بيع تلك الأرض".

هزّ مايكروفت كتفه وقال: "أعترف أنني أملك الرغبة في كشف حقيقة الأمور. فأنا لا أحب الشك؛ لأن الأمر حينها سيكون أشبه بوجع ضرس مزعج".

في المطعم، كانت العائلة التي راقبها شارلوك سابقاً تهّم بمغادرة طاولتها، فتأملها قليلاً. كانت الأم تتأكد من أن ملابس أولادها مزررة ومرتبّة كما يجب، فيما الوالد يراقب. هل سيتوجهون للاطلاع على معالم لندن، أم سيزورون أحداً من العائلة؟ ربما توقفوا في لندن وهم في طريقهم إلى مكان آخر، وسوف يتوجهون مباشرة إلى إحدى محطات القطار الرئيسة للحاق بقطار. مهما كانت خططهم، شعر بالغيرة منهم. فهو لا يذكر مرة واحدة كانت فيها عائلته هكذا؛ عادية وطبيعية. فقد كان والده غائباً في مهام للجيش في معظم الأوقات، وأمه مستلقية في السرير، ولذلك لم يجتمعوا معاً إلى المائدة يوماً، ولم يكونوا مثل أي... عائلة.

همس قائلاً: "إذًا، لن أراك لبعض الوقت؛ تماماً مثلما لن أرى والدي".
"إلا إذا رافقتني".

للمرة الثانية خلال دقائق معدودة، خيم الصمت على شارلوك من جراء الصدمة، ثم قال أخيراً: "أنا! أذهب معك إلى روسيا!؟".
كان مايكروفت يتأمل بقايا الفطور في طبقه بتوق شديد، فتمتم لغروي: "يمكنك ربما شرح الأمر له. أعتقد أنني حينها قد أنهى طعامي بسرعة".

"لست واثقاً من أنني فهمت الأمر شخصياً". كان تعبير غروي صارماً.
"يمكنك ربما شرح المسألة لنا نحن الاثنين".

"أوه حسناً. لقد تورط شارلوك أصلاً في هذه القضية. وإذا ذهبتُ إلى روسيا، فإن أفضل طريقة لإلهائي أو لإعادتي إلى هنا أو حتى لمنعي أساساً من الذهاب إلى هناك تكمن في تهديده. فإذا تم خطفه مثلاً، أو إرسال جزء من أذنه أو إصبعه الصغيرة إليّ ضمن طرد، فسأصبح عاجزاً عن متابعة التحقيق. لذا، أريد ضمان سلامة شارلوك، ولذلك أريد اصطحابه معي".

وضع شارلوك يده على أذنه. لم يحب فكرة بترها وإرسالها إلى مايكروفت بمثابة إنذار.

قال غروي: "لست رجلاً مقاتلاً. لذا، هل أنت واثق من أنك تستطيع صدّ المهاجمين؟".

أجاب مايكروفت بانزعاج: "سأطلب المساعدة. فأنا أنوي أخذ أحد عملائي معي لتأمين الحماية لنا، وللتمويه الواقى. سوف نسافر معاً نحن الثلاثة".

سأل شارلوك وهو لا يزال يحاول استيعاب الفكرة الهائلة؛ وهي أن مايكروفت يريد منه أن يرافقه إلى روسيا. إنه لا يعرف ما هي الفكرة المرعبة أكثر؛ فهي السفر إلى روسيا أم السفر مع مايكروفت؟! "ما الذي يعنيه ذلك؟ ماذا تقصد بالتمويه الواقى؟".

"يعني ذلك أننا سنسافر متستريين بأسماء مستعارة؛ متنكرين إذا أردت. فموظف كبير في وزارة الخارجية لا يستطيع السفر إلى روسيا من دون إعلان مسبق، ومن دون إشعال بلبلة دولية. لذا، سنستخدم أسماء مستعارة؛ أسماء وهمية. كما يجب علينا أن نمتلك تواريخ وهمية. علينا أن نكون جزءاً من صورة أكبر، كي لا ينتبه إلينا أحد".

قال غروي: "وقد قررت أصلاً ما هي هذه الصورة الكبرى، أليس

كذلك؟".

"بالفعل. توصلت إلى الخطة في طريقي في العربة من نادي دياغونيز إلى هذا الفندق".

احتج شارلوك: "هل استقلت عربة؟! المسافة لا تتعدى عشر دقائق سيراً على الأقدام، أي دقيقتين في العربة!".

"بالضبط. وهذا وقت كافٍ للتفكير ببعض الأمور. فلو جئت سيراً على الأقدام، لانشغلت في تفادي بقية المشاة، والأحصنة، وكل الأمور الأخرى... حيث لن يكون لديّ مطلقاً الوقت الكافي للتفكير".

سأل غروي: "وما هي الخطة؟".

غرز مايكروفت شوكتته في قطعة من النقانق قبل أن يجيب: "قبل بضعة أسابيع، طلب مني إعطاء الإذن لفرقة مسرحية بريطانية للسفر إلى موسكو بهدف تقديم سلسلة من العروض للعائلات الروسية الميسورة؛ شكسبير، ومارلو، وبن جونسون، وهذا النوع من الأمور. أعطيتها إذني لأن زيارتها جاءت بطلب من السفارة الروسية، ولأن هذا يحسّن العلاقات الفنية بين البلدين؛ على الأقل إذا كانت العروض جيدة مثلما تحدثت عنها التقارير. وفي الأسبوع الماضي، سمعت أن الرحلة قد تلغى لأن المدير العام للفرقة عانى من أزمة قلبية وتم إدخاله إلى المستشفى، فيما عازف الكمان الرئيس في الأوركسترا جرى توقيفه بسبب الثمالة والسلوك السيئ. وخطر لي أن مهام المدير العام لن تكون عظيمة، وستركز أساساً على التأكد من وصول الجميع إلى أماكنهم، ودفع كل الفواتير في الوقت المناسب".

سأل غروي: "وعازف الكمان! كيف ستجد عازفاً؟".

أجاب مايكروفت: "أحد عملائي عازف كمان مقبول".

وبدا أنه يركز على طبقه بإمعان كبير وهو يتابع: "سوف أطلب منه مساعدتنا".

سأل شارلوك: "وماذا عني؟".

"أنت مستخدم يؤدي مهام مختلفة ويساعد في الكواليس. أعتقد أنه يوجد دوماً نقص في عدد الأشخاص العاملين في الكواليس خلال الجولات الفنية".

كانت الأفكار تتسارع في ذهن شارلوك. "لكن... لكن متى؟ كيف؟".

وضع مايكروفت قطعة النقانق في فمه ومضغها، ثم قال أخيراً: "بالنسبة إلى 'متى'، فأنا أقترح أن نغادر فور إنجاز الترتيبات مع الفرقة المسرحية. وأعتقد أنها ستكون ممتنة لأن موظفاً في وزارة الخارجية يبذل

هذا الجهد لمساعدتها في جولتها؛ وذلك عبر توفير بدائل للأشخاص الناقصين. لقد تم إنجاز ترتيبات السفر. ومثلما أذكر، كانوا ينوون السفر خلال الأيام القليلة المقبلة، وكانوا على وشك إرسال برقية إلى مضيفيهم لإبلاغهم بإلغاء الجولة. فلنأمل أنهم لم يرسلوا الرسالة بعد، وإلا فسأضطر إلى إيجاد استراتيجية أخرى. وبالنسبة إلى "كيف"، فسوف نبحر أولاً إلى فرنسا، ثم سنستقلّ القطار من هناك عبر القارة وصولاً إلى موسكو. أعتقد أن الرحلة ستستغرق أربعة إلى خمسة أيام". وأمسك بشريحة توست وياشر في دهنها بالزبدة. "سأبلغ عمي وزوجته بأننا سنسافر معاً لبضعة أسابيع. أنا واثق من أنهما سيتفهمن الأمر؛ فالسفر يوسع الآفاق. سأذهب وأجري الترتيبات اللازمة، وأقترح عليك يا شارلوك أن تذهب إلى "تشارينغ كروس رود" وتبحث عن بعض الكتب المتعلقة بالتاريخ والثقافة الروسية. إنهم مختلفون جداً عنا؛ أكثر اختلافاً من الأميركيين بالطبع". وأوماً برأسه في اتجاه غروي. ثم تابع قائلاً: "لكن، دعني أزوّدك ببعض الحقائق التي قد تساعدك. روسيا أكبر بلد في العالم. وإذا أردت قياس مساحتها على كرة جغرافية، فستجد أنها تحتل تقريباً سبع اليابسة المتوافرة، لكن معظم تلك الأراضي عبارة عن أراضٍ عشبية مجلّدة يطلقون عليها اسم التندرة. تقول تقديراتنا إن القيصر يحكم نحو خمسة وستين مليون نسمة، وهذا عدد كبير جداً، خصوصاً عندما تفكر في أن هؤلاء الأشخاص ينتمون إلى مئة وستين عرقاً أو قبيلة منفصلة، ويتحدثون بمئة وعشر لغات أو لكنة مختلفة، وينتمون إلى خمسٍ وثلاثين ديانة مختلفة. يمكن القول إن روسيا عالم بحد ذاته؛ ذاك هو المكان الذي سنذهب إليه".

بدأ شارلوك القول: "لكن... لكنني لا أتحدث الروسية". أجاب مايكروفت بنبرة مطمئنة: "ليست هذه مشكلة. فقد تم إبلاغي أن معظم أفراد العائلات الميسورة، بمن في ذلك جميع المنتمين إلى بلاط القيصر، يتحدثون الفرنسية. أنا أتحدث الفرنسية بطلاقة، وأعتقد أن لغتك الفرنسية تحسنت خلال الأشهر القليلة الماضية بعد قضائك بعض الوقت في ذلك البلد. لذا، يفترض أن نتمكن من تسيير أمورنا".

ألقي شارلوك نظرة سريعة على أميوس غروي، ثم قال: "لكن، ماذا عن السيد غروي؟ لا أعتقد أنه يتحدث الفرنسية بتاتا". تتمم مايكروفت: "نعم، وإنكليزيتها مشبوهة أيضاً". ونظر إلى شارلوك، وبدت في عينيه عاطفة لم يفهمها شارلوك على الفور، لكنه أدرك بعد لحظات قليلة أنها شفقة. "أخشى أن السيد غروي لن يتمكن من مرافقتنا.

فهذه الرحلة لك ولي ولعازف الكمان الذي أنوي توظيفه".
"لكن لماذا؟".

"مثلما قلت الآن: لا يتحدث السيد غروي الفرنسية، أو طبعاً الروسية. ولا يمتلك أية مهارات يمكن أن تستفيد منها الفرقة المسرحية. وبالإضافة إلى ذلك، إن كان سيرافقنا فسيوجب عليه أن يصطحب الجميلة فيرجينيا معه ويهتم بها، أو أن يطلب من شخص ما الاهتمام بها لبضعة أسابيع ربما. كما أنه سيلفت الأنظار في مجموعة الحشود؛ وهذه مشكلة إذا أردنا السفر متنكرين ومن دون أن يلاحظ وجودنا أحد".

قال غروي: "لا تقلق. لم أكن أتوقع المشاركة في هذه الرحلة الصغيرة. اذهب واستمتعا".

أحسّ شارلوك بانقباض في معدته. "لكنني أريدك أن تذهب معنا".
قال مايكروفت: "المشكلة في الحياة هي أنها نادراً ما تعطينا ما نريده، أو حتى ما نحتاج إليه. الحياة قاسية، ولا يمكننا حتى أن نأمل بالصمود فيها".

أجاب غروي بهدوء: "أرى أن الدروس مستمرة".
نظر إليه مايكروفت بسرعة: "يجدر بالصبي التعلم عاجلاً أم آجلاً".
أخذ غروي نفساً عميقاً، وبدأ جلياً أنه راغب في تبديل الموضوع.
"ماذا عن المتحف؟ هل سيجري أي تحقيق إضافي هناك؟".

"لقد أبلغت الشرطة بما يجدر بها فعله في هذه القضية، واستهللت أيضاً بعض التحقيقات السرية بواسطة بعض العملاء في الحكومة، لكنني أشك كثيراً في أن نكتشف أي شيء. فهم إما يستخدمون المتحف بمثابة مكان ملائم للقاء؛ وفي هذه الحالة ما عليهم إلا الخروج من الباب الأمامي وسن فقد أثرهم، أو يملكون مكتباً من نوع ما هناك. وفي هذه الحالة، سيكون قد تم إخلاؤه فور دخولك أنت وشارلوك إلى المكان. وفي كلتا الحالتين، لن يمنحنا ذلك أي تلميحات. نحن نتعامل مع مجموعة محترفة جداً".

سأل شارلوك: "ألا تظن أن المتحف كله واجهة للفريق الذي حاول الإيقاع بك؟".

"أشك في ذلك كثيراً. فالمتحف منظمة خيرية فوق الشبهات. لا، أعتقد أن الأشرار التقوا هناك، أو أن أحد الموظفين عضو في منظماتهم. سينكشف الأمر في النهاية". ووضع آخر قطعة خبز مدهونة بالزبدة في فمه، ومضغها بضع لحظات، ثم تنهد راضياً. "أشعر الآن أنني أستطيع بدء نهاري كما

يجب". وسحب ساعة من جيب معطفه وتحقق منها، ثم قال: "لا تزال هناك ساعة تقريباً حتى موعد الغداء. ويفترض بذلك أن يمنحني وقتاً كافياً لاستهلال التحضيرات لرحلتنا. شارلوك، سيد غروي، أقترح أن نلتقي في نادي دياغونيز قرابة الساعة الواحدة ظهراً". ورفع نفسه بصعوبة عن الكرسي، ثم أضاف: "أيرغب أحدكما في أن يكون لطيفاً ويوقف لي عربة؟".

وبينما كان غروي يتحدث إلى مايكروفت على الرصيف، مشى شارلوك بعيداً. كان رأسه يضجّ بالاحتمالات، وأراد أن ينفرد بنفسه لبعض الوقت كي يتمكن من فرز تلك الاحتمالات.

"أوه، شارلوك!" .

استدار مجدداً. كان مايكروفت يلوّح له بيده.

سأل حين عاد إلى حيث وقف الرجلان: "ما الأمر؟".

"قد تحتاج إلى بعض المال". وأعطاه ثلاث قطع نقدية معدنية. "إليك ثلاثة جنيهات. احرص عليها، واشتر لنفسك بعض الملابس المناسبة للطقس البارد؛ إذا وجدت شيئاً مناسباً".

مشى شارلوك بمفرده، مروراً بسيرك بيكاديلي، ومن ثم بساحة لايشستر، ووصولاً إلى آخر طريق تشارينغ كروس. كانت الشوارع مزدحمة بالأشخاص على الأرصفة، فيما الأحصنة والعربات من مختلف الأشكال والأوصاف تملأ الطرقات. إذا كان عدد السكان يبلغ بضع مئات فقط ويبدو المكان مزدحماً هكذا، فكيف سيكون بلد فيه خمسة وستون مليون شخص؟ وإذا كان هناك خمسة وستون مليون شخص في روسيا وحدها، فكم هو إذاً عدد الأشخاص في العالم أجمع؟ جعلته هذه الأرقام يصاب بالدوار!

امتلاً جانبا الشارع بالمكتبات ومتاجر الخردوات ومقرضي المال مقابل رهن، فأمضى ساعة كاملة وهو يفتش في صناديق الأغراض الموضوعة خارج المتاجر الضخمة، وعلى الرفوف وفي الخزائن الموجودة داخلها. أطلق العنان لأفكاره؛ محاولاً عدم حصرها في اتجاه معين.

صادف مجموعة من الكتب عن الإمبراطورية الروسية، فاختار الاثني الأكثر واقعية بينها واشتراهما. ووجد نفسه أيضاً مهتماً بصندوق يحتوي على مجموعة من أقفال الأبواب والمفاتيح، وقد حذره صاحب المتجر بأن البضاعة في الصندوق غير مفرزة، وما من ضمانة بأن يتطابق أي من المفاتيح مع أي من الأقفال. كان صاحب المتجر يبيعه كما هي. فتساءل شارلوك عما إذا كان امتلاكه عدة أقفال وعبثه بها في أوقات فراغه سيمكناحه من تعلم كيفية انتقاء قفل. قد تكون هذه المهارة مفيدة له في المستقبل. في الواقع،

لقد تبينت له أهميتها خلال الأشهر القليلة الماضية.
في النهاية، ترك صندوق الأقفال ومشى بعيداً؛ فبإمكانه العودة إليه لاحقاً.

تقدم أكثر في طريق تشارينغ كروس، ومرّ أمام سيرك كامبريدج، ثم ذهب إلى بداية طريق توتنهام كورت. المزيد من المتاجر، لكن الشارع أعرض بقليل هنا؛ مما أفسح المزيد من المجال لمرور الأحصنة والعربات. تحقق من الوقت في مكتب رهن قديم الطراز، وأدرك أن الوقت قد حان تقريباً ليعود أدراجه إذا أراد التواجد في نادي دياغونيز في الوقت المحدد. لفتت انتباهه علبة كمان موضوعة على رف في الجهة الخلفية للمتجر، فأنزلها بعناية، ونفخ عليها مبعداً عنها الغبار، ثم فتح الغطاء وأخذ نفساً عميقاً عندما رأى الكمان داخل العلبة. إنه كمان قديم؛ ولكنه قديم وجميل. القشرة الخشبية باللون الأحمر الداكن، وفيها تشققات على شكل شبكة عنكبوت، فيما بدت فتحات الكمان في الأعلى منزاحة قليلاً بالنسبة إليه. لكن، ثمة شيء في الآلة الموسيقية تحدث إليه؛ ناداه، فحمله في يده اليمنى ووضعه قرب عنقه وحمل وزنه براحة يده. بدا التوازن أفضل من كمان روفوس ستون الذي أمسك به وعزف عليه على متن الباخرة أس أس سكوتيا في الطريق إلى نيويورك. جعل الشكل الملتوي للكمان يرتاح على ذراعه، ثم نقر على الأوتار فملأت الأصوات المتجر مصدرة صدى طويلاً وعميقاً. كان الرنين مربعاً، لكن ثمة شيء في الصوت، بعض التعقيد، أثار حماسه. لم يكن صوتاً نقياً على الإطلاق، وإنما كان صوتاً دافئاً ومعبراً. مرر إصبعه على الحافة الممتدة بين أعلى الكمان وجانبه، فبدت مثل المخمل. قال صوت جاف من الجهة الخلفية للمتجر: "تملك عيناً ثابتة".

استدار شارلوك، ولكنه لم يتمكن من رؤية محدثه بسبب وجود رفوف تعترض الطريق، فمشى حولها، ورأى رجلاً عجوزاً وضعيفاً جداً كما لو أن رياحاً قوية عصفت به. كان جالساً وراء مكتب مليء بكومات عالية من الكتب والأغراض الأخرى. كان يعتمر قبعة سوداء، ونظر إلى شارلوك عبر نظارة جاثمة على جسر أنفه، وحالت دون وقوعها على الأرض سلسلة معدنية معلقة حول عنقه. "عفواً؟"

خرج الرجل من الزاوية المظللة التي كان يجلس فيها، وظهر تحت شعاع من نور الشمس. "هذا الكمان أحضرته معي من كراكوف قبل أعوام عدة. ربحه والدي في لعبة ورق، هل تصدق ذلك؟ سافر معنا إلى معظم

أرجاء أوروبا، وعليّ الآن بيعه كي أتمكن من شراء الطعام وخشب الموقد، لكنني في الوقت نفسه ما زلت راغباً في الاحتفاظ به".
"إنه آلة جميلة".

"إنه جميل بالفعل؛ تماماً مثل زوجتي الجميلة. وهو يصدر أصواتاً رائعة، أو هذا ما قاله لي العارفون. أنا أعزف البيانو، وأحياناً الأكورديون؛ وإما فقط حين أحتسي الكثير من الشراب".

نظر شارلوك إلى العلبة وسأل: "أتوجد قوس لهذا الكمان؟".
فقال الرجل: "سأعطيك قوساً". وفتش على سطح مكتبه محرّكاً بعض الكتب. "هناك بعض الأشخاص الذين يقولون إن القوس مهمة بقدر الآلة. لست واثقاً تماماً من ذلك؛ فالآلة الموسيقية تحفة فنية، فيما القوس مصنوعة من شعر ذيل الفرس. قد يكون نوع الحصان مهماً، لا أعرف. أوه!". وسحب قوساً من ركن مخفي وأعطى شارلوك إياها قائلاً: "هيا! جرّب!".

تذكر شارلوك الدروس التي تلقاها من روفوس ستون. لم يكن قد تمرن على العزف منذ أن عاد من أميركا؛ لأنه لا يملك آلة كمان، لكنه اشتاق إلى السلام الموسيقية المتكررة، وكيف يمكن للموسيقى البسيطة أن تهدئ عقله.

ضبط أوتار الكمان بسرعة، ثم نقر عليها بشكل متكرر، وأدار الأوتاد في طرف عنق الكمان إلى أن أصبحت النغمات صحيحة. وبعد ذلك، رفع الكمان إلى كتفه ووضع ذقنه عليه. بدا الأمر طبيعياً جداً، بدا وكأنه قدّر لذلك الكمان أن يكون في هذا المكان.

وضع القوس فوق الأوتار وعزف نغمة موسيقية واحدة كل مرة. بدت النغمات رائعة، فجرّب عزف بعض السلام الموسيقية، وتفاجأ حين تذكرت أصابعه بسرعة ما يجدر به فعله.

ثم أخفض الكمان، وذهل لدى رؤيته الدموع في عيني الرجل العجوز.
قال: "مضى زمن طويل جداً منذ أن تم العزف عليه آخر مرة. وخشيت أن تكون السنوات التي مرّت والأميال التي قطعها قد خنقت نغماته، لكن صوته جميل أكثر من أي وقت مضى؛ علماً أنه لا يمكنني قول ذلك عن زوجتي الجميلة التي تغني مثل الغراب".

سأل شارلوك: "كيف يمكن أن تعزف آلات كمان مختلفة نغمات مختلفة؟! أقصد، العربة عربة، ولا تتغير وظيفتها مهما اختلف شكلها عن سواها. إذ تملك كل العربات أربعة دواليب، وتتحرك حين يتم شدّها. غير

أن آلات الكمان تبدو كلها متشابهة نوعاً ما، لكنها لا تصدر الأصوات نفسها".

هزّ الرجل العجوز كتفه وأجاب: "إن طرحت هذا السؤال على ثلاثة عازفي كمان فستحصل على أجوبة مختلفة. فسيقول البعض إن للأمر علاقة بالخشب الذي صنع منه الكمان. وسيقولون إنه كلما كان الخشب أكثر كثافة، كان ذلك أفضل. ويقول البعض إن الخشب الذي تم سحبه خلف القوارب التي عبرت البحر الأدرياتيكي خارج مدينة البندقية يعطي صوتاً عذباً. لكن آخرين يقولون إنه لا علاقة للخشب أبداً بذلك، وإنما للأمر علاقة بالطلاء، والمكونات السرية التي يضعها صانعو آلات الكمان فيها. أعتقد شخصياً أن للأمر علاقة بالحب. فالآلة المصنوعة لمجرد كسب المال سيكون صوتها- وهزّ يده جيئةً وذهاباً بطريقة معبّرة- مقبولاً، لكن الآلة المصنوعة بدافع حب صناعة الآلات الموسيقية، سيكون صوتها جميلاً".

"هل تعرف كيف تمت صناعة هذه الآلة؟".

"لا. فقد وصلت إلى عائلتي من دون سابق إنذار. لكن هناك الكثير من الحب في صناعتها، بالإضافة طبعاً إلى نوعية الخشب والغراء والطلاء. يمكن معرفة ذلك بشكل جلي".

سأل شارلوك: "كم... كم سعره؟".

أجاب الرجل العجوز فوراً: "سبعون شلينغ. لكن، بما أنك تقدّر الآلة الموسيقية المحترمة، فسأبيعك إياها بخمسة وستين شلينغ".

قال شارلوك بعصبية: "أستطيع منحك خمسة وأربعين شلينغ". وهو يعلم تماماً أنه يملك ثلاثة باوندات وثلاثة قطع شلينغ في جيبه. مما يعني أنه يملك ثلاثة وستين شلينغ، لكنه أراد التأكد من احتفاظه ببعض المال؛ في حال حصل معه شيء غير متوقع.

أمال الرجل العجوز رأسه إلى جانب واحد وسأله: "هل ذكرت الطعام والخشب التي يجدر بي شراؤها لعائلتي؟".

"نعم. خمسة وأربعون شلينغ". كرر شارلوك بحزم.

"أنت صبي تحول قلبه إلى حجر. سبعة وخمسون، ولا فلس واحد

أقل".

قال شارلوك: "خمسون". وأدرك أنه يتنفس بسرعة.

فتنهذ الرجل العجوز وقال: "قد أترك خشب الموقد ليوم آخر، ونتناول

الليلة اللحم البارد والحساء البارد. خمسة وخمسون".

"موافق".

تصافحا برزانة، وأعاد شارلوك الكمان إلى علبته، وأعطى الرجل ثلاث قطع نقدية معدنية، كل منها بقيمة جنيه واحد. فأعاد له الرجل خمسة شلينغات، وقال له: "اهتم به، وإذا عرفت أي شيء إضافي عنه، فعد وأخبرني به. سأكون مهتماً".
"سأفعل".

فجأة، فتح باب المتجر، وظهر ظل على الأرض. كانت هناك رفوف حجبت الجهة الخلفية من المتجر عن الجهة الأمامية، ولذلك لم يستطع شارلوك ولا الرجل العجوز رؤية من دخل. لكن، قبل أن يتكلم الرجل العجوز، سمع شارلوك صوتاً يقول: "لقد جاء إلى هنا! أقسم إنه فعل!".
قال صوت آخر عميق بدا مثل الحجارة المحتكة ببعضها: "كان يجدر بك الدخول فوراً والإمساك به بدل انتظاري".
"ماذا لو كان الشخص الخطأ".
"إذاً، كانت عائلة أخرى ستحزن الليلة".

الفصل العاشر

وضع الرجل العجوز يده على كتف شارلوك وهمس قائلاً: "هناك باب في الجهة الخلفية يفضي إلى ممر. اذهب مع بركتي".

قال الصوت الأول: "ربما كان في الجهة الخلفية".

أوماً شارلوك شاكرًا الرجل بحركة سريعة، فيما تقدم الرجل العجوز نحو الرفوف قائلاً: "هل تبحثان عن كتب؟ حول الملاكمة ربما؛ بالحكم على أذانكما، أو ربما بعض القفازات لحماية براجمكما".

قال الصوت العميق والخشن: "نحن نبحث عن صبي دخل إلى هنا".

أجاب الرجل العجوز: "لا أسمح بدخول الصبية إلى المتجر. فهم يسرقون. جميعهم سارقون، جميعهم".

"لكنني رأيت واحداً يدخل...".

واختفت الأصوات بعيداً فيما تحرك شارلوك عبر مساحة التخزين المزدحمة خلف المتجر ووجد باباً يفضي إلى ممر مليء بالنفايات ويمتد بشكل متعامد مع الطريق في الجهة الأخرى. نظر إلى كلا الاتجاهين. لا يوجد أحد. فركض بأسرع ما يمكنه، وعاد إلى طريق تشارينغ رود، فيما خفق قلبه بقوة في صدره، وارتطمت علبة الكمان بساقيه فيما كان يركض. حسناً، ذلك يجيب عن سؤال واحد على الأقل. الشخص الذي حاول توريط مايكروفت لا يزال مهتماً بهم.

التزم البقاء ضمن الحشود، وانتبه دوماً إلى الأشخاص المحيطين به، وشق طريقه عبر لندن للوصول إلى فندق ساربونييه. وعندما وصل إلى هناك، كانت رثائه تحترقان نتيجة الركض بسرعة، ووجد مايكروفت يتحدث مع رجل ضخم؛ بدا ضخماً جداً بسبب المعطف الكبير الذي ارتداه. رأى شارلوك أن كتفيه عريضان جداً؛ لدرجة أنهما جعلتاها يبدو مثل نضد المائدة. أما شعره الأحمر الكثيف فلم ينته عند فروة رأسه، بل انسدل على شكل تموجات جانبية غزيرة، كما كان لديه شاربان طويلان ولحية.

قال مايكروفت مقاطعاً حديثهما: "أوه، إنه السيد كاي. إنه مدير الممثلين في فرقة كاي المسرحية. سيد كاي، هذا... مساعدي سكوت إيكيرسلي". ونظر إلى شارلوك بطريقة محدّرة، لكن شارلوك استوعب فوراً أنه يجدر به - وبمايكروفت ربما - استخدام اسم زائف.

قال شارلوك وهو يصافح يد الرجل: "سررت بلقائك سيدي". كانت يد السيد كاي مغطاة بشعيرات بنية مائلة إلى الحمرة، فشعر شارلوك بوخز

في راحة يده؛ كما لو أن هناك شعيرات أيضاً.
"وأنا أيضاً أيها الصغير. وأنا أيضاً". كان صوت السيد كايت مثل صفير عميق. "أخبرني السيد سيغرسون أنك بارع جداً في الحبال وجهاز المسرح". قال شارلوك بسرور: "نعم، سيدي". وتساءل في قرارة نفسه عما يتحدث عنه هذا الرجل. حدّق في وجه السيد كايت بتمعن، ولاحظ شيئاً غريباً فيه. لاحظ سلسلة من الجروح الصغيرة حول عينيه وأنفه ووجنتيه. كيف تعرض لتلك الجروح؟

"جيد. جيد. حسناً، تعال إلى المسرح لاحقاً للتعرف إلى فريق العمل". واستدار صوب مايكروفت؛ أو السيد سيغرسون، مثلما يجدر بشارلوك تسميته الآن. "شكراً لك مجدداً على الانضمام إلى فريقنا المتنوع، أنا واثق من أنها ستكون مغامرة جديرة بسردها للأحفاد!".

أجاب مايكروفت: "في الواقع، من المستبعد أن يكون لديّ أحفاد، لكن يجدر بي تدوين الكثير من الملاحظات في حال حصل ذلك".

غادر السيد كايت، فاستدار شارلوك نحو مايكروفت قائلاً: "السيد سيغرسون؟ ابن سيغر؟ ألم يكن بوسعك التوصل إلى اسم أفضل من هذا؟". قال مايكروفت: "كنت أرتجل مباشرة. لم أكن أحسد على الوضع الذي أنا فيه". ونظر إلى علبة الكمان تحت ذراع شارلوك وسأله: "ما هذا؟".
"إنه... كمان. في علبة".

"نعم، أرى ذلك. السؤال بلاغي. لقد تعلّمت البلاغة في دروسك اليونانية في المدرسة، أليس كذلك؟ كان الهدف من السؤال أن يطلق الشرارة في عقلك: لماذا ذهبت واشتريت كماناً في الوقت الذي يجدر بك فيه شراء ملابس دافئة مثلما طلبت منك؟".

فكّر شارلوك بسرعة ثم قال: "كان هناك رجلان يلحقان بي، فدخلت متجراً. وحين لحقا بي إلى هناك، توجّب عليّ المغادرة من الجهة الخلفية للمتجر. واشتريت الكمان على عجلة، لأن...".

قال مايكروفت: "لأنك احتجت إلى شيء ما لتغيير مظهرك، لكي تبدو مختلفاً". أدرك شارلوك من صوته أنه يشكك في روايته. "هذا تطور مقلق. فذلك يعني أنهم لا يزالون يبحثون عنك، وبالتالي عني وعن السيد غروي أيضاً. ذلك يزيد من ضرورة مغادرتنا لندن، أو بالأحرى البلاد، بأسرع ما يمكن".

ما إن تحدث مايكروفت حتى بدأ شارلوك يشعر بالانزعاج. في الواقع، لم يكذب على مايكروفت، وإنما بدّل التسلسل الذي حصلت وفقه الأحداث

كي يجعل الأمر يبدو وكأنه امتلك سبباً لشراء الكمان، وليس فقط لأنه وقع في غرام الآلة.

تابع مايكروفت قائلاً: "حسناً، أفترض أننا نستطيع حرق الكمان عند الحاجة للحصول على الدفء. كم كلّفك؟". ورفع يده. "لا، لا تقل لي. أفضل أن أبقى غافلاً عن الحقيقة. اذهب وضع ذلك... الشيء... في غرفتك، وانضمّ إليّ لتناول الغداء".

"لكنك أنهيت فطورك للتو".

"شارلوك، لو كنت أرغب في أن يتم توبيخي، لعدت إلى مقرّ سكني وتحدثت إلى صاحبة المنزل".

صعد شارلوك إلى الغرفة التي حجزها له أميوس غروي وترك كمانه الجديد على السرير. وحين خرج، لاحظ أن باب الغرفة المحاذية لغرفته - أي الغرفة التي حجزها غروي لنفسه - مفتوح. نظر إلى الداخل متوقفاً رؤية غروي، لكن كانت ثمة خادمة ترتب السرير، وقد اختفت حقيقة غروي.

"عفواً، ماذا حصل للرجل الذي كان قد استأجر هذه الغرفة؟".

أجابت الخادمة، وهي تستدير وتنحني أمامه: "لقد غادر، سيدي".

"غادر؟".

"نعم سيدي، بطريقة غير متوقعة على ما يبدو".

"أوه، شكراً".

نزل بسرعة إلى الأسفل لإخبار مايكروفت، لكن غروي كان واقفاً في ردهة الفندق حاملاً معطفه وحقيبته عند قدميه.

"أوه شارلوك، كنت أتمنى رؤيتك".

"هل ستغادر؟".

"ما من شيء لأفعله هنا. سوف يهتم بك أخوك نيابة عني. يجدر بي

العودة للاهتمام بجيني".

"لكن... " وصمت شارلوك عن الكلام، مدركاً أن غروي على حق.

"بالضبط. ولا جدوى من الإبحار عكس التيار. ما من حاجة إليّ في

هذه الرحلة. لا بأس، أنا رجل ناضج، وأستطيع تقبّل الأمر".

"أتمنى لو كان بإمكانك أن تأتي معنا".

كان وجه غروي كئيباً وهو يقول: "وأنا أيضاً. ثمة شيء غريب في كل

هذه القصة. وأعتقد أن عقل أخيك المعصوم عن الخطأ عادة تأثر نتيجة

احتجازه مثل المجرم العادي، ولأن الأمور باتت تهدد أمن العائلة. أشعر أنه

أخطأ في حساباته في مكان ما، لكنني لا أستطيع التدخل. أعتقد أن هذه الرحلة الصغيرة إلى روسيا خطأ سيرتكبه، لكنني لم أستطع إقناعه بالعدول عنها. تحدثنا عن الموضوع سابقاً، وهو مصمم على الذهاب. أعتقد أن اختفاء رجله في موسكو أزعجه أكثر مما يريد الاعتراف به". وهز رأسه. "ليس من السهل أبداً أن يخسر المرء واحداً من فريق عمله. حصل الأمر معي أكثر من مرة. ورغم ذلك، لا أفهم سبب رغبته في أخذك معه".

"بلغ تحياتي إلى فيرجينيا."
"سأفعل طبعاً". ومدّ غروي يده.

صافحه شارلوك برزانة، فاخفت أصابعه داخل قبضة غروي هائلة الحجم. "اعتن بنفسك، واعتن بمايكروفت؛ فهو لن يكون مرتاحاً في هذه الرحلة".

أسرع بواب الفندق لحمل حقيبة غروي، لكن الأخير لوّح بيده للرجل وقال: "عندما أصبح عجوزاً كثيراً وغير قادر على رفع حقيبة، فسأطلب المساعدة". ورفع الحقيبة إلى الأعلى ووضعها على كتفه، ثم قال: "تعال لزيارتنا عندما تعود، وأخبرنا بكل ما حصل".
"سأفعل".

راقب شارلوك غروي وهو يخرج من باب الفندق من دون أن ينظر إلى الخلف. وأحسّ كما لو أنه تم قطع جزء منه للتو. شعر بالضعف حين صار بمفرده.

وفي النهاية، توجه إلى المطعم حيث كان مايكروفت جالساً إلى مائدة، وهناك سمكة كاملة في طبقه. كان يقطع السمكة بعناية باستخدام الشوكة والسكين.

قال بنبرة محادثة فيما جلس شارلوك إلى المائدة وهو يبدو تعيساً: "ليتته كان من السهل تناول السمك من دون الاضطرار إلى فقدان لذة تناوله بأمر صعب كإزالة الحسك منه". ثم نظر إلى شارلوك وسأل: "هل غادر السيد غروي؟".
"نعم، لقد غادر".
"جيد".

رفع مايكروفت شريحة سمك بسكينه ونقلها بعناية إلى شوكتته وقال: "إنه لا يوافق على اصطحابي لك إلى روسيا".
"قال إنكما تناقشتما في الأمر".
"صحيح. كان عنيداً جداً ومصرّاً على رأيه. إنه يحميك ويخاف عليك

بشدة؛ مثلما تعلم".

"لقد أمضينا الكثير من الوقت معاً خلال العام الماضي."
"صحيح". ووضع مايكروفت قطعة السمك في فمه، ومضغها هنيهة
وعيناه مغمضتان، ثم قال: "مطهوه جيداً. وصلصة الزبدة السوداء رائعة.
يجدر بي تذكر هذا المكان، فهو ليس بعيداً جداً عن مكتبي، وبالتالي
أستطيع تناول غدائي هنا بشكل منتظم".
"مايكروفت، هل أنت واثق من أنه يجدر بنا السفر إلى روسيا
متسترين؟".

"فكرت في المسألة ملياً، ولا أرى أي خيار آخر". ثم تحقق من
ساعته وقال: "يفترض بالعضو الثالث في فريقنا أن ينضم إلينا خلال وقت
قصير. فقد أرسلت له برقية سابقاً". ونظر بسرعة إلى شارلوك وتابع: "ثمة
شيء يجدر بي تحذيرك بشأنه. سبق لي أن قلت إن هذا الرجل أحد
عملائي، وإنه عازف كمان".
"نعم؟".

"لكن ما لم أقله هو أنك تعرفه أصلاً".
سمع شارلوك الكلمات، لكنه لم يفهما. "أعرفه؟! لكنني لا أعرف أيّاً
من عملائك! لم ألتق أيّاً منهم مطلقاً؛ باستثناء السيد غروي، لكنني لا
أعتقد أنه واحد من عملائك".
"طبعاً لا". كان تعبير مايكروفت مثل تعبير رجل يستعد لنقل أخبار
سيئة. وقال وهو يبعد نظره عن أخيه: "شارلوك، أعتقد أنك تعرف روفوس
ستون".

ست كلمات، ست كلمات بسيطة هبطت مثل الحجارة في البئر
العميقة لعقل شارلوك، فأحسّ بالتموجات ترتدّ في عقله بعد وقت طويل
من توقف مايكروفت عن الكلام. أدار رأسه كي يرى من ينظر إليه
مايكروفت، لكن الجزء المنطقي والتحليلي في عقله عرف أصلاً. أما الجزء
الأخر- الجزء العاطفي الذي لا يزال ينتمي إلى فتى في الرابعة عشرة-
فأمل ألا يكون ذلك صحيحاً، وأن يكون الشخص الواقف خلفه شخصاً
غريباً تماماً.

لكنه لم يكن، وتهاوى أكثر فأكثر ذلك الجزء العاطفي في عقله الخاص
بابن الأربعة عشر عاماً.

كان روفوس ستون يقف خلفه؛ روفوس ستون ذو الشعر البني
الأشعث، والذقن المرقطة بالشعيرات، والسترة المخملية الخضراء. كان يضع

قرطاً ذهبياً في أذنه، وبدا منزعجاً؛ كما لو أنه أراد بشدة أن يكون في مكان آخر، في أي مكان آخر. ولا شك في أن شارلوك يريد هذا. قال مايكروفت: "اجلس، فأنت تجعل المكان يبدو غير مرتب. لا تكثرث للندل، فأنا لا أظن أنهم يستقبلون الكثير من عازفي الكمان العجبر هنا، وستفيدهم هذه التجربة".

قال ستون بعد أن جلس: "مرحباً شارلوك". فسأله شارلوك: "هل تعمل مع أخي؟ لماذا لم تخبرني يوماً؟". أجاب مايكروفت عوضاً عنه: "لأنني طلبت منه ألا يفعل. عندما قررنا أن تذهب أنت وأميوس غروي إلى أميركا قبل بضعة أشهر، خشيت أن يجد السيد غروي نفسه مهتماً في عمل جانبي، أو يكتشف فجأة أنه أحب بلده الأم كثيراً لدرجة أنه لا يستطيع العودة إلى إنكلترا. لذا، طلبت من السيد ستون الحصول على تذكرة سفر على متن الباخرة نفسها لمراقبتك. وفي نيويورك، كان يفترض به ملازمتك مثل الظل وإبقاؤك بأمان". شخر. "لكن الأمور لم تجرِ طبعاً مثلما توقعت، نظراً إلى لحاقتك بخاطفي الصغير ماثيو أرنت في قطار متجه إلى حيث لا أدري".

كرر شارلوك: "أنت تعمل مع أخي!". كانت الفكرة تقف مثل عائق في وسط عقله؛ عائق كبير جداً يصعب تسلقه.

أضاف مايكروفت: "ولا داعي للقول إن تعليمك العزف على الكمان لم يكن ضمن التعليمات الموجهة إليه".

قال ستون: "كان ذلك من اختياري، ومن دواعي سروري". سأل شارلوك: "لكن، ماذا تفعل مع مايكروفت؟".

هزّ روفوس ستون كتفه وأجاب: "أسافر في معظم الأوقات، حرّاً مثل الطائر، وفقيراً مثله. أستطيع التنقل في العديد من دول أوروبا الوسطى من دون أن يتم تعقبني أو اعتراض طريقي. فما من أحد يزعج عازف كمان مشرداً مثلي. ألتقط الشائعات، وأستمع إلى المحادثات التي تدور في المقاهي وما شابه، وأبلغ بها السيد هولمز هنا".

قال مايكروفت: "يستطيع المرء الحكم على الحالة الاقتصادية لدولة معينة بالاستناد إلى ما يقوله الفلاحون أثناء احتسائهم الشراب؛ أفضل مما يحصل عند قراءة الصحف. لقد استخدمت عدداً كبيراً من الأشخاص في كل أرجاء العالم، وتقضي مهمتهم الوحيدة سماع ما يقوله عامة الشعب، وفرز تلك المعلومات، ومن ثم إرسال تلك التي يتوقعون أنها حقيقية إليّ".

"وماذا عن الانتقال إلى فارنهام؟". كانت يدا شارلوك ترتجفان، وتوجّب

عليه إخفاؤهما معاً تحت الطاولة كي لا يراهما أحد، وأحس أنه تعرض للخيانة. "فكرة من كانت؟".

نظر ستون إلى مايكروفت. وعندما بقي شقيق شارلوك صامتاً، قال ستون: "عندما عدت إلى إنكلترا، طلب مني السيد هولمز البقاء في الريف لفترة لرؤية ما يمكن أن أتعلمه عن وضع البلاد، فاقترحت عليه أن أبدأ من هامبشاير". وصمت بطريقة غريبة قبل أن يتابع: "أردت أن أرى كيف أصبح عزفك على آلة الكمان".

قال شارلوك: "اشتريت آلة كمان". وبدا صوته ضعيفاً، حتى بالنسبة إليه. "أودّ رؤيته".

سعل مايكروفت قبل أن يقول: "سيرافقنا السيد ستون إلى روسيا. لقد سافر إلى تلك البلاد قبلاً، ونحن بالطبع نحتاج إلى عازف كمان لتكتمل الفرقة المسرحية". وصمت هنيهة، ثم تابع بصوت أكثر نعومة: "شارلوك، صدقني، لم أكن لأفعل ذلك لو لم يكن لخيرك، وما كنت لأسمح لك باكتشاف أنني فعلت ذلك لو لم يكن الأمر ضرورياً".

وقف شارلوك وقال: "لكن هذا لا يبرر ما حصل. سأخرج".

قال له مايكروفت: "تواجد في مسرح كينغ في وايتشابل عند الساعة الرابعة من بعد الظهر؛ إذ يفترض بنا أن نلتقي رفاقنا في الرحلة هناك". مشى شارلوك بعيداً من دون أن يجيب، وسمع مايكروفت خلفه يقول: "لا، اتركه. سيفهم مع مرور الوقت أن ما فعلته منطقي تماماً ويهدف إلى حمايته".

خرج شارلوك من الفندق ووصل إلى الشارع. فجأة، بدأ المطر يهطل، وأحس بالوخز البارد لقطرات المطر على وجهه، لكنه لم يبال. إذ بدا كل شيء حوله رمادياً وغير مهم وعديم الجدوى.

استدار يساراً وبدأ يمشي، غير مباليّ فعلاً بالمكان الذي يقصده. سيطر بشدة على أفكاره، من دون السماح لأي تأثير من أخيه أو روفوس ستون أو الرحلة إلى أميركا التي تبين الآن أنها مجرد كذبة كبيرة بالتسلل إليها. مشى فقط، مشى وراقب؛ مثل نوع من الآلة الحاسبة المتحركة. فقد استوعب الحقائق المحيطة به، وترك عقله يجمعها معاً. الرجل الذي يضع وشاحاً منقطاً بالأحمر حول عنقه والواقف قرب ذلك الباب مصاب بمرض، في الهند ربما، وسيموت خلال أسبوع؛ بالحكم على حالة بشرته. والساعة التي ينظر إليها الرجل في الأعلى ليست ساعته؛ لا بدّ أنه سرقها من

شخص آخر، وحصلت تلك السرقة خلال الأيام القليلة الماضية. أما المتشرد الموجود في الزاوية في العربة ذات العجلات، والذي يضع لافتة حول عنقه تزعم أن ساقيه مشلولتان، فقد مشى في الواقع أميالاً عدة في اليوم، بالحكم على التلف الحديث لحذائه. كل هذه الأمور استنتجها شارلوك من الأشياء التي لاحظها أثناء سيره؛ لكن لم يهتمه أي منها، لا شيء على الإطلاق.

أضاع أثر الوقت وهو يمشي، لكنه عندما تحقق من ساعته ووجد أنها قرابة الرابعة أدرك أنه أصبح أصلاً قرب وايتشابل. لقد وجهه عقله في الاتجاه الصحيح من دون أن يدرك ذلك.

يقع المسرح في شارع جانبي متفرع من الشارع الرئيس. واجهته من القرميد الأحمر والأعمدة البيضاء؛ وهناك أربع درجات تفضي إلى الأبواب الرئيسة. صعداها شارلوك ودخل الردهة، لكنه لم يجد أحداً هناك. كانت الستائر مغلقة في كشك بيع التذاكر، لكن شارلوك أحسّ تقريباً بجوهر الحشود التي عبرت هذا المكان بشكل منتظم سابقاً؛ آثار دخان السجائر والعطور التي امتصها الجص المزخرف في الجدران والسقف.

كانت ثمة أدراج تفضي إلى جانبي القاعة؛ إلى المقاعد الدائرية مبدئياً، لكن في الطرف البعيد ثمة بابان افترض أنهما يؤديان مباشرة إلى قاعة المغادرة. وثمة باب إلى جانب كشك بيع التذاكر يفضي ربما إلى الكواليس، حيث توجد غرف ارتداء الملابس وغرفة الانتظار والمسرح نفسه.

وقف شارلوك هنيهة متنشقاً روائح المسرح، ومصغياً إلى التنهدات والتأوهات في المبنى، ومتصفحاً بعينه الملصقات القديمة المؤطرة والمعروضة على الجدران خلف الزجاج. ثمة شيء حيّ تقريباً في هذا المكان. لقد زار سابقاً العديد من المباني التي تعتبر مساحات عامة، لكن هذا المكان هو الوحيد بينها الذي أحسّ شارلوك بأنه امتص شيئاً جيداً من الأشخاص الذين عبروا أبوابه. فقد فاحت من مدرسة دييدين للصبيان رائحة اليأس، ومن نادي دياغونيز رائحة المشاكل والعصبية، لكن مسرح كينغ بدا أشبه بمنزل لم يزره من قبل.

مشى نحو أحد الأبواب الرئيسة في قاعة المسرح وفتحه.

المساحة في الداخل أصغر مما توقعها. وثمة صفوف من المقاعد على الجانبين، وقد انحدرت بعيداً في الأمام، وكانت كلها مغطاة بالمخمل الأخضر العتيق. بدت الجهة السفلية للمقاعد الدائرية مثل سحابة داكنة. وكانت المقاعد مثبتة بأعمدة حديدية ذات أشكال فنية، ومدهونة بالبني والأحمر

والأخضر؛ مثل أشجار نحيلة مع أوراق وأزهار عليها. وثمة مقصورات مغطاة بالستائر، وملتصقة بالجدران من كلتا الجهتين، وقد احتوت على أعداد قليلة من المقاعد المنعزلة، وهي متاحة لأي شخص يملك المال لدفع كلفتها. عرف شارلوك أن ثمن التذاكر يعتمد على نوع المقاعد: فالمقاعد الأمامية المنخفضة هي الأرخص، تليها المقاعد الدائرية، فيما المقصورات المنعزلة هي الأعلى على الإطلاق؛ رغم أن كلمة "الأعلى" تبقى نسبية ربما بالنسبة إلى هذا المسرح الصغير المعزول. وكانت ثمة ممرات بين المقاعد تفضي إلى الجهة الأمامية للمسرح.

وعلى المسرح، وقفت مجموعة من الأشخاص بينهم شقيقه. كان مايكروفت متألقاً بمعطف فوقى وقبعة عالية وعصا. ولوهلة، رأى شارلوك فيه شخصاً غريباً وليس أخاً، فيما حدّق إليه. كان يمتلك سلطة طبيعية عليه، فقد شغّت منه الأهمية والقوة. وكان روفوس ستون واقفاً مباشرة خلفه. أما الرجل ذو الشعر الأحمر والشبيه بالدب الذي رآه شارلوك سابقاً- السيد كايت- فقد كان واقفاً بالقرب من مايكروفت، ولا يزال يرتدي معطفه الكبير، وإلى جانبه وقفت مجموعة من الأشخاص الذين افترض شارلوك أنهم ممثلون وموظفون في الكواليس. ارتدى الممثلون مبدئياً ملابس من عصر قديم؛ فساتين مخملية مزخرفة للنساء، وقمصاناً مخرمة وسراويل منتفخة للرجال.

قال مايكروفت: "أوه، سكوت". وصدح صوته في المسرح. "تعال وانضمّ إلينا".

شقّ شارلوك طريقه في أحد الممرات. كانت الطريق المؤدية إلى المسرح مسدودة بمساحة مسيجة افترض شارلوك أنها مخصصة للأوركسترا الصغيرة حين تكون هناك حفلات موسيقية. نظر سريعاً إلى اليسار واليمين. خمس درجات ترتفع من أرضية المقاعد المنخفضة إلى المسرح على كلا الجانبين، فاختر عشوائياً الذهاب إلى اليمين. وعندما وصل إلى المسرح، تفاجأ بأنه منحدر قليلاً. فقد كان في الجهة الأمامية منخفضاً مسافة قدم تقريباً أكثر من الجهة الخلفية، فافترض شارلوك أن هذا الانحدار في المسرح يمنح الجمهور رؤية أفضل لما يجري، ولاسيما الأشخاص الجالسين على المقاعد المنخفضة كثيراً، والذين قد يضطر بعضهم فعلياً إلى النظر إلى الأعلى لرؤية الممثلين. أما حافة المسرح فكانت مليئة بقناديل خلف أسطح عاكسة. وثمة باب أفقي في الوسط. مشى على المسرح تحت أنظار الجميع، وصولاً إلى حيث كان مايكروفت واقفاً.

قال مايكروفت بصوت عالٍ: "لقد عرّفتمكم سابقاً إلى روفوس ستون الذي سيعزف على الكمان في الفرقة. واسمحوا لي الآن بتعريفكم إلى مساعدي، السيد سكوت إيكيرسلي. فبعد الاستئذان من السيد كايت، سوف ينضم سكوت إلى الفرقة بصفته شخصاً متعدد الكفاءات". واستدار صوب شارلوك متابعاً كلامه: "سكوت، اسمح لي بأن أعرفك إلى الممثلين وفريق العمل". وأشار إلى رجل طويل ذي شعر أشقر طويل وممشط إلى الخلف، وحاجبين عريضين. كان يرتدي ملابس مسرحية. "إنه السيد توماس مالفين، البطل في الفرقة".

أوما مالفين إلى شارلوك من دون أن ينظر إليه تقريباً. تابع مايكروفت كلامه وهو يومئ باتجاه امرأة شاحبة وجميلة وذات عينين خضراوين وشعر أسود حالك، فابتسمت لشارلوك: "وهذه الآنسة تدعى أيوف ديموك. إنها تؤدي دور البطولة مقابل السيد مالفين". فابتسم لها شارلوك بدوره. لا بدّ أن أيوف أكبر منه بعشر سنوات على الأقل، لكنّ ثمة شيء في ابتسامتها وعينيها الخضراوين جعل قلبه يقفز في مكانه. أبعد عينيه عن أيوف ديموك مرغماً، ولحق بالاتجاه الذي تشير إليه يد مايكروفت الملوّحة. "السيد ويليام فورنيس والسيدة ديان لوران يؤديان دورين ثانويين مهمين داعمين للممثلين الرئيسيين".

كان ويليام فورنيس رجلاً ضخماً، ذا خصلة من الشعر الأسود المصبوغ التي تمتد من إحدى أذنيه إلى الأخرى. بدا أنفه متورماً وضخماً، وكشفت وجنتاه عن أوردة حمراء كما لو أنه يفرط في احتساء الشراب. يفترض أن تتم تغطية هذه الأوردة باستخدام مستحضرات التجميل عندما يؤدي دوره على المسرح. لكن، لا يمكن فعل الكثير لإخفاء ذلك الأنف الشبيه بالقنبيط. رفع إصبعين إلى جبينه بمثابة تحية. أما السيدة لوران فكانت امرأة رزينة، وشعرها مربوط إلى الأعلى على شكل كعكة. بدت وكأن المكان الأنسب لها هو مطبخ في منزل بدلاً من المسرح. ابتسمت لشارلوك بحنان. ولو كان أقرب إليها، لكانت قد عانقته ربما.

قال مايكروفت: "بالإضافة إلى السيد كايت الذي يظهر على المسرح غالباً مع السيد مالفين والآنسة ديموك، فضلاً عن توليه إدارة الفرقة. هؤلاء الأربعة هم الممثلون الأساسيون. أما الآخرون الذين تراهم هنا فيشاركون في مشاهد الحشود الغفيرة، ويؤدون أدواراً بسيطة حين لا ينقلون الديكور خلف الكواليس. من اليسار إلى اليمين لدينا ريديان، وجوداه، وبولي، وهنري".

أوماً شارلوك إلى الصبيان الأربعة الذين كانوا في مثل سنه تقريباً، ويقفون خلف الممثلين الرئيسيين. كان ريديان نحيلاً وداكن البشرة، وذا ذقن مستدق وحاجبين كثيفين. أما جوداه فنحيل أيضاً، ولكن شعره شاحب وناعم جداً لدرجة أنه يبدو أبيض تقريباً؛ وكأنه يطفو حول رأسه، فيما كشفت عيناه عن لون قرنقلي قليلاً. فيما كان بولي وهنري توأمين، وكلاهما يتمتعان بالصفات نفسها؛ جسم كثير العضلات، وعينين بنيتين. الفرق الوحيد بينهما هو أن بولي - افترض شالوك أنه بولي، لأنه كان الأقرب إلى مايكروفت - فقد إصبعه الصغرى في يده اليسرى في حادث تعرض له في مرحلة معينة. سعل أحدهم في الأروقة. وعندما نظر شارلوك إلى المساحة المظلمة، استطاع فقط التعرف إلى شكل رجل طويل يغطي فمه شاربان سميكان أسودا اللون. بدا وكأنه متكئ إلى الخلف تقريباً، واضعاً يديه في جيبه، وهو يحدق في الأشخاص الواقفين على المسرح، ولمعت عيناه في العتمة. قال مايكروفت: "أوه نعم، كدت أنسى. رغم أن باقي أفراد الأوركسترا سينضمون إلينا لاحقاً، إلا أن قائد الأوركسترا والموزع الموسيقي موجود هنا؛ أعرفك إلى السيد إيفيس".

قال شارلوك: "سيد إيفيس".

أجاب قائد الأوركسترا: "سيد... إكيرسلي".

كان صوته جافاً وهو يقول: "أنا واثق من أنه يسرني لقاؤك".

"سيد كايت، أيها السيدات والسادة". تكلم مايكروفت - أو بالأحرى سيد سيغرسون، مثلما يفترض به أن يناديه منذ الآن فصاعداً - "شكراً لكم على قبولنا في فرقكم، ومنحنا ثققتكم، وأتمنى أن نصبح في قلوبكم. لقد اطلع السيد كايت على مؤهلاتي، ويعرف أنه يمكن الوثوق بي لخدمتكم بمسؤولية؛ تماماً مثلما فعلت مع فرق مسرحية أخرى في الماضي. أتعهد أمامكم بأداء دور المدير العام بأفضل ما يمكنني، وجعل الفرقة تتطور وتتقدم باستمرار. ولذلك، إن أول مهمة عمل لي تقضي بأن تتم الرحلة المقبلة إلى موسكو من دون أي حادث. هدفي هو ضمان إنجاز كل الشؤون العملية بيسر وسهولة كي تتمكنوا من التركيز على مشاريعكم الفنية. ثقوا بي، ولن أخذلكم".

دوى التصفيق بعد هذه الكلمات، وتمتم السيد كايت: "أقترح أن نعود إلى التمارين. لديكم خمس دقائق، وبعدها أريد أن يكون الجميع على المسرح. تذكروا أننا سوف نغادر إلى موسكو بعد ثلاثة أيام!".

الفصل الحادي عشر

مرّ الأسبوع التالي مثل حلم مزعج. فبعد أيام قليلة أمضاها شارلوك في لندن، واعتاد خلالها على الفرقة المسرحية، وتولى أثناءها مايكروفت الاهتمام بالتفاصيل النهائية لسفرهم، ركب شارلوك القطار من محطة تشارينغ كروس مع بقية أعضاء الفرقة. لو كانت المحطة في واترلو لشعر بتوتر أكبر؛ متذكراً المطاردة في الأنفاق تحتها، لكن محطة تشارينغ كروس أصغر مساحة، ولا تحمل له ذكريات سيئة. نقلهم القطار عبر الريف الإنكليزي المألوف وصولاً إلى دوفر؛ حيث تم نقلهم إلى قارب أخذهم عبر القناة الإنكليزية إلى فرنسا. وفي دونكيرك، ركبوا قطاراً آخر. وبعد ثلاثة أيام أصبحوا في موسكو. ثلاثة أيام عبروا خلالها أوروبا! أمر لا يصدق!

كانت التجهيزات بسيطة مبدئياً. فالمقاعد بالكاد مبطنه، ولا توجد أسرة. نام أعضاء الفرقة حيث جلسوا، ومددوا أجسامهم على المقاعد حيث استطاعوا.

الموسيقيون الذين لم يتعرف إليهم شارلوك جلسوا معاً، وناموا أو عزفوا طوال الوقت مقطوعات موسيقية أمام طاولات صغيرة قابلة للطي. وحدهما مايكروفت والسيد كايت امتلكا سريرين منفصلين؛ نظراً إلى كونهما على التوالي المدير العام ومدير الممثلين في فرقة كايت المسرحية. لذا، أمضيا معظم وقتهما بمفردهما.

أمضى شارلوك معظم وقته ملتصقاً بالنافذة، ومراقباً المشاهد الطبيعية التي تمر أمامه. بلاد ومدن وبلدات قرأ أسماءها فقط في كتب الأطلس أصبحت فجأة حية أمامه؛ بلاد مثل بلجيكا وبروسيا، وبلدات ومدن مثل بروكسيل وكولن وبرلين ووارسو ومينسك...

كان يحدّق عبر النافذة، ويراقب مساحات أشجار الشوح الممتدة أمامه عندما جلست السيدة لوران قربه.

قالت: "تبدو وحيداً، لذا فكرت في أنك قد ترغب في التحدث قليلاً".

"أنا بخير. ولكنني... مذهول فقط من كيفية تبدل بعض الأمور حين نسافر - مثل اللغات والطعام - فيما تبقى أشياء أخرى - مثل النباتات والحيوانات - هي نفسها تقريباً. فهناك دوماً طيور وهررة على سبيل المثال".

أشارت: "والنقانق. فلا أعتقد أنه يوجد بلد في العالم لا يعرف النقانق". ونظرت إليه بطريقة متعاطفة لبعض الوقت، ثم قالت أخيراً: "يبدو

أن مرشدك السيد سيغرسون لا يملك الكثير من الوقت لك في هذه الرحلة".

أجاب شارلوك: "إنه مشغول". وقد أحس أنه يجدر به الدفاع عن مايكروفت.

"لكنني أعتقد أنه نظراً إلى كونك تحت حمايته، يجدر به الاهتمام بك، وعدم تركك بمفردك". وأمالت رأسها إلى جانب واحد وتابعت: "فهو لا يبدو مهتماً براحتك كثيراً".

"لديه الكثير من الأمور للتفكير بشأنها". أحس شارلوك بالتوتر، وحاول تبديل الموضوع. "هل تمثلين منذ وقت طويل؟".

نظرت إلى مكان أبعد منه؛ إلى خارج النافذة، وتمتمت: "أوه، أشعر أحياناً وكأنني مثلت طوال حياتي".

تبدل المشهد الطبيعي فيما كانوا يتحركون أكثر فأكثر صوب الغرب. المساحة الصغيرة التي رآها شارلوك من فرنسا، والمساحات الكبيرة التي اجتازوها من بلجيكا، كانت عبارة عن مزيج من الغابات الخضراء الداكنة والحقول الخضراء الفاتحة. لكن، عندما عبروا بروسيا ودخلوا روسيا، أصبحت المناظر غنية بالمياه أكثر فأكثر، وانخفضت الحرارة بشدة إلى أن أصبحت البرك الصغيرة متجمدة، وظهر الثلج على الأرض. بدا الناس أقصر قامة وأكثر دكنة، أو إن الغيوم المنخفضة والمخيّمة دوماً فوق الأرض أثرت في منطقه. في مرحلة ما، مشى شارلوك في رواق القطار للاطلاع على حال مايكروفت. كان أخوه جالساً في حجرته متكئاً على الوسادات، وبدا جلياً أنه ليس على ما يرام. كان محاطاً بكتب مفتوحة، ويدون الملاحظات في دفتر صغير. نظر إلى الأعلى حين طرق شارلوك على الباب وفتحه. "نعم؟".

"أردت التأكد من أنك على ما يرام".

"لا، لست على ما يرام. فالصوت القوي الصادر عن هذا القطار يزعج جهازي الهضمي. أحاول إلهاء نفسي بالكتب، لكن فائدتها محدودة". "هل من شيء أستطيع فعله لك؟".

صرخ مايكروفت: "اتركني فقط أعاني بسلام. فأنا لا أشعر بالرغبة في التحدث في الوقت الحاضر".

تراجع شارلوك إلى الخلف وأغلق الباب. ووقف بضع لحظات خارج حجرة أخيه غير واثق مما يجدر به فعله. فهو لا يذكر أنه شعر يوماً بهذه الوحدة وقلة الفائدة منذ أن دخل منزل عمه وزوجة عمه في

فارنهام.

استدار للسير بعيداً، لكن شيئاً ما أثار انتباهه. كان مباشرة خارج باب حجرة السيد كايث، ممدداً قرب إطار الباب. إنه شيء بني صغير بحجم إبهامه وشكله تقريباً، مع حبل أو خيط رفيع مربوط به. انحنى لالتقاطه. وما إن أطبقت أصابعه وإبهامه عليه، وانسحق قليلاً بفعل الضغط الذي مارسه عليه حتى أدرك مصدوماً أنه فأرة؛ فأرة ميتة. والشيء الذي اعتقده خيطاً متديلاً كان ذنبها.

فأرة ميتة. افترض أن القطارات تحتوي على فئران؛ تماماً مثل المنازل. نظر حوله بحثاً عن مكان لوضعها فيه، لكن باب حجرة السيد كايث فتح قليلاً، ونظر الرجل الضخم صاحب اللحية الحمراء إلى شارلوك عبر فتحة الباب وسأله: "نعم؟ ما الأمر؟".

فأجاب شارلوك: "لا شيء. كنت فقط... أزور السيد سيغرسون". ووضع الفأرة الميتة في جيبه. ولسبب لم يدركه تماماً، لم يشأ إبلاغ السيد كايث بالأمر.

قال كايث: "إذا كنت تشعر بالضجر، فاذهب وتحدث إلى الصبية. عليك أن تعمل معهم لتحضير الستائر الخلفية ولوازم الديكور. اذهب وتعرّف إليهم".

ثم أغلق الباب في وجه شارلوك.

في الواقع، بعد ثلاثة أيام أمضاها في لندن وهو يتعلم كيفية رفع الستائر الخلفية وتحريك لوازم الديكور على المسرح، بات شارلوك يعرف جيداً الأعضاء الأربعة الأصغر سناً في الفرقة. وللمساعدة على مرور الوقت في القطار بسرعة، استسلم شارلوك أخيراً لطلباتهم بالانضمام إليهم في لعبة الورق. وفي غضون يوم واحد، علّموه قواعد "الشدة" والزد... وبفضل عقله الموجه حسابياً - من دون أن ننسى طبعاً الذاكرة الهائلة التي بدت إرثاً عائلياً في عائلة هولمز - تعلّم شارلوك سريعاً قواعد الألعاب.

أصبح شارلوك مفتوناً بطريقة تعاطي التوأمن مع الورق. فقد كانا يمسان مجموعة من الورق مثل خبيرين، ويخلطان الأوراق ويقلبانها بسهولة ودقة. وفي النهاية، سألهما طبعاً عن كيفية فعلهما ذلك، فعلماه مختلف أنواع الخلط: الخلط نصف الدائري، والهندي، والمتموج، والخلط على الطاولة، والخلط باليد. فالمسألة - مثلما أخبراه - تتطلب مهارة وتمرّن. هذا ما قاله روفوس ستون أيضاً بشأن العزف على الكمان. لذا، بعدما انتهت الألعاب، استعار علبة الورق، وأمضى الساعات القليلة التالية وهو يحاول خلط

الأوراق مراراً وتكراراً؛ لتعلم مختلف التقنيات. وبفضل أصابعه النحيلة وإصراره الكبير، تعلم التقنيات سريعاً. وفي بقية الألعاب، صار يخلط الأوراق ببراعة فائقة؛ تماماً مثل هنري وبولي.

وفي اليوم الثالث، فقد التحديق إلى خارج النافذة بريقه، ووجد شارلوك نفسه مهتماً أكثر فأكثر بمشاهدة الممثلين والممثلات: السيد مالفين، والسيد فورنيس، والآنسة ديموك والسيدة لوران. وحاول استعمال المهارات التي علمه إياها أميوس غروي لمعرفة شيء عن تاريخ كل منهم وشخصياتهم، لكنه وجد نفسه مرتبكاً. فكلما اعتقد أنه توصل إلى استنتاج معين بشأن أحدهم، كان يحصل شيء ما ويبدل رأيه. لهذا الأمر علاقة ربما بمهاراتهم في التمثيل؛ فما يراه ربما كان شخصيات مختلفة تبرز لديهم من دون علمهم.

في مرحلة ما، فيما كان القطار يجتاز مساحات ممتدة ومليئة بالمستنقعات، لاحظ شارلوك أن السيد فورنيس- الممثل البدين والكبير في السن، ذو البشرة الممتلئة بالأوردة والأنف الشبيهة بالقنبيط- يضع صندوقاً في حضنه ويفتش في محتوياته. بدا وكأنه توجد في الصندوق أوعية من مختلف الأنواع. وحين انتبه إلى مراقبة شارلوك له، أشار إليه ليأتي صوبه. قال: "إنها مستحضرات التجميل الخاصة بالظهور على المسرح. لا شك في أنك رأيت مثلها من قبل!". وفاحت منه رائحة الشراب.

اعترف شارلوك: "ليس عن كتب. فأنا أعمل عادة في الكواليس". قال فورنيس: "هذه العلبة موجودة معي منذ أعوام. فأنا أملك أنواعاً من طلاء الوجه مصنوعة من شمع العسل، ودهن الغنم الذي أضيف إليه الزنك، أو الرصاص، أو الفحم الأسود، أو الدود القرمزي، أو الصبغ الكحلي، أو أكسيد الرصاص، أو الصبغ الأزرق البروسي لمنحها ألوانها. وهناك أيضاً الأشياء الأخرى: كالفلين المحروق والفحم الأسود للجفنين والأهداب، والورق المحروق لإعداد الظلال، والعلكة لتثبيت الشعر المستعار، أو شعر اللحي لإعداد الشاربين واللحي. استخدمها بشكل صحيح ويمكنك حينها تغيير شكل وجهك بالكامل؛ على الأقل عند النظر إليك من بعيد.

وبعدما لاحظ الدهشة الكبيرة على وجه شارلوك، تابع قائلاً: "إذا وضعت لوناً فاتحاً على العظام الناتئة في الوجه؛ مثل الأنف وعظمتي الوجنتين، فستصبح قسمات وجهك ضخمة. وإذا وضعت ظلالاً داكنة في المساحات المجوّفة، فإن ذلك سيضيف إليها العمق. وعند تغيير لون المساحات الفاتحة والمظلمة، يمكنك الحصول على فكين مترهلين، أو تجاعيد

في الجبين، أو جيوب منتفخة تحت العينين، أو أوردة بارزة. وعندما يخفق كل ذلك...". وأخرج ورقة قصدير معدنية من العلبة وتابع: "استعمل معجون الأنف!".

سأل شارلوك وهو غير مصدق: "معجون الأنف!؟".
"إنه يغير شكل الأنف والذقن وأي شيء لا يتحرك كثيراً. معجون الأنف لا ينثني، وإذا وضعته على وجنتيك فسيتشقق. لكنك لن تصدق كيف يمكن لشكل مختلف للأنف والذقن أن يحدث تبديلاً في مظهرك. حينها لن يتعرف إليك أحد؛ حتى أفضل صديق لك!".
في النهاية، بعدما أضع شارلوك مسار الساعات والأيام، وأصبحت الرحلة عبارة عن متاهة من دون وقت، توقف القطار في محطة كورسك في موسكو.

كان ثمة رجل طويل يرتدي معطفاً أسود واسعاً في الأسفل، ومعطفاً فوقياً مزيناً بحواف من الفرو الأسود، ويعتمر قبعة سوداء، يقف في الجهة الأخرى من حاجز التذاكر. كانت لديه لحية صغيرة مشذبة وشاربان. وكانت بشرته شاحبة مثل البورسلين. وبدا وكأنه ينتظر أحداً ما، وما إن لمح الفرقة حتى ابتسم ورفع يده.

كان السيد كايث أول من اجتاز الحاجز. فمدّ يده لمصافحة ذلك الرجل، لكن الرجل تقدم إلى الأمام وعانقه بحرارة. أما مايكروفت الذي كان مباشرة خلف السيد كايث فقد تراجع إلى الخلف بسرعة.

تحدث الرجل ذو اللحية إلى السيد كايث ومايكروفت بضع لحظات، ثم استدار نحو بقية الفرقة، وقال باللغة الفرنسية: "اسمي مورودوف. بيوتر إيليتش مورودوف. ومن دواعي سروري وواجبي أن أمثّل الأمير يوسوبوف الذي يرعى زيارتكم إلى وطننا الحبيب. اطمئنوا من فضلكم إلى أنه تم التحقق من كل التفاصيل للتأكد من أن زيارتكم ستكون ممتعة فنياً وإنتاجياً على حد سواء. والآن، اتبعوني من فضلكم. سأصطحبكم إلى فندق سلافيانسكي بازار، حيث حجزت لكم غرفاً".

وفرقع بأصابعه فجاء حمّالون يرتدون بذلات خضراء فضفاضة ومدروزة بغير براعة، وحملوا مختلف الحقائب والأكياس التي أحضرها أعضاء الفرقة معهم، وشقّوا طريقهم إلى الخارج، إلى حيث كانت عربات عدة تصطف في انتظار أفراد الفرقة.

كان الطقس بارداً والأرض مكسوة بالثلج. لكن، بدلاً من الطحالب البنية التي تنمو في إنكلترا عندما يتساقط الثلج وتختلط مع الوحل

والأعشاب الميئة تحت عجلات العربات، كان الثلج في روسيا أبيض وكثيفاً. وقد انسحق تحت أقدامهم وهم يغادرون المحطة إلى حيث تقف العربات الثلاث التي ستنقلهم إلى فندقهم.

حدّق شارلوك مذهولاً في مختلف وسائل النقل التي ملأت الشارع خارج المحطة، وكذلك فعل جميع أفراد الفرقة. كان معتاداً على العربات الزراعية المسطحة في فارنهام، وعربات الأحصنة، وعربات البروهام في لندن، لكن العربات في هذا البلد مختلفة تماماً. إنها تشبه المعدات الرياضية التي استخدمها في مدرسة دييدن للصبيان أكثر مما تشبه أي شيء يمكن أن يرغب الشخص في ركوبه. فهي عبارة عن ألواح خشبية طويلة وضيقة يجلس عليها الراكب منفرج الساقين، كما لو أنه يمتطي حصاناً بدلاً من أن يجره الحصان، مع جانبيين منحدرين إلى الخارج باتجاه مسندين للأقدام، فيما ذلك الشيء كله مثبت على أربعة دواليب، وهناك سائق يجلس في مقدمة صف الركاب. بدت هذه العربات غير مريحة للرجال، وبالتأكيد غير مناسبة للنساء في فساتينهن.

راقب أفراد المجموعة الحمالين وهم ينقلون أكياسهم وحقائبهم إلى الجهة الخلفية للعربات قبل أن يصعدوا على متنها. كانت الرحلة في شوارع موسكو قصيرة، لكن شارلوك بدا مذهولاً بضخامة المباني وقدمها. وبدا له وكأن كل الأشياء مشيدة بأحجام أكبر مما هي عليه في إنكلترا؛ أحجام جعلت السكان المحليين الذين كانوا يركضون في ظلال المباني محدّبين أجسامهم من شدة البرد، يبدوون وكأنهم فئران تركض على ألواح خشبية. والألوان! كان معتاداً على أن تكون المباني بلون الحجر، أو القرميد، أو الخشب الذي جرى تشييدها منه، لكنّ هنا في موسكو بدت كل المباني مطلية. بعضها باللون الوردي، والبعض الآخر بالأزرق والأخضر، والكثير منها بالأصفر؛ لأسباب كان شارلوك غافلاً عنها. ربما كانت روسيا تملك فائضاً في الطلاء الأصفر. وعندما وصلوا إلى الفندق، تولى بيوتر إيليتش مورودوف تسجيل أسمائهم، ثم ودعهم وغادر. فقام مايكروفت والسيد كايث بجمع أفراد الفرقة معاً في قاعة الاستقبال.

قال مايكروفت: "حضرت يوميات الرحلة التي تفصل الأحداث التي ستجري خلال الأيام القليلة المقبلة". ورفع يده إلى شفتيه وسعل، ثم تابع: "سأوزع عليكم هذه الأوراق بعد قليل، لكن دعوني أخص لكم التفاصيل. أولاً، نحن هنا في موسكو بناء على دعوة من الأمير يوسوبوف. الأمير راعٍ معروف للفنون، ولطالما رغب في رؤية فرقة مسرحية بريطانية تؤدي على

المسرح. وقد وضع الأمير مسرح مالي في تصرفنا خلال الأيام الثلاثة المقبلة. لا شك في أن هذا المسرح هو الأكثر تطوراً في موسكو، مما يعني أنه المسرح الأكثر تطوراً في روسيا".

سأل السيد مالفين، الممثل الرئيس: "ما هو عدد المقاعد التي يتسع لها؟". وصدق صوته كما لو أنه على خشبة المسرح. "فأنا ممثل محترم، ولا أظهر أمام مجموعة صغيرة من الأشخاص".

"المسرح الأساسي يتسع لتسعمئة وخمسين شخصاً، فيما المسرح الثاني يتسع لسبعمئة وخمسين شخصاً".

فقاطعته الأنسة أيوف ديموك، الممثلة الرئيسة: "ونحن على أي مسرح سنكون؟".

أجاب مايكروفت بلطف: "سنؤدي عرضنا على المسرح الثاني؛ لأن مساحة المسرح أصغر وتناسب أكثر أداءنا الحميم".

عندها، تقدم السيد كاييت إلى الأمام، وشرح قائلاً: "لا أريد أن يتبدد تمثيلكم الدقيق والبارع في مسرح واسع".

فأومأت الأنسة ديموك برأسها، وتراجعت إلى الخلف باحتشام، وقالت: "يا لهذا الاهتمام! شكراً".

قال مالفين بصوت عالٍ: "أريد زيارة المسرح مسبقاً؛ إذ يستحيل عليّ التمثيل على خشبة مسرح لم أجرب الصعود إليها من قبل. فأنا أريد تقييم نظام الصوت هناك لأحدد بنفسي الطريقة التي تسمح لي بإيصال صوتي إلى الزوايا البعيدة كي يتمكن الجميع من سماعي".

"طبعاً. سأطرق إلى هذه المسألة بعد قليل". وصمت مايكروفت قليلاً، وتأمل أفراد الفرقة، ثم تابع كلامه: "نحن ملتزمون - مثلما تعلمون - بأداء ثلاث حفلات خلال ثلاث ليالٍ منفصلة. فقد أرسل الأمير يوسوبوف دعوات إلى نخبة المجتمع الروسي المخملي لحضور العرض في الليلة الأولى. وأنا واثق من أنه سيكون الحدث الاجتماعي الأكثر أهمية لهذا الموسم".

سألت السيدة لوران من خلف شارلوك: "هل سيكون القيصر موجوداً؟ أوه، أتمنى أن يفعل!". ونظرت بسرعة إلى شارلوك وقالت بمكر: "عندما كنت فتاة صغيرة، أردت بشدة الزواج من أمير. لقد فات الأوان على ذلك الآن، لكن لا يزال بوسعي أن أحلم".

أجاب مايكروفت وهو يبسط يديه معتذراً: "للأسف، القيصر مشغول بشؤون الدولة. لكن، كونوا متأكدين من أن الجمهور سيتألف من مجموعة من كبار الشخصيات: أمراء وأميرات، كونتات وكونتيسات، بارونات وزوجاتهم،

دوقات وزوجاتهم. الطبقة الأرستقراطية الروسية واسعة جداً، وسيكون معظم أفرادها حاضرين في الليلة الأولى، بالإضافة إلى السفير البريطاني في بلاط القيصر وزوجته".

قالت السيدة لوران، وهي تصفق بيديها: "أوه، كم هذا رائع!". ثم انحنت نحو شارلوك وهمست له: "قد يشفق أحدهم على سيدة في خريف العمر ويجعل مني سيدة محترمة". فابتسم لها وهو يشك في أن تكون السيدة لوران زوجة مناسبة لأي نبيل روسي.

وجه مايكروفت انتباهه إلى بقية أفراد الفرقة وقال: "في كل من الليالي الثلاث، سوف تؤدون مجموعة من المشاهد المختارة من أفضل الروائع المسرحية البريطانية: ويليام شكسبير طبعاً، وبن جونسون، وكريستوفر مارلو، وجون وبستر". ثم استدار نحو الرجل الكبير الواقف خلفه وقال: "سيد كايت، أعتقد أنك ستتولى تقديم المشاهد ووضعها في السياق المناسب أمام الجمهور".

تمتم السيد كايت وقال: "هذا ما أنويه. سأحدث بالفرنسية، رغم أن العروض ستكون بالإنكليزية".

"ممتاز". واستدار مايكروفت نحو الأعضاء الأصغر سناً في الفرقة؛ ريديان ذي الشعر الداكن، وجوداه الشاحب، والتوأمن هنري وبولي، وتابع قائلاً: "بالنسبة إلى المشاهد ولوازم الديكور، أنا واثق من أن المسرح يملك عدداً من الستائر الخلفية التي يمكن استعمالها لتجسيد كل شيء؛ بدءاً من المعارك في قصر إلزينور إلى غابة أردن، إضافة إلى عدد كبير من المفروشات والأشياء الأخرى التي قد تكون مفيدة. أقترح أن نذهب جميعاً في الصباح الباكر إلى المسرح، وفيما يؤدي الممثلون التمارين الصوتية التي يحتاجون إليها للتحقق من الخصائص الصوتية في المسرح، تقومون أنتم أيها الصغار بالتحضير بمساعدة السيد كايت. حددوا ما تريدون استعماله، وسوف يقوم الموظفون المنتظمون في المسرح بتحضيره لكم بعد الظهر، وسيعلمونكم كيفية رفع الستائر الخلفية وإنزالها".

قال هنري: "كلها حبال. في النهاية، إنها مسألة حبال وشد".

"بعد ظهر غد، فيما يتولى موظفو المسرح ترتيب الستائر الخلفية، أفترض أنه سيكون هناك تدريب شامل يشارك فيه الجميع". وحوّل نظره إلى السيد إيفيس الطويل ذي الشاربين، وإلى فرقة الموسيقيين الواقفين خلفه. كان روفوس ستون هناك أيضاً، وبدأ أنه انسجم جيداً مع الموسيقيين الآخرين. "سيشمل هذا التمرين مختلف المقطوعات الموسيقية التي ستكون

جزءاً من الحفلة، ولذلك يجدر بكل الموسيقيين الحضور".
أوماً السيد إيفيس برأسه وقال: "سنكون هناك طبعاً. لا تقلق".
أوماً مايكروفت برأسه، وتابع وهو يجول بنظره على كل أفراد الفرقة:
"أنا واثق من ذلك. في الليلة الثانية، سيتألف الجمهور من المجتمع الفني
في موسكو بدل أصحاب الألقاب. وفي الليلة الثالثة، تم بيع التذاكر لعموم
سكان موسكو. أعتقد أنه يمكننا افتراض أنكم ستؤدون أمام نخبة منتقاة
من الطبقة المتوسطة الراقية في هذه المدينة". صمت قليلاً، وشبك يديه
أمام بطنه المنتفخ، ثم تابع: "تذكروا أنكم السفراء الفنيون لبلدكم". وصفق
بيديه. "والآن، اذهبوا لتناول العشاء ومن ثم اخلدوا إلى النوم، وسنلتقي
غداً إلى مائدة الفطور في تمام الساعة الثامنة، ثم سنذهب معاً إلى
المسرح".

توجه مختلف أعضاء الفرقة إلى مطعم الفندق. توقفت السيدة لوران
بالقرب من شارلوك وداعت شعره وسألته: "هل تريد الانضمام إليّ في قاعة
الاستقبال في الفندق بعد العشاء يا سكوت؟ كنت آمل في أن تساعدني في
حفظ دوري وذلك بقراءة الأدوار الأخرى في النص".

أراد شارلوك أساساً قول نعم، فقد بدأ يستلطف السيدة لوران أكثر
فأكثر. لكن، قبل أن يجيب نظر إلى مايكروفت، وبدا جلياً أن أخاه قد
سمع سؤال السيدة لوران، وهزّ رأسه رافضاً الفكرة.
قال: "ليتني أستطيع ذلك، لكن عليّ الخلود إلى النوم باكراً، والحصول
على قسط وافر من النوم ليلاً".

قالت وهي تبتسم: "إذاً، ربما غداً بعد الفطور". ثم مشت.
أشار مايكروفت إلى شارلوك وروفوس للانضمام إليه.
وقال لشارلوك: "أعتذر عن إفساد سهرتك. لكن، كلما أمضينا وقتاً
أطول في الاختلاط مع هؤلاء الأشخاص، ازداد احتمال انكشاف أمرنا، وسوف
يدركون أننا لسنا ما نبدو عليه. لذا، إن أفضل سلوك نتبعه هو التحلي
بالتهديب وإنما بتحفظ". وحرّك ناظريه نحو ستون، ومن ثم نحو شارلوك،
وقال بهدوء: "كانت الرحلة متعبة، ولا أرى سبباً لنجهد أنفسنا هذه الليلة.
لذا، احظيا ببعض الراحة. وغداً، عندما يتوجه باقي أعضاء الفرقة إلى
المسرح، سيرافقني شارلوك إلى شقة عميلي هنا في موسكو. فأنا أريد أن
أعرف بالضبط ما حصل معه". ونظر إلى ستون ثم تابع: "أما أنت فأخشى
أنه يجدر بك الذهاب إلى المسرح مع الباقيين. فبصفتك عازف كمان رئيساً
سلاحظ الجميع غيابك".

قال ستون: "قد تحتاج إليّ إذا حصلت مشكلة".
أجاب مايكروفت برزانه: "إذا حصلت مشكلة، فلا أعتقد أن أي شيء سينفع. نحن في بلد أجنبي، حيث التعبير الحرّ عن أي رأي مناهض لرأي القيصر يواجه بالقمع من قبل رجال الشرطة الرسميين والسرّيين. لكننا سنفعل ما هو ضروري".

ألحّ ستون: "إذًا، لماذا ستصحب شارلوك؟ إذا كان الأمر خطيراً إلى هذا الحدّ، إذًا يجدر به الذهاب معي إلى المسرح".

هزّ مايكروفت رأسه الكبير وأجاب: "ما تقوله منطقي، لكنني أحتاج إلى عيني شارلوك اليقظتين، وذكائه الحاد ومهاراته البدنية. فقد يكون من الضروري النفاذ إلى الشقة عبر نافذة، وسأكون في هذه الحالة غير مناسب للمهمة أبداً. وعندما نصح داخل الشقة، قد يلمح بعض الأدلة التي أغفل عنها. وعلى الأقل، يستطيع المراقبة والانتباه إلى قدوم الشرطة فيما أكون في الداخل. وإذا حصل لي شيء ما، فباستطاعته العودة وتحذيرك".

أوماً ستون برأسه على مضض وقال: "حسناً، هل هذا كل شيء؟".
أجابه مايكروفت بإيماءة من رأسه، فمشى بعيداً في اتجاه المطعم.
نظر مايكروفت إلى شارلوك بطريقة انتقادية وقال: "أرى أن شيئاً ما يدور في خلدك".

فهزّ شارلوك كتفه قائلاً: "ليس الأمر مهماً".
"بلى، إنه مهم. فأنت مستاء مني لأنني لم أخبرك أنني أستخدم روفوس ستون، وأنت مستاء من روفوس ستون لأنه لم يخبرك أنه يعمل معي. وأنت تعتقد الآن أننا خذلناك ولا يمكنك الوثوق فينا".

نظر شارلوك بعيداً، رافضاً النظر إلى عيني مايكروفت.
"شارلوك، سواء أعجبك الأمر أم لا، أحمل مسؤولية الاهتمام بك. والطلب من روفوس ستون مراقبتك حين لم أكن قادراً على القيام بذلك جزء من واجبي".

قال شارلوك وهو متفاجئ من نفسه: "اعتقدت... اعتقدت أنه صديقي".

فقال مايكروفت: "يمكن أن يكون الناس أموراً عدة في الوقت نفسه. أنا أخوك، لكنني أيضاً موظف في الحكومة البريطانية. وأمّيوس غروي صياد بارع، لكنه أيضاً مرشدك. والسيد ستون عازف كمان، لكنه أيضاً عميل لي بين الحين والآخر. وبالمناسبة، هذا لا يمنعه من أن يكون صديقك أيضاً".
ووضع يده على كتف شارلوك وضغط عليه برفق. "أرجو أن يكون في ما

سأقوله عزاء لك؛ عند عودته من أميركا، أخبرني السيد ستون أنه بات يتعامل معك بشيء من العاطفة الأخوية، وأنه استمتع بصحبتك. وسألني إذا كنت أعتبر الأمر مشكلة، لكنني أجبتة بالنفي. فأنا أفضل أن يعتني براحتك لأنه يريد ذلك، وليس لأنني طلبت منه القيام بذلك".

ثمة شيء كان منقبضاً بشدة داخل صدر شارلوك منذ أيام بدأ يسترخي الآن قليلاً. ليس تماماً، وإنما قليلاً.

قال مايكروفت: "والآن، دعنا نتذوق أطيب المأكولات الروسية. أعتقد أن الطهاة الروسيين بارعون بقدر الطهاة الفرنسيين".

دخلا المطعم ذا السقف العالي المقوّس. كانت جدرانه مكسوة بلوحات فنية تظهر جنوداً يرتدون بذلات ساطعة الألوان - أزرق وأخضر وأحمر - ويمتطون أحصنة، ويضربون بعضهم بعضاً بالسيوف. ولاحظ مايكروفت الاتجاه الذي ينظر إليه شارلوك، فقال: "أوه، حرب القرم. حصلت بين بريطانيا وفرنسا وتركيا من جهة، وروسيا من جهة أخرى. كان النزاع عديم الجدوى. وها نحن اليوم، بعد اثني عشر عاماً تقريباً، نتناول العشاء في عاصمة أعدائنا. تنشئ الدبلوماسية حلفاء غير متوقعين". وصمت قليلاً، وأحس برعشة في جسمه الضخم. "شارلوك، أعتقد أن هذه هي المرة الأخيرة التي أغادر فيها إنكلترا. وقد تكون أيضاً المرة الأخيرة التي أغادر فيها لندن. صحيح أن السفر يوسّع آفاق العقل، ولكن الصحف والمراجع تفعل هذا أيضاً، ويمكن الاستفادة منها أثناء الجلوس على كرسي هزاز مريح وفي وجود قنينة من الشراب اللذيذ. يجدر بي في المستقبل أن أدع الأمور تأتي إليّ، بدلاً من أن أذهب إليها".

سأله شارلوك بهدوء: "لا بد أنك ترغب بشدة في معرفة ما حصل لعميلك هنا". رفع كبير الندل نظره عن دفتر الحجوزات فيما اقتربا منه، وسأل بلغة فرنسية ممتازة: "أتريدان طاولة لكما؟".

أجابه مايكروفت: "من فضلك". وفيما رافقهما كبير الندل عبر المطعم، قال مايكروفت بهدوء: "اسمه ورمسلي. روبرت ورمسلي. كنا في أوكسفورد معاً، وتشاركنا الغرفة نفسها، وكنا نتحدث طوال الليل عن آمالنا وأحلامنا في المستقبل. وعندما غادرنا أوكسفورد، مضى كل منا في طريقه. وفيما عملت في وزارة الخارجية، سافر في أرجاء العالم للمغامرة وكتابة مقالات صحافية مهمة عن السفر، لكننا استمررنا في تبادل الرسائل في ما بيننا. وفي النهاية، تقاطعت طرقنا مجدداً، وأصبح عميلي الموثوق في الخارج". وصمت قليلاً ثم تابع: "كنا صديقين يا شارلوك. كنا أفضل صديقين. المعارف كثير جداً، لكن

الإنسان لا يحظى غالباً بفرصة الحصول على أصدقاء حقيقيين في الحياة. لذا، عندما يحصل ذلك، لا بد من الانتباه إليهم والمحافظة على صداقتهم. ولهذا السبب جئت إلى هنا، فأنا أدين له بذلك".

قال شارلوك بعد أن جلسا: "فهمت، أو على الأقل، أعتقد ذلك". "طبعاً فهمت. فقد سافرت إلى نيويورك لإنقاذ الصغير ماثيو أرنت". وأخذ قائمة الطعام من كبير النادل وأضاف: "والآن، ماذا تريد أن تأكل هذا المساء؟ أعرف أن ثمار البحر في هذه المدينة لذيدة جداً".

كانت وجبة الطعام ممتازة، وجيدة كفاية لإرضاء مايكروفت الذي سمح لشقيقه بتناول كأس من الشراب مع الوجبة. وفيما كانا يتناولان الطعام، تبادلوا الحديث حول أمور غير مهمة.

أحس شارلوك أن مشاعره تجاه أخيه بدأت تلين مع مرور الوقت أثناء الوجبة. كان لا يزال غاضباً لأن مايكروفت وروفوس ستون طعناه في الظهر، لكنه أدرك أن جزءاً من ذلك الغضب ينصب عليه شخصياً لعدم إدراكه الحقيقة. إلا أنه صمم على تعلم درس مما حصل؛ وهو ألا يصدق أبداً المظاهر مجدداً.

وفي نهاية الوجبة، فيما كان مايكروفت مسترخياً مع كأس من الشراب وسيجار، قال شارلوك: "سأذهب إلى السرير. أراك غداً".

أوماً مايكروفت برأسه، وأجابه: "نم جيداً. غداً سيكون يوماً صعباً". ثم قطب جبينه وتابع: "أشعر أنني أفوت شيئاً بدهياً، وليس هذا شعوراً مريحاً. لو كنت في لندن، بأمان نادي دياغونيز، فأنا واثق من أنني سأدرك الأمر فوراً. لكن هنا، مع كل مصادر الإلهاء هذه..." وتنهى. "قد يفيدني ربما نوم جيد على سرير مريح. تصبح على خير يا شارلوك".

كانت غرفة شارلوك صغيرة، وفي طابق علوي، لكن لا يهتم. فهي مريحة أكثر من غرفته في عزبة آل هولمز، ونام بعد ثوانٍ قليلة من خلعه ملابسه. وإذا حلم بشيء، فإنه لا يذكر أحلامه أبداً.

كان صباح اليوم التالي ساطعاً وبارداً. وكان الثلج لا يزال على الأرض، لكن الشمس سطعت وسط سماء زرقاء صافية. غسل شارلوك وجهه وارتدى ملابسه، ثم توجه إلى المطعم نفسه حيث تناول العشاء مع مايكروفت.

كان مايكروفت جالساً مع السيد كايت، فأوماً برأسه إلى شارلوك فيما دخل المطعم، ثم تابع حديثه.

نظر شارلوك حوله. كان السيد مالفين والآنسة ديموك يتناولان الطعام

معاً، فيما السيدة لوران جالسة بمفردها. وحين لمحت شارلوك ابتسمت له، فبادلها الابتسامة. شعر شارلوك بأنه يستلطفها؛ إذ كانت تعامله بمثابة ابن بديل لها. وتساءل عن السيد لوران الغائب الذي لا يتم ذكره. هل مات، أو هرب مع امرأة أخرى، أو إنه ينتظرها في المنزل؟

أما عمال المسرح - ريديان وجوداه وبولي وهنري - فكانوا يتشاركون طاولة واحدة ويتحدثون. فيما توزع الموسيقيون على ثلاث طاولات مختلفة بحسب آلاتهم؛ فعازفو الآلات الوترية يجلسون إلى طاولة، وعازفو الآلات النحاسية يجلسون إلى طاولة أخرى، فيما عازفو آلات النفخ يجلسون إلى طاولة ثالثة. أما قائد الأوركسترا، السيد إيفيس، فكان جالساً بمفرده.

وعلى الرغم من كونه ضمن فريق الآلات الوترية، كان روفوس ستون جالساً بمفرده. وقد لوّح لشارلوك عندما لمح، وأشار إلى الكرسي الفارغ أمام طاولته. لهنيهة، تساءل شارلوك عما إذا كان يجدر به إيجاد طاولة له وحده، لكنه في النهاية مشى نحو ستون وانضم إليه.

سأله ستون: "هل نمت جيداً؟".

أجاب شارلوك: "لا بأس".

"الفندق رائع. أتحدث بصفتي رجلاً معتاداً أكثر على أن يكون القش بطانيته وسماء الليل سقفه، لذا وجدت السرير مريحاً جداً. وعندما استيقظت، وجدت أنني مستلق وسط فراش ناعم جداً شبيه بحلوى الخطمي. احتجت إلى خمس دقائق من الجهد لأصل إلى الحافة. أقسم إنني لو نمت نصف ساعة إضافية، لغرقت في الفراش من دون أن أترك أي أثر لي".

لم يجب شارلوك.

ساد الصمت بضع لحظات، ثم تابع ستون بهدوء: "قلت لي في إنكلترا إنك اشتريت لنفسك آلة كمان".

"صحيح". أحسّ شارلوك أنه يجدر به إضافة شيء ما، لكنه لم يعرف ما يجدر به قوله.

"أفترض أن شراءك مثل هذه الآلة يشير إلى أنك لا تزال راغباً في عزف الموسيقى، أليس كذلك؟".

هزّ شارلوك كتفه.

فقال ستون: "شارلوك، أفهم مشاعرك، وأتمنى لو كانت الأمور مختلفة. ولكن، بما أن الحياة هكذا، تحصل الأمور السيئة بتواتر أكبر من الأمور الجيدة. والحيلة تكمن في رؤية نور الشمس خلف الغيوم الداكنة". وصمت

هنيهة ثم تابع: "شارلوك، إذا كان من الممكن أن تصدق شيئاً واحداً مما أقوله، فأرجو أن تصدق أنني أستمتع بصحبتك. ولو قال لي أخوك غداً إنه لم تعد هناك حاجة إلى خدماتي، فسأبقى راجباً في تعليمك".

أحسّ شارلوك بغصة غير عادية في حنجرته. نظر بعيداً، ثم نظر إلى ستون، وبعد ذلك قال بتردد: "أودّ ذلك".

فأجاب ستون: "طبعاً، لكن يجب أن ننتظر حتى انتهاء هذه المهمة المحددة. وإذا لم أتوخ الحذر، فمن الممكن أن تؤثر مجاراتي لعزف هؤلاء العازفين بمستوى أقل من قدراتي فعلاً في مهاراتي". ونظر حوله، ثم أخفض صوته وتابع: "ينتابني شعور سيئ حيال كل هذا. لا أعرف لماذا، لكنّ ثمة خطب ما هنا، ثمة خطب كبير". ونظر إلى شارلوك. "توخ الحذر هذا الصباح. توخ الحذر الشديد".

الفصل الثاني عشر

بعد الفطور، راقب شارلوك من ردهة الفندق بقية أعضاء الفرقة المسرحية - باستثناء مايكروفت - وهم يغادرون إلى مسرح مالي على متن عربات تجرها الأحصنة. وبعدها اختفوا وراء منعطف، قال مايكروفت: "تعال، فلنذهب".

ثم أوقف مايكروفت عربة - عربة حقيقية وليست واحدة من تلك الألواح الخشبية الرقيقة التي يجلس عليها الناس منفرجي الساقين - وأعطى الحوذي عنواناً يقع عند مفترق شارعين. وبعد ذلك، انحنى نحو شارلوك وقال: "نستطيع المشي مسافة مئة ياردة تقريباً. هذا غير مريح، ولكنه ضروري. فأنا أحرص دوماً على عدم الكشف عن مقصدي النهائي أمام الأشخاص الذين لا أعرفهم؛ إذا كان بوسعي ذلك. إذ إن نصف الذين يقودون العربات في هذه المدينة يعملون لدى المخابرات".

وعندما وصلا، أعطى مايكروفت الحوذي قطعة نقود معدنية، ثم انتظر ريثما انطلق بعيداً، قبل أن يشير إلى شارلوك بأنهما سيعبران الطريق ويعودان إلى الخلف قليلاً.

كان المبنى الذي توقف مايكروفت أمامه مؤلفاً من ثلاث طبقات، ومصنوعاً من حجارة ذات لون أحمر مائل إلى البني. وكان ثمة مدخل رئيس في وسط الطابق الأرضي، مع ثلاث درجات مرتفعة عن الرصيف. دخل مايكروفت وشارلوك عبر البوابة. وكانت هناك أدراج ترتفع من الردهة نحو الأعلى. توجه مايكروفت مباشرة نحو الأدراج؛ كما لو أنه سبق له أن جاء إلى هنا آلاف المرات من قبل، ووضع يده على الدرايزين، ثم استدار نحو شارلوك وقال له: "يُقال إنه في القصر الشتوي - هنا في موسكو - يملك القيصر غرفة صغيرة تتحرك من طابق إلى آخر، بنوع من آلية النوابض العاملة بالبخار. لا أعتقد أنه سيأتي قريباً وقت تصبح فيه كل المباني مشتملة على مثل هذه الغرف". وبدأ يصعد الأدراج، فلحق به شارلوك وهو يتتبعه. أفضى منبسط الدرج في الطابق الأول إلى رواق طويل ومظلم ممتد على طول المبنى. واستطاع شارلوك شمّ روائح طعام: لحم مسلوق، ملفوف مسلوق، خبز... مشى مايكروفت في الرواق بثقة إلى أن أصبح أمام باب معين، فنظر في كلا الاتجاهين، وتأكد من أن أحداً لا يراقبه، ثم دفع الباب.

تحرك الباب، فقال مايكروفت: "الخشب حول هذا القفل متصدّع،

وليس هذا بالأمر الجيد أبداً.

فتح الباب ودخل الردهة، ثم سحب شارلوك خلفه. وبحركة سريعة جداً بالنسبة إلى رجل ضخم مثله تحرك جانبياً؛ إلى الجدار، ودفع شارلوك نحو الاتجاه الآخر. أدرك شارلوك أن مايكروفت يحاول التقليل من احتمال ظهور ظليهما على الباب؛ في حال كان يوجد أحد في الشقة مع مسدس. هذا تفكير جيد. انتظرا بضع لحظات وأصغيا، ولكنهما لم يسمعا أي صوت يصدر من الداخل. وفي النهاية، تحرك مايكروفت إلى الأمام، من الردهة إلى باب مفتوح جزئياً. كانت الغرفة في الداخل فوضوية. يبدو أنها كانت غرفة جلوس، لكن الكراسي فيها محطمة الآن، والطاولات مقلوبة رأساً على عقب، واللوحات الفنية التي كانت معلقة على الجدران مبعثرة، فيما قطع الفخار والزجاج متناثرة على الأرض، بالإضافة إلى فئات تمائيل زخرفية وفناجين شاي وأكواب شراب محطمة. لم يكن هناك أحد في الداخل؛ لا حي ولا ميت. جالت عينا مايكروفت في الغرفة بسرعة، ثم استدار، وعاد إلى الردهة للتحقق من الغرف الأخرى. وعندما نظر شارلوك من فوق كتفه، لاحظ أنه توجد غرفة نوم واحدة، فيما الغرفة الأخرى عبارة عن حمام. كانت هاتان الغرفتان خاليتين من الأشخاص أيضاً، وإنما تمت بعثرة الأغراض فيهما بالطريقة نفسها مثل الغرفة الرئيسة.

تمتم مايكروفت وهو يقف قرب المدخل وينظر حوله: "كان أحدهم يبحث عن شيء ما".

قال شارلوك: "لكنه لم يعثر عليه".

"صحيح. لكن، كيف توصلت إلى هذا الاستنتاج؟".

"لأنه لو عُثِرَ عليه لبقيت هناك مساحات لم تتحطم محتوياتها أو تتبعثر. وحسبما يبدو، الغرف التي تمّ التفتيش فيها حطمت محتوياتها بسبب عدم إيجاد ما يتمّ البحث عنه".

قال مايكروفت: "إلا إذا...".

فكّر شارلوك هنيهة وقال: "إلا إذا كان ما يبحثون عنه موجوداً أصلاً في آخر مكان فتشوا فيه".

"أو ربما...؟".

"أو إنهم غير واثقين من عدد الأشياء التي يبحثون عنها، ولذلك توجب عليهم التفتيش في كل مكان".

أوماً مايكروفت قائلاً: "صحيح. ما هي الأمور الأخرى التي يمكنك

استنتاجها من حالة هذا المكان؟".

"الشخص الذي فتش فيه لم يهتم بأن يعرف أي كان أن المكان قد تم تفتيشه فعلاً، وإلا لكان قد بذل جهداً للمحافظة على ترتيبه".
"هذا صحيح مجدداً". وأصبح وجه مايكروفت خالياً من التعابير وهو يتابع: "أخشى على حياة روبرت ورمسلي. فهو ربما تواجد هنا وقت التفتيش، وفي هذه الحالة سيكون قد تم اختطافه على يد الشخص الذي حطم الباب وبعثر محتويات الشقة. أو ربما كان غائباً، وفي هذه الحالة لا بد أنه عاد أدراجه، وهرب ما إن رأى الباب محطماً. وفي كلتا الحالتين، لا يزال مصيره مجهولاً".

قال شارلوك بثقة: "لم يكن هنا".

"وكيف استنتجت ذلك؟".

أشار شارلوك إلى الباب الرئيس. "كان الباب مقفلاً وإنما غير مثبت بالملزاج. يمكنك ملاحظة أن الملزاج لا يزال على حاله في الجهة الخلفية من الباب. ولو كان صديقك في الشقة وأقفل الباب، لكان قد ثبته بالملزاج أيضاً. لذا، إن كون الباب مقفلاً وإنما غير مثبت بالملزاج يشير إلى أنه غادر وأقفل الباب خلفه".

قال مايكروفت بنبرة موافقة: "تحليل جيد".

عاد شارلوك إلى الغرفة الرئيسة ونظر حوله مجدداً. ثمة شيء فيها أزعجه، لكنه لم يعرف ما هو بالضبط. هناك شيء ما في غير مكانه الصحيح، أو شيء في مكانه الصحيح فيما كل الأشياء الأخرى في غير مكانها. وانزعج من بقاء مثل هذا الأمر عالقاً عنده.

قال: "لا أرى شيئاً، أو بالأحرى أرى شيئاً لكنني لا أفهمه".

قال مايكروفت: "ستأتيك الحقيقة إذا سمحت لها بذلك. دع عقلك يحلل المشكلة بمفرده فيما أنت تفكر في شيء آخر". ثم نظر حوله وقال: "أخشى ألا يكون هناك شيء آخر لرؤيته هنا. يجدر بنا المغادرة".

وعندما أصبحا في الشارع، أوقف مايكروفت عربة مارة، فيما طوى شارلوك كفه وقال: "أعتقد أنني أذكر طريق العودة إلى الفندق؛ إذ كنت أنتبه إلى الشوارع في طريقنا إلى هنا. هل من مشكلة إذا عدت سيراً على الأقدام؟ أريد رؤية القليل من المدينة".

أجاب مايكروفت: "حسناً". وأعطى شارلوك حفنة من المال وقال له: "العملة الرئيسة في روسيا هي الروبل. وينقسم الروبل بالضبط إلى مئة كوبك". ثم ربت على كتف شارلوك وتابع: "والآن، اذهب وقم بجولة. أما أنا فأعتقد أنني سأعود إلى الفندق وأفكر في خطوتنا التالية".

وفيما اختفت عربة مايكروفت وراء منعطف، بدأ شارلوك يمشي. كانت موسكو من حيث الشكل والصوت، والأهم من حيث الروائح، مختلفة عن الأماكن الأخرى التي اعتاد عليها. فالثلج مثلاً امتص الكثير من الضجة، حيث غاب تقريباً الضجيج الذي اعتاد عليه في لندن. بدت موسكو مثل مدينة هادئة. لكنه فُكر في أنها قد تكون هادئة أيضاً نتيجة الخوف من الشرطة السرية التابعة للقيصر، والخوف مما قد تفعله بالأشخاص الذين يقولون أشياء خاطئة.

كانت الطريق راسخة تماماً في عقله. وفيما مشى شارلوك، وجد نفسه يتأمل بإعجاب الهندسة المعمارية المهيبة للمدينة. وعندما اقترب أكثر من فندقهم، وجد نفسه ينعطف نحو ساحة كبيرة جداً ومفتوحة، حيث بدت وكأنها تنحني مع تقوس كوكب الأرض. ارتفعت أمامه كاتدرائية مثل ابتكار خيالي مصنوع من آيس كريم الفراولة والسكر المغزول. لم يسبق له أن رأى شيئاً كهذا في حياته من قبل. وبدا له وكأن هناك سلسلة أبراج بارتفاعات مختلفة، وعلى ما يبدو بأقطار مختلفة، تعلو كلاً منها قمة مستدقة أو قبة على شكل بصلة مطلية أو مكسوة بقطع قرميد ذات ألوان مختلفة: أحمر، وأخضر، وأزرق، وأصفر، وأبيض؛ متداخلة كلها في ما بينها بأنماط مربعات أو دوامات مختلفة. وعلا كل قبة رمز النصرى الديني كبير الحجم. وفيما كان شارلوك يمشي ببطء حول الكاتدرائية، ويحدق طوال الوقت في المناظر حوله، لاحظ أن شكلها يتبدل باستمرار. ما من تناسق جلي فيها أبداً؛ فكلما اختلفت الزاوية التي ينظر منها، بدت الكاتدرائية بشكل مختلف؛ تماماً مثل العديد من الأمور التي رآها في روسيا منذ وصولهم. بدا المشهد مثل تنافر بين صدفة كاملة وإبداع متأن.

على يمينه، مباشرة خلف بقعة من الماء المتجمد جزئياً، رأى الجدران القرميدية الحمراء الطويلة لما اعتقده الكرملن؛ أي القصر والبلاط حيث عاش القيصر الإسكندر الثاني، وحيث حكم أراضيها الشاسعة. وبين الكاتدرائية وجدران الكرملن، وامتداداً إلى يمين شارلوك، بدت الساحة الحمراء.

ثمة شوارع عدة عريضة ومستقيمة تتشعب من الساحة الحمراء، فاختار شارلوك الشارع الذي اعتقد أنه يؤدي إلى فندق سلافيانسكي بازار وبدأ يمشي فيه. كانت ثمة لافتة على جدار قريب كُتب عليها اسم الشارع الذي يسير فيه، وهو شارع نيغلينايا. وبالإضافة إلى كونه مليئاً بالمتاجر على كلا الجانبين، كان هناك أيضاً صف طويل من الأكشاك في وسطه. وبدت المتاجر وكأنها تبيع معاطف الفرو، والقبعات، والجزمات، والحلويات من

مختلف الأنواع. وقد وضع كل متجر لافتة ملونة وساطعة خارجه ليُظهر بالصورة ما يتم بيعه في الداخل بالضبط. أما الأكشاك فكانت أكثر شعبية، وتعرض كل أنواع البضائع؛ بدءاً من السكاكين إلى التبغ، ومن الحقائق إلى الملابس القديمة والأزرار ومختلف قطع الملابس. وثمة أكشاك قليلة تباع أغراضاً ذات مدلولات دينية وما شابه. بدت روسيا بالنسبة إلى شارلوك مجتمعاً دينياً أكثر علنية من إنكلترا.

تجوّل بائعو الشاي في الشارع بين المتاجر والأكشاك وهم يدفعون عرباتهم اليدوية التي وضعوا عليها أباريق من الشاي الساخن. كما باعوا الوجبات الخفيفة، فقد كانت هناك حبال معلقة حول أعناقهم تتدلى منها حلقات الخبز مثل حبات خرز عملاقة.

عند كل ملتقى طرق، لاحظ شارلوك وجود أكشاك خشبية يشغلها رجال يرتدون بذلات رمادية ويعتَمرون قبعات سوداء، وقد وضعوا السيوف على جانبيهم. وأولئك الذين لم يكونوا نائمين في مراكزهم فعلاً بدوا سئمين ويشعرون بالبرد.

وبعد أن تحقق شارلوك من ساعته، قرر أن الوقت قد حان للعودة. وفيما كان يمشي في شارع جانبي توقف فجأة، فارتطم به شخص كان يمشي خلفه مباشرة. استدار شارلوك إلى الورا ليعتذر من الرجل، لكن هذا الأخير دفعه بعيداً متفوهماً بشتيمة بصوت خافت. وفي الوقت نفسه، لاحظ شارلوك حصول محادثة حامية في أحد الأكشاك الخشبية. إذ ثمة رجل يرتدي معطفاً سميكاً، ويعتمر قبعة ذات طيات من الفرو واقية للأذنين يتحدث إلى رجل الشرطة الموجود في الكشك، ويشير بعصبية بكلتا يديه. كان شارلوك على وشك الاستدارة والسير بعيداً حين استدار الرجل ذو قبعة الفرو وأشار إليه. وعندما حدّق رجل الشرطة في شارلوك، أحسّ هذا الأخير بالقشعريرة في جسمه.

بدا له أن الرجل صاحب قبعة الفرو يقول إن شيئاً ما قد أخذ منه. إذ أشار إلى جيب في معطفه، ثم أدخل يده فيه، ثم أخرجها كما لو أنه يشير إلى أنه تم سلبه ما في جيبه. وأشار إلى شارلوك مجدداً. نظر شارلوك حوله ليرى ما إذا كان هناك شخص آخر يقربه يمكن أن يشير إليه الرجل، لكن لم يكن هناك أحد على مسافة عشر ياردات.

فتح شارلوك ذراعيه للإشارة إلى براءته، محدقاً في رجل الشرطة وآملاً في أن يلوّح له الرجل بإمكانية انطلاقه بعيداً، لكن رجل الشرطة أشار إليه بدلاً من ذلك للاقتراب من الكشك.

نقل شارلوك نظره إلى الرجل الذي تقدم بالشكوى. ولمجرد ثانية، ابتسم. وكانت ابتسامته ابتسامة رجل نجح في تنفيذ حيلة معينة و ينتظر لرؤية النتيجة. لكن عندما لاحظ أن شارلوك يراقبه، اختفت الابتسامة عن وجهه مثلما تمحى الصورة عن لوح أسود.

خطرت لشارلوك فكرة مفاجئة وغير مرحب فيها أبداً، فوضع يده في جيب سترته، وأطبقت أصابعه على شيء لم يكن موجوداً من قبل؛ شيء مربع، شيء مصنوع من الجلد؛ محفظة نقود.

فجأة، اتضح له المسألة. فقد تم الإعداد لكل العملية! فالرجل الذي ارتطم بظهر شارلوك وتابع سيره وضع محفظة النقود في جيبه. أما الرجل الآخر - ذاك الذي يتحدث إلى رجل الشرطة - فلم يتعرض للسرقه قط، وإنما لحظة تأكده من أن محفظة النقود قد وُضعت في جيب شارلوك، توجه إلى الشرطي وتقدم بشكواه، مدعيًا أن شارلوك هو السارق. وحين يتحقق الشرطي من جيوب شارلوك سيعثر على محفظة النقود، وسيقول الرجل الذي تقدم بالشكوى حتماً إن المحفظة تعود له؛ سواء أكان هذا صحيحاً أم لا. وحينها سيتم رميه في السجن لأن كل الأدلة ضده. هذا كابوس!

أشار له الشرطي مجدداً، بصرامة أكبر هذه المرة. فبدأ قلبه يخفق بسرعة كبيرة، وأحسّ بالعرق يتقطر تحت إبطيه ويسيل وسط ظهره؛ ما جعل قميصه يلتصق ببشرته. هل سيتم توقيفه في بلد أجنبي بسبب سرقة لم يرتكبها؟! سيكون محظوظاً إذا رأى نور الشمس مجدداً؛ على افتراض أنه سيحظى بمحاكمة عادلة. فنظراً إلى الطريقة الذكية التي جرى تدبير المسألة وفقها، ثمة احتمالات كبيرة بأنه تمّ استباق كل الخطوات المحتملة. لا بد أنهم دفعوا- أيّاً كانوا- للقاضي، وهيئة القضاة، والجميع؛ على افتراض أنه يوجد قضاة وهيئات قضاء في روسيا. إنه لا يعرف أبداً كيف يعمل نظام العدالة. لكن، استناداً إلى الأشياء التي قرأها في الصحف في بلده، أحسّ أن روسيا القيصرية تعمل على أساس الشرطة السرية واختفاء الناس من الشوارع وعدم رؤيتهم أبداً مجدداً.

يستطيع الركض ومحاولة الهرب، لكنهم ربما استبقوا هذا الاحتمال أيضاً. لذا، نظر حوله محاولاً معرفة من شارك في هذه المؤامرة من المجموعة المحيطة به من المتسوقين.

إلى يساره، كان ثمة رجل يرتدي معطفاً أسود ويعتمر قبعة من الفرو أدار رأسه بعيداً عندما نظر إليه شارلوك. وإلى يمينه، ثمة صبي مراهق ذو

وجه مليء بندوب الجدري حدّق به فجأة، بالإضافة إلى امرأة تضع يديها تحت لفاع من الفرو بدت فجأة مهتمة بكشك تبغ كانت تقف قربه. هناك ثلاثة أشخاص على الأقل؛ ثلاثة أشخاص سيوقفونه إذا حاول الهرب.

تأمل المساحة المحيطة به مباشرة بيأس؛ على أمل أن يرى وسيلة للفرار، لكن ما من شيء أبداً. لم يكن قريباً كفاية من أي من الأكشاك لأخذ شيء منها واستعماله كسلاح، وكان واثقاً من أن الذين يقفون قربه لن يساعده إذا صرخ طلباً للمساعدة.

كان الشرطي يتقدم بسرعة إلى حيث وقف شارلوك، وكان سيفه إلى جانبه، لكنه لوّح بعصا طويلة في يده اليمنى. وأوحى العبوس الظاهر على وجهه بأنه مهما فعل شارلوك فإنه ينوي استخدام العصا خلال الدقائق القليلة التالية.

فجأة، هبّت رياح حملت معها رائحة الشاي بالتوايل إلى منخري شارلوك، فأدار رأسه. كان بائع الشاي يتحرك عبر الحشود على مسافة أقدم قليلة.

ومن دون تفكير، تقدم شارلوك خطوتين، ودفع الرجل من أسفل ظهره، فاندفع بائع الشاي إلى الأمام، ودفع عربته بعيداً فيما كان يقع أرضاً. تدرجت العربة مسافة بضع أقدام، ثم ارتطمت إحدى عجلاتها بحصاة كبيرة فارتفعت إلى الأعلى وانقلبت. وانقلب الإناء الفضي الذي كان فوقها، فطار الغطاء عنه، ثم ارتطم بالشارع المرصوف بالحصى، وتناثر دفق من الشاي البني في كل مكان محولاً فجأة الثلج إلى وحل بني. عندها، قفز الناس بعيداً عن السائل الساخن. ووصل الرذاذ إلى بعضهم، فصرخوا حين أصاب أرجلهم.

وحين انصرف انتباه المراقبين الثلاثة والشرطي عنه، اختفى شارلوك عبر الحشود. وفيما كان يتحرك، حاول جعل نفسه أصغر حجماً، والتأكد دوماً من وجود مجموعة من الأشخاص الذين يفصلون بينه وبين من يريدونه. لكنهم كانوا خمسة على الأقل، ولا يستطيع سدّ كل الخطوط أثناء تحركه.

سمع صراخاً خلفه. إنه الشرطي! لقد رأى شارلوك وهو يهرب، فشق طريقه بين الحشود بصعوبة للحاق به. تعثر الناس ووقعوا أرضاً حين دفعهم الشرطي جانباً بعصاه الخشبية.

بدأ شارلوك يركض؛ عائداً أدراجه من الطريق التي أتى منها. إذا استطاع تضليلهم لدقيقتين فقط، فبإمكانه العودة إلى الفندق وتحذير

مايكروفت.

صدح صوت صفارة قوي في الهواء، فنظر شارلوك إلى الخلف بسرعة، وأدرك أن الشرطي لا يزال وراءه.

تحركت الحصى تحت قدمي شارلوك وكاد يسقط، إلا أنه استعاد توازنه بسرعة ومضى قدماً. كان ثمة كشك خشبي عند الزاوية أمامه، وخرج الشرطي الذي كان داخله وراح ينظر نحوه. لا بدّ أنه سمع الصفير.

الطريق أمامه مسدود، وكذلك خلفه؛ فانحرف شارلوك نحو اليمين بحثاً عن باب أو ممشى يستطيع الفرار عبره، لكنه لم ير سوى متاجر ولافئات ساطعة. أصبحت الألوان ضبابية فيما كان يركض، وأحس بقلبه يخفق بقوة في صدره. وفجأة، برز احتمال أمامه: مجموعة من الدرجات التي تفضي إلى مساحة تحت الأرض. تضرّع شارلوك بشدة كي لا تكون الطريق مسدودة، وكي لا يكون الباب الموجود في الأسفل مقفلاً، ونزل الدرج مسرعاً. أمسك بالدرابزين في الأعلى، وتأرجح ورمى نفسه على الأرضية المكسوة بأجر. ثمة باب هناك لكنه مغلق، وتوجد ألواح خشبية كبيرة مثبتة عليه. لا سبيل للخروج عبره.

استدار لصعود الدرجات مجدداً، لكن صفيراً مفاجئاً جمّده في مكانه. كان الشرطي على مسافة أقدم قليلة منه فقط. لم ير المكان الذي قصده شارلوك، لكنّ إذا رفع شارلوك رأسه إلى الأعلى فوق مستوى الرصيف فسيلاحظه فوراً.

سمع صوت صفير ثانٍ أبعد، ومن ثم ثالث. هل تطارده كل موسكو؟!

كانت أصوات الخطوات تقترب. ثوانٍ قليلة وسينكشف أمره. نظر إلى الخلف بياس؛ نحو الباب المغلق على أمل أن تكون هناك فجوة كبيرة بما فيه الكفاية بين الألواح لتسمح له بالزحف عبرها، ثم لاحظ غطاء حديدياً على الأرض. عندها، ارتقى على ركبتيه، وحاول رفع ذلك الغطاء. كان الغطاء ثقيلًا جداً وزلقاً بسبب الثلج، فيما أصابعه مبللة بالعرق. نجح في رفع الغطاء إنشأً تقريباً، لكنه سرعان ما سقط مصدراً دويًا قويًا. غير أنه عاود رفعه مجدداً، ونجح هذه المرة في رفعه إلى الأعلى بما يكفي لتمرير أصابعه تحته. إذا وقع مجدداً، فقد يكسر أصابعه. وبكل ما بقيت لديه من قوة، سحب الغطاء إلى الأعلى وأزاحه إلى جانب واحد، ففاحت رائحة التراب الرطب ومياه الصرف الصحي؛ مما جعله يكاد يختنق. أضاء الضوء الخفيف المتسلل من السماء الملبدة بالغيوم أولى

درجات سلم حديدي.

إنه لا يملك خياراً. لذا، أرجح ساقيه فوق الحافة، وبدأ ينزل. وعندما أصبح وجهه على مستوى الأرض، أمسك بحافة الغطاء وأعادته إلى مكانه مجدداً. كانت ثمة دعامة في الأسفل، وقد نجح في سحبها بروية إلى أن استقرت مجدداً في وضعيتها السابقة.

أمل أن يبدو المشهد من الأعلى كما لو أنه لم يتم تحريك الغطاء مطلقاً.

أراد البقاء هناك في العتمة لأطول وقت ممكن، متشبثاً بالسلم الحديدي، لكن هذا مستحيل. فالدرجات رطبة ومكسوة بالطحالب، ولم تبق هناك قوة في أصابعه. لذا، ما إن سمع صوت جزمة ترتطم بغطاء الفتحة وتتوقف حتى تشنجت أصابعه فوراً وأفلت السلم، فوقع وسط العتمة، ولكنه حاول عدم الصراخ.

الفصل الثالث عشر

حَضَّر شارلوك نفسه لهبوط محطم للعظام على الآجر أو الحجر، لكنه وقع بدلاً من ذلك في الماء؛ في ماء جارٍ شديد البرودة. بالكاد يبلغ العمق ثلاث أقدام، لذا لامس ظهره القعر. شق طريقه إلى السطح، وهو يختنق ويبقبق، وثبَّت نفسه عكس التيار، بوضع إحدى قدميه أمام الأخرى.

كانت العتمة تحيط به. وقف هناك وهو يشعر بأن البرد قد سلبه كل الدفء والقوة اللذين كان يشعر بهما. حاول لمس أطراف قناة التي وقع فيها، لكنه لم يجد أي شيء. كان صوت الماء غريباً أيضاً، إذ لم يكن صداه مثلما يفترض به أن يكون في نفق مكسو بالآجر.

وفيما اعتادت عيناه على العتمة، أدرك أنه يوجد ضوء في الأسفل؛ فغطاء الفتحة فوقه مثقوب بفتحات صغيرة تسلت عبرها أشعة من نور الشمس إلى الأسفل. وفي الأمام، وكذلك خلفه، توجد بقع مماثلة من الضوء. أياً كان المكان الذي وجد نفسه فيه، إلا أنه سيتمكن على الأقل من التحرك.

لاحظ أنه موجود في جدول ماء سريع التدفق. وعلى كلا الجانبين، على مسافة عشر أقدام تقريباً، بدلاً من الجدران الآجرية المقوسة المتوقع وجودها في أي قناة، كانت هناك كومة من الحجارة والوحل التي تنزل بعيداً عنه، وتشتمل على أعشاب ضارة ضعيفة وكتلات من الأعشاب البيضاء. وفي أعلى المياه القذرة، ثمة أقدام قليلة من الحجارة الآجرية التي تدعم سقفاً حجرياً يمتد بعيداً إلى الأمام والخلف.

تدلت الطحالب من السقف الحجري على شكل حبال طويلة، بدت بالنسبة إلى شارلوك مثل مجسات كائن غريب يتحسس فريسته. إلا أن صوت كشط مفاجئ جعله يجفل. مباشرة فوقه، تمت إزاحة غطاء الفتحة، فسطع شعاع كبير من النور القوي على المياه الموحلة التي وقف فيها. تحرك سريعاً بضع خطوات في اتجاه المياه المتدفقة كي لا يتم لمحه.

"أين هو؟" سأل صوت هامس من الأعلى. كان يتحدث بالفرنسية، لكن شارلوك كشف لكنة قوية؛ إنه رجل روسي المولد ربما. "هل نزل إلى هنا؟"

"لا أستطيع رؤيته". أجاب صوت أجش آخر باللغة نفسها وإنما من

دون اللكنة. "ما هذا الشيء؟ أهو نوع من قناة الصرف الصحي؟".
همس الصوت الأول: "ألا تعرف أي شيء؟ إنه نهر نيغلينايا القديم.
إنه يصب في نهر موسكو بعد مسافة ميل تقريباً. جرى طمره قبل نحو
خمسین عاماً عندما أعادوا تشييد المدينة".

نظر شارلوك حوله. لقد نزل إلى نهر وليس إلى قناة صرف صحي!
هذا منطقي. لا بد أنه مكشوف في مكان ما في الأعلى، لكنه مطمور هنا
في العتمة منذ خمسین عاماً.

نهر موسكو على مسافة ميل تقريباً نحو الأسفل! إذاً، يمكنه النجاة
بحياته!

قال الصوت الأجش: "لا بد أنه هنا في الأسفل. ما من مكان آخر
يمكنه الذهاب إليه. لكن، هل توجه نحو الأعلى أو الأسفل؟".

همس الرجل الآخر: "نحو الأسفل، فلا بد أنه سوف يجاري دفق
الماء. ففي النهاية، لا جدوى من السير عكس التيار". وصمت قليلاً وهو
يفكر، ثم قال: "عليك أن تنزل إلى هناك وتلحق به. اقتله إذا استطعت،
واترك الجثة مكانها لتتهرئ في الماء".

سأل الصوت الأجش: "لماذا لم نمسك به في الشارع مباشرة؟ لماذا كل
هذا السيناريو والادعاء بأنه سارق؟".

قال الصوت الهامس: "إن الإمساك به في الشارع سيلفت الأنظار، وقد
يتدخل أحدهم؛ فالشرطة منتشرة في كل الأرجاء. وتعليماتنا تقتضي بإبعاده
عن طريقنا. لا شك في أن اعتقاله هو الخيار الأمثل. لكن، بما أنه أصبح
الآن متوارياً عن الأنظار، فبإمكاننا التأكد من جعله متوارياً عن الأنظار إلى
الأبد. والآن، انزل والحق به".

"هل تمازحني؟! لا بد أن الماء على وشك التجمد! "

"هل لديك فكرة أخرى؟".

"نعم. اذهب أنت! "

زمجر الرجل ذو الصوت الهامس وقال: "إذا أردت التحدث إلى
الشرطي، فهيا لا تتردد. ولكنه لن يصغي إليك مثلما يصغي إلي؛ أنا الروسي
الأصيل. بالإضافة إلى ذلك، قلنا إن الولد أخذ محفظتي أنا، فكيف يمكن أن
أختفي فجأة وتحل أنت مكاني؟".

قال الصوت الأجش: "حسناً. ماذا ستفعل؟".

"سأجعل ذاك الشرطي الغبي ينظم بحثاً فوق الأرض؛ بمحاذاة نهر
نيغلينايا. سنلتقيك عند مصب نهر موسكو".

تسارعت الأفكار في عقل شارلوك. عليه أن يتحرك، وعليه أن يبدأ الآن قبل أن ينزل ذلك الرجل ذو الصوت الأجش السلم.

تحرك بعيداً؛ محاولاً عدم إصدار أي أصوات أثناء سيره. التف الماء البارد بعنف حول ساقيه، وتغلغل في حذائه وجورييه فيما كان يمشي، فيما شم رائحة قوية وكرهية. قد لا يكون هذا المكان قناة صرف صحي، لكنه أحس أن بعض الأشخاص يستخدمونه على هذا الأساس.

سمع أصواتاً خلفه، فيما نزل الرجل ذو الصوت الأجش على السلم ببطء. لا بد أنه انزلق أيضاً، لأنه سمع صراخاً مفاجئاً تردد صداه في الأرجاء، تلاه بعد لحظات صوت ماء. فجأة، اندفعت موجة من الماء من خلف شارلوك ودفعته إلى الأمام؛ فابتهج فرحاً في قرارة نفسه. فقد يكون محظوظاً؛ إذ ربما غرق ذلك الرجل! ثم سمع صوت بقبقة في العتمة، فانخفضت معنوياته مجدداً. عليه أن ينجو بنفسه بالطريقة الصعبة.

أحس شارلوك بوجود ضفتي النهر على الجانبين من دون أن يراهما، وتساءل عما إذا كان بوسعه تسلق إحدهما والخروج من الماء، لكنه سرعان ما رفض الفكرة. فحسب ما رآه، كانت الضفتان شديدي الانحدار وموحدتين؛ مما يعني أنه ثمة احتمال كبير بأن ينزلق ويقع في الماء ويخسر بضع دقائق من وقته الثمين. لا، مهما بدا الخيار جذاباً، فعليه التحرك قدماً في الماء؛ الماء البارد وكرهه الرائحة.

أدرك أنه يقترب من غطاء فتحة أخرى في السقف الحجري. إذًا، إن نور الشمس الخفيف والمتسلل عبر القرص المعدني سيلقي الضوء على كتفيه وأعلى رأسه إذا لم يتوخ الحذر ويبدل موقعه. تحرك إلى أحد الجانبين، واقترب أكثر من الضفة اليمنى. وبفضل الضوء الخفيف المتسلل إلى الأسفل مثل مطر متجمد، استطاع شارلوك رؤية درجات سلم نازل من الفتحة. كان مدعوماً في الأعلى، ومثبتاً ربما في قعر النهر. الدرجات والقضبان بدت متآكلة وصدئة ورطبة. لجزء من الثانية، تساءل شارلوك عما إذا كان يجدر به صعود السلم ومحاولة رفع الغطاء من الأسفل، لكنه سرعان ما طرد الفكرة من رأسه. فقد يحصل خطب ما، وقد يراه مطارده لحظة وقوفه تحت شعاع الضوء فيسحبه عن السلم. وإذا نجح بالصدفة في الوصول إلى الأعلى، فقد لا يتمكن من إزاحة الغطاء الثقيل. أما إذا فعل، فقد يخرج وسط الفريق الذي يبحث عنه في الشارع فوقه. إذًا، سواء أحب الأمر أم لا، عليه متابعة التقدم.

شعر شارلوك بأن أصابعه أصبحت ثقيلة في الماء فيما كان يشق

طريقه في النهر. ثمّة شيء لامس يده فأبعده عنه مصدراً صرخة مكتومة. وتخيل في عقله أنه جرد يسبح في المياه الملوثة، لكنه قد يكون مجرد قطعة نفايات تم رميها عبر نافذة مشبّكة أو فتحة في الشارع. ربما، لكن قلبه لا يزال يخفق بقوة مثل محرك بخاري، فيما يدها ترتجفان بشدة.

كان قعر النهر تحت قدميه موحلاً وغير مستوٍ، فعلقت قدماه باستمرار، وتوجب عليه الشد بقوة لإخراجهما. وحده الله يعلم كيف ستكون حال حذائه عندما يخرج؛ إذا خرج أصلاً. ثمّة نباتات أيضاً في الماء، بالإضافة إلى أعشاب ضارة التفت باستمرار حول كاحليه وأبطأت سيره أكثر فأكثر. وتوجب عليه هزّ قدميه إلى الأمام بعنف كي يقتلع الأعشاب الضارة من جذورها. وتخيل أن حذاءه صار مليئاً بالوحل، وأنه يترك كتلاً كبيرة من الأعشاب الضارة خلفه فيما هو يتحرك.

أصبحت الأصوات خلفه أكثر انتظاماً الآن؛ إذ تكرر الصوت نفسه مع تقدّم مطارده إلى الأمام. وأحدث تنفسه صوتاً خشناً ومن ثم صوت صغير مراراً وتكراراً؛ مثل آلة على وشك أن تصاب بعطل.

أجهد شارلوك عينيه في العتمة؛ على أمل أن يتمكن من تحديد شكل المخرج أمامه. توقع أن يكون متقوساً، أو أن تكون هناك فتحة دائرية تفضي إلى نهر موسكو الذي تخيله امتداداً كبيراً من الماء، وربما مع جسور فوقه؛ إلا أنه لم يستطع رؤية أي شيء، فالظلمة أمامه حالكة.

ماذا سيفعل لو كانت الفتحة تحت مستوى الماء، ولا يوجد فوق السطح أي شيء سوى حائط من الآجر لتحديد المكان الذي يصبّ فيه النهر؟ ماذا سيفعل لو كانت هناك نافذة "مصبغة" تفصل بين الاثنين؟ ماذا لو لم يستطع العبور، وتوجب عليه العودة ومحاولة المرور أمام الرجل الذي يطارده؛ الرجل الذي لديه أوامر بقتله؟ تصادمت هذه الأفكار في رأسه كالحجارة من دون أن تصل إلى أي مكان، وإنما ارتطمت ببعضها بعضاً مرسلّة موجات صدمية في دماغه.

عليه الإمساك بشيء ما، عليه التركيز إذا أراد النجاة بنفسه.

لامس شيء ما وجهه فجفل وكاد يبكي ذعراً، لكنه نجح في كتم الصوت، وذلك بوضع يده على فمه وعضها بقوة. أياً كان ذلك الشيء، فقد بدا ملمسه لزجاً وبارداً. لوّح بيده حول وجهه وأمامه، فالتفت شيء رطب حول معصمه، وأدرك بارتياح أنه مجرد واحدة من النباتات الطحلبية التي رآها سابقاً متدلّية من السقف. سحب يده بعيداً، فاقتلعت النبتة الطحلبية عن الحائط مصدرة صوتاً.

وفيما تحرك، أدرك شارلوك أنه فقد كل الإحساس في أصابع قدميه. وطوال الوقت، كان يسمع أصوات خطوات تتقدم خلفه... وصوت صفير ناجماً عن تنفس مطارده بصعوبة. وعندما نظر خلفه، لم يرَ إلا العتمة. في أية لحظة قد يشعر بيد بالقرب من كتفه تسحبه إلى الخلف، وتدفعه تحت سطح مياه نهر نيغليانيا، حيث سيغرق في العتمة الكاملة من دون أن يتم العثور على جثته مطلقاً.

فجأة، خطرت له فكرة فتردد؛ ربما يستطيع التسلق إلى إحدى ضفتي النهر وانتظار مرور مطارده. لذا، عندما عبر تحت غطاء الفتحة التالية، اقترب من حافة النهر مجدداً حيث ارتفعت الضفة كي لا يراه أحد، ومدّ يده إلى الأعلى وأمسك بكتلة أعشاب شاحبة يستطيع استخدامها لرفع نفسه إلى الأعلى.

فجأة، خرج شيء من العتمة وزمجر. مشى على أربعة قوائم، وكان رأسه مثلثاً، مع خطم مستدق وجمجمة متسعة في الخلف عند الأذنين الكبيرتين. كانت عيناه صغيرتين وداكنتين وبالكاد تشبهان العينين، لكن شفثيه مزمومتان إلى الخلف قدر المستطاع، فبدا فمه مليئاً بأنياب حادة مثل شظايا زجاج مكسور. أما الشعر البني والأسود الذي غطى جسمه فكان ملبداً ومرقعاً.

خلفه، تقدمت ثلاثة كائنات مماثلة له إلى الأمام. أدرك شارلوك أنها كلاب، لكنها لا تشبه أبداً الكلاب التي صادفها من قبل. فهي على الأرجح تعيش هنا في العتمة، جيلاً بعد جيل، وتتحدر من بعض السلالات التي وجدت طريقاً لها في النهر المظمور، وتقتات الجرذان وربما الأسماك. وبما أنها لم تستطع رؤية أي شيء، أغمضت عيونها التي توقفت عن العمل، وجعلت آذانها الكبيرة تعمل عوضاً عنها. واعتقد شارلوك أن الصوت هو كل شيء بالنسبة إليها.

للحظة، عاد به ذهنه إلى الأنفاق تحت محطة واترلو، وإلى الأولاد المتوحشين الذين هاجموه هناك، فأحسّ بالشفقة عليهم؛ وهذا الإحساس لم ينتبه حين كان يحاول الهرب منهم. فقد أُجبروا على العيش مثل الحيوانات المتوحشة، لكن على الأقل، الكلاب هنا في موسكو تملك المخالب والأنياب الحادة للصمود. أما الأولاد فلم يمتلكوا أي شيء باستثناء ذكائهم، وأحسّ شارلوك أنهم كانوا يخسرونه بسرعة أيضاً.

غضّ الكلب الأول أنفه، وبدا وكأنه يحاول شمّ الهواء، لكن رائحة العفن التي فاحت من النهر مثل الغاز جعلت الأمر شبه مستحيل تقريباً.

وتحركت أذناه فيما حاول عبثاً معرفة المكان الذي ذهب إليه شارلوك. كان يقف أمامه مباشرة ويده ممدودة، لكنه إذا لم يتحرك فلن يستطيع سماعه. على الأقل، هذا من الناحية النظرية.

كانت يد شارلوك باردة جداً، حيث توجب عليه إطباق قبضته للحؤول دون ارتجافها، لكن الخدر كان كبيراً جداً أيضاً، ولم يكن بالإمكان تحمله. وفجأة، ارتعشت أصابعه. إن صوت احتكاك الجلد بالجلد - الذي كان مثل الهمس بالنسبة إلى شارلوك - قد يكون مثل انفجار بالنسبة إلى الكلاب. وسرعان ما تقدم الكلب الأول خطوة إلى الأمام، فسحب شارلوك يده بعيداً، وأطبقت أنياب الكلب على بعضها في الفراغ. عندها، تراجع رأسه إلى الخلف وبدأ ينبج، وانضمت إليه الكلاب الثلاثة الأخرى، فتردد صدى الصوت عبر النفق.

تراجع شارلوك إلى الخلف، لكن الضجيج الذي نجم عن تحركه في الماء سهّل على الكلاب تحديد مكانه.

تقدم الكلب الذي كان يقود المجموعة بضع خطوات، وقفز نحو شارلوك فاتحاً فكيه.

في تلك الأثناء، التفت ذراع حول عنق شارلوك وأطبقت عليه بشدة. تسنى لمطارده الوقت الكافي للقول "نلت منك" قبل أن يرتطم به الكلب مثل قنبلة مدفع، ويطبق فكيه على ذراعه. لم يكن هو الهدف الذي أراده الكلب، لكن هذا الأخير لم يكن متطلباً، لذا عضه بقوة.

صرخ مطارده شارلوك صرخة عالية جداً بالنسبة إلى شخص ذي صوت أجش، وارتخت قبضته حول عنق شارلوك، فما كان من شارلوك إلا أن حرر نفسه.

وبفعل الضوء المتسلل من غطاء الفتحة، لاحظ شارلوك أن مطارده يتخبط في الماء ذهاباً وإياباً؛ محاولاً التخلص من الكلب. وقفز اثنان من الكلاب الثلاثة الأخرى التي تقف على الضفة نحو مطارده أيضاً. نزل أحدهما في الماء وانقضّ على ساق الرجل، فيما انقضّ الآخر على صدره وثبت فكيه حول حنجرتة؛ فوقع الرجل إلى الخلف في النهر المتسخ، وحرّك ذراعيه باهتياج شديد.

تراجع شارلوك في الماء بهدوء، فيما غاص الكلب الأخير في الماء واختفى. ولجزء من الثانية، فكر شارلوك في تسلق الضفة، لكنه تراجع عن ذلك حين أدرك أنه قد يكون هناك المزيد من الكلاب المختبئة، وتابع طريقه في الماء على مضض.

استطاع سماع أصوات تخبط ووعويل خلفه، ومن ثم أصوات تخبط،
وبعدها لم يعد يسمع شيئاً.

في تلك الأثناء، لمح شعاع ضوء بعيداً؛ بدا مثل مصباح زيتي معلق
على باب في ليلة معتمة. عندها، تقدم إلى الأمام، فالتف الماء حوله بقوة،
فيما حاول الإسراع في خطواته. ولدى اقترابه، أصبح الضوء ساطعاً أكثر فأكثر
وأزعج عينيه. كان الضوء منبعثاً من قنطرة، واستطاع شارلوك أن يرى
خلفها المياه الزرقاء المائلة إلى اللون الرمادي لنهر أكبر يصب فيه النهر
الذي يعبره بصعوبة حالياً.

اعتادت عيناه على ضوء النهار شيئاً فشيئاً لدى وصوله إلى القنطرة.
لم يجد قضباناً هناك، ولا "مصبغة" حديدية عند المدخل. تدفق نهر
نيغلينايا في نهر موسكو من فتحة عند الحافة موجودة على ارتفاع قدم
واحدة تقريباً فوق سطح الماء، مما جعل نهر نيغلينايا يشكّل شلالاً صغيراً.
تقدم شارلوك إلى الأمام نحو الحافة، وأمسك بالحجارة، ورفع جسمه
قليلاً ونظر إلى ضفتي نهر موسكو.

كان النهر يتدفق بين جدارين آجريين. وإذا كان هناك تراب، أو رمل،
أو أي شيء آخر في القعر فإنه مخبأ تحت سطح الماء. وعند النظر إلى
الأعلى، لاحظ شارلوك أن أعلى الفتحة التي يتدفق منها نهر نيغلينايا
موجود على مسافة ست أقدام تقريباً تحت مستوى الشوارع. وكان ثمة
سلم حديدي موجود مباشرة قرب الفتحة، درجاته صدئة، وطلاؤه الأسود
متقشر. لكن المشكلة - مثلما أدرك شارلوك - هي أنه إذا صعد السلم،
فقد يجد نفسه بين أيدي الشرطي والرجل الذي اتهمه بسرقة محفظته.
نظر مجدداً إلى طول النهر، ولاحظ شيئاً فاته من قبل؛ خطأً تراجع فيه
الحجارة عن ضفتي النهر مسافة قدم تقريباً. وتكرر ذلك كل ست أقدام
من الارتفاع، وكأنها محاولة من المهندس المعماري لضمان اتساع المسافة
فوق النهر كلما علا ارتفاعه؛ لتفادي الفيضان ربما. مهما كان السبب، ذلك
يعني أن شارلوك يملك طريقة للخروج. فكل ما عليه فعله هو شق طريقه
على ذلك الخط من الحجارة؛ تماماً مثل الرجل الذي يمشي فوق جبل
مشدود.

احتاج إلى نصف ساعة من السير بحذر. وكاد أثناء ذلك يقع ثلاث
مرات في مياه نهر موسكو المتدفقة تحته. بدأ يمشي وهو مبلى ويشعر
بالبرد، وانتهى به الأمر وثيابه جافة فيما هو متجمد. لكنه لم يكن واثقاً
مما إذا كان الهواء المنبعث من ضفتي النهر المرصوفتين بالحجارة هو ما

جففه، أم إن المياه تجمدت على ملابسه وتحولت إلى جليد. وعندما عثر أخيراً على سلم حديدي آخر صدئ نقله إلى السطح، كان محظوظاً كفاية برؤية موقد مليء بالفحم المشتعل على مسافة بضعة ياردات. وكان ثمة رجل روسي محلي يشوي الكستناء فوق الفحم. ومقابل بضعة كوبكات، سمح لشارلوك بالحصول على بعض الدفء قرب الموقد.

بعد نصف ساعة أمضاها جالساً قرب الموقد، وتناول خلالها كيسين من الكستناء المشوية، أحسّ شارلوك أنه بات قادراً على العودة إلى الفندق. وكان واثقاً تماماً من أنه يستطيع فعل ذلك بأمان. فما من أحد قد جاء في هذا الاتجاه من ضفتي النهر للبحث عنه، وبإمكانه القول إن الأشرار قد اكتشفوا أمره بالصدفة؛ تماماً مثلما فعل أولئك الموجودون في لندن. لذا، شكر بائع الكستناء وودعه، ثم انطلق بعيداً. شعر بالألم في ساقيه، وعانى من الصداع، وكانت ملابسه متيبسة بطريقة لم تكن عليها من قبل، لكنه على الأقل كان يشعر بالدفء بعد أن جفت ملابسه.

استغرقت رحلة العودة إلى الفندق عشرين دقيقة فقط. وعندما ملح الأبواب الرئيسة لفندق سلافيانسكي بازار كان متعرقاً بفعل المجهود الذي بذله. إلا أن رياح موسكو الباردة سلبتة كل الرطوبة المتجمعة على جبينه وجمّدت عرقه خلال لحظات. كانت هناك مشادة كلامية أمام الفندق، وكانت هناك عربة يجرها حصان أسود - من دون علامات أو إشارات واضحة - متوقفة قربها أيضاً. وبدلاً من أن يكون البابان من الجانبين، كان الباب في الجهة الخلفية. وكان الحوذي مرتدياً ملابس رمادية، ومعتماً قبعة من الفرو؛ تماماً مثل رجلين آخرين خرجا من الفندق واتجها نحو العربة. لكن الفرق بينهم هو أن الرجلين اللذين خرجا من الفندق كانا يجران رجلاً ثالثاً خلفهما. وقد ارتدى ذلك الرجل بذلة سوداء مرتبة ومعطفاً. إنه مايكروفت.

كان يحتج بصوت عالٍ ويتخبط، لكن شارلوك لم يستطع سماع ما قاله.

نزل الحوذي عن كرسيه، وساعد الرجلين على إدخال مايكروفت إلى العربة من الجهة الخلفية، ثم صعد الرجلان معه وأغلقا الباب. وبدا لشارلوك وكأن السائق قد أقفل الباب من الخارج، ثم جلس مجدداً على كرسيه، ونقر بسوطه على رؤوس الأحصنة، فانطلقت وجرت العربة بعيداً عن شارلوك.

أحس شارلوك بانهييار في معنوياته. فكل ما حصل معه خلال الساعات

القليلة الماضية، وخلال الأسابيع الماضية أفضى إلى هذه النتيجة الآن؛ وقوفه وحده في الشارع في مدينة غريية، فيما الشرطة السرية تقتاد أخاه بعيداً. حاول شارلوك التوصل إلى خطة معينة يستطيع بواسطتها إعادة مايكروفت، لكنه لم يتمكن من ذلك. إنه لا يعرف أبداً ما يجدر به فعله.

الفصل الرابع عشر

"إذا كنت حريصاً على حياتك وحریتك فلا تنظر!" . نظر شارلوك باتجاه مصدر الصوت، فرأى رجلاً يقف قربة مرتدياً معطفاً رثاً، وقد رفع ياقته فوق عنقه، وأنزل قبعة الفرو فوق عينيه. حتى إنه لم يستطع رؤية فمه.

"لماذا؟".

"لأن رجال المخابرات غير مرئيين. فهم يأتون ويأخذون الأشخاص من دون أن يراهم أحد. لا يراهم أحد لأن لا أحد ينظر".
"ماذا سيفعلون به؟".

قال الرجل: "إذا كان محظوظاً، فسيحظى بمحاكمة سريعة. وإذا لم يكن كذلك، فسيتم جلده".
سأل شارلوك مذعوراً: "كيف؟".

ارتعد الرجل بوضوح وأجاب: "إنهم يستخدمون الأسواط، أو ما هو أسوأ؛ أسوأ بكثير".

فجأة، أدرك شارلوك أن الرجل يتحدث بالفرنسية وليس بالروسية فسأله: "من أنت؟".

"اسمي روبرت ورمرسلي".

"أنت... صديق مايكروفت". كان على وشك أن يقول "عميل"، لكنه استبدل الكلمة في اللحظة الأخيرة.

"بالفعل". كان وجه ورمرسلي متيقظاً تحت قبعة الفرو فيما كان يتأمل وجه شارلوك. "وأنت أخوه؛ أخوه الوحيد. تملك العينين نفسيهما. كان يتحدث عنك كثيراً".

عاود شارلوك النظر إلى حيث استدارت العربة خلف منعطف وقال:
"لقد ذهب. ما الذي يجدر بنا فعله؟".

"سأخبرك بما لا يجدر بنا فعله. لن نعود إلى ذلك الفندق. لن نعود إلى ذلك الفندق لأنهم تركوا أحداً هناك بانتظارك". ونظر ورمرسلي حوله ثم تابع: "ثمة مقهى محترم في مكان غير بعيد عن هنا. دعنا ندخل بعض السائل الساخن إلى جسمك، فأنت تبدو وكأنك بحاجة إليه فعلاً، وأنا بحاجة حتماً إلى مكان لأجلس فيه وأرتاح لبعض الوقت. ونستطيع وضع خطة هناك".

"حسناً". كان شارلوك متعباً جداً، وأراد فقط أن ينتهي كل ذلك، كما

أراد أن يتحمل شخص آخر المسؤولية بدلاً عنه.
"فلنذهب".

كان المقهى يبعد مسافة عشر دقائق سيراً على الأقدام، ويقع في الطابق السفلي في مبنى مخصص للمكاتب، ويتم النزول إليه عبر مجموعة من الدرجات الحديدية. وفي الأسفل، كانت هناك باحة صغيرة، وباب زجاجي يظهر المقهى خلفه. مشى ورمسلي في المقدمة، وأرشد شارلوك إلى إحدى الطاوات، ثم توجه إلى رف البيع الصغير واشترى كوبين من الشاي تم سكبهما من إبريق كبير.

نظر شارلوك حوله إلى بقية الرواد. كان هناك رجال ونساء وأولاد يجلسون معاً في مجموعات أو بمفردهم، وجميعهم يرتدون الكثير من الملابس. وكان معظم الرجال يقرأون الصحف أو الكتب، وما من أحد ينظر في اتجاههما.

رگز شارلوك على رجل واحد تحديداً. وكان الرجل قد لف جسده بمعطف سميك ويتناول نوعاً من الفطائر. كان وجهه متورداً ويبدو مثل حبة بطاطا. ولم يكن قد سبق لشارلوك أن رآه من قبل، لكن ثمة شيء مألوف فيه.

قال ورمسلي: "بيروزخي". ووضع الطبق على الطاولة بينهما وشرح له: "إنها فطائر روسية تحتوي على بعض اللحم وبعض الخضار مع الكثير من التوابل". وخلع معطفه وقبعته ووضعهما على كرسي فارغ قربه. كان رجلاً نحيلاً، في العقد الثاني من عمره حسب تقدير شارلوك، ذا شعر أشقر خفيف، ولحية مرتبة تغطي وجنتيه، وشاربين نحيلين معقوفين وكأنه تم رسمهما بواسطة قلم رفيع.

ارتشف شارلوك القليل من الشاي الأسود بامتنان، ونظر مجدداً إلى الرجل الجالس إلى الطاولة المجاورة، محاولاً معرفة السبب الذي يجعله يبدو مألوفاً بالنسبة إليه، رغم كونه غريباً تماماً. أدرك شارلوك أن يده ترتجف، وأنه يعاني من ضغط كبير. ولكنه قال: "اعتقد مايكروفت أنه تم اعتقالك". "وهل اجتاز كل تلك المسافة للتحقق من ذلك؟! أجا مايكروفت إلى روسيا للتحقق؟! يا له من شرف كبير لي!". وابتسم ورمسلي.

"ماذا حصل؟". وضع شارلوك كوبه على الطاولة، وتناول قضة من إحدى الفطائر. كانت الحشوة لذيذة وساخنة؛ عبارة عن لحم مفروم وفطر. واحترقت شفتاه بفعل البخار المنبعث منها.
"عدت إلى منزلي ذات يوم فاكتشفت أن رجال المخابرات يفتشونه.

عرفتهم من بذلاتهم الرخيصة، فاستدرت ومشيت بعيداً قبل أن يدركوا أنني وصلت. ومنذ ذلك الحين وأنا أتنقل من فندق سيئ إلى آخر، ومن دون أن أمكث طويلاً في أي مكان. حاولت إخبار مايكروفت بما جرى، لكن كل مكاتب التلغراف خاضعة لمراقبة موظفي القيصر". وهزّ رأسه بأسف قبل أن يتابع: "من يصدق أن مايكروفت يبعد نفسه عن كرسيه المريح في لندن ويجتاز كل تلك المسافة للوصول إلى هنا؛ فقط للتأكد من أنني بخير؟!". قال شارلوك: "لا يقتصر الأمر عليك فقط". وأخبر ورمسلي بسرعة بما حصل في لندن وموسكو.

أسند ورمسلي ظهره على كرسيه، وارتشف الشاي ثم قال: "هذا مثير. بل إنه مثير وغريب".

قال شارلوك: "يبدو الأمر مثل امتلاك جزء من قطعة خزف صينية مكسورة. ولا أعرف ما هي النتيجة النهائية التي سأحصل عليها عند جمع كل الأجزاء معاً". واستوعب الكلمات فيما كان يتفوه بها، وتساءل عن سبب تشبيهه المسألة بقطعة خزف صينية مكسورة.

قال ورمسلي: "كل المسألة مرتبطة بسبب اعتقال مايكروفت. هل جاء إلى هنا باسمه الحقيقي أو باسم مستعار؟".

أجاب شارلوك: "جاء إلى هنا باسم السيد سيغرسون. إنه مدير فرقة مسرحية تؤدي عروضاً هنا بناء على دعوة تلقتها من أمير روسي؛ يوسوبوف. أعتقد أن هذا هو اسمه".

أوماً ورمسلي برأسه وقال: "إنه غطاء جيد. هل ذهب إلى شقتي؟".
"ذهبتنا كلانا".

"إذاً، ربما كان هذا سبب اعتقاله. فهم يراقبون الشقة، وتم توقيف مايكروفت على أساس أنه يعرف أين أختبئ".

"هذا غير منطقي". ساعد الشاي والفطائر دماغ شارلوك على التحرر من شلله، وتابع: "لو كان هذا صحيحاً لكانوا قد اعتقلوه - أو بالأحرى، اعتقلونا نحن الاثنين - في الشقة بدلاً من انتظار عودتنا إلى الفندق. ولا يبرر ذلك سبب محاولتهم اتهامي بالسرقة". وصمت قليلاً محاولاً استجماع شتات أفكاره، ومن ثم التفكير بدقة مثلما علمه أميوس غروي؛ على اعتبار أن الأفكار بمثابة آثار باقية في التربة والنباتات بعد مغادرة حيوان معين. في أي طريق ذهب الحيوان؟ وكم كان حجمه؟ وما هو عدد الحيوانات التي كانت موجودة؟

وفجأة، حبس أنفاسه عند إدراكه حقيقة مهمة. "يبدو وكأن منظمين

منفصلتين تعملان معاً. إحداها سرية تعمل على اتهام الأشخاص بأمر لم يرتكبوها، فيما الثانية تعتقل الأشخاص علناً وترميهم في العربات. واحدة غير رسمية، وأخرى رسمية".

أوما ورمسلي برأسه بحذر وقال: "أوافقك الرأي لغاية الآن. تابع".
"المنظمة الرسمية - أي المخابرات؛ مثلما أفترض - لا تملك سبباً أعرفه لاعتقال السيد سيغرسون، المدير البريء للفرقة المسرحية. ولكن من جهة أخرى، إذا عُرِفَ أن السيد سيغرسون هو في الواقع مايكروفت هولمز؛ الموظف المهم في الحكومة البريطانية، والموجود في موسكو في مهمة سرية، فسيمتلكون كل الأسباب لاعتقاله".

أوما ورمسلي برأسه مؤكداً: "بالطبع سيفعلون. لكن، من سيخبرهم؟! تلك المنظمة السرية العاملة في الظل ربما. لكن، لماذا ترغب تلك المنظمة في اعتقال مايكروفت؟".

فكر شارلوك هنيهة ثم أجاب: "ربما لإبعاده عن الطريق. لا، هذا غير منطقي. إذ ثمة طرائق أسهل لإبعاد شخص ما عن الطريق. لا، لا بد أنهم أرادوا اعتقاله". وصمت هنيهة، وهو يحاول استجماع أفكاره، ثم تابع: "لا بد أنهم أرادوا أن يتم اعتقاله من قبل قسم المخابرات الخاضع لأمره رجل قال مايكروفت إنه يعرفه: الكونت شوفالوف. فقد التقيا في فرنسا قبل بضعة أعوام".

أشار ورمسلي إلى شارلوك ليبقي صوته منخفضاً، وقال بنبرة تحذيرية: "من الأفضل عدم ذكر هذا الاسم في العلن. فالمخابرات تملك آذاناً في كل مكان. حتى إن ذكر أسمائهم كافٍ لجذب انتباههم".

كان شارلوك متحمساً جداً للتوقف. وبدا كما لو أنه ينظر إلى أحجية صور مقطّعة، ويحركها في عقله إلى أن يتمكن من معرفة حقيقة الصورة. أو كما خطر له مجدداً؛ مثل مجموعة أجزاء قطعة خزفية كان يجمعها في رأسه للحصول على شكل الإناء الكامل. بدا له جلياً الآن أن هذه المنظمة الثانية - أي المنظمة السرية - أرادت فعلاً أن يتم اعتقال مايكروفت لأنها عرفت أن الكونت شوفالوف سيستجوبه شخصياً. أخوه دبلوماسي مهم، وشوفالوف يعرفه. لذا، رأى شارلوك أنه من المستبعد أن يثق شوفالوف في أن يتم استجواب دبلوماسي مهم من قبل شخص ضئيل الشأن. وعلى الأرجح، لن يرغب في تواجد أي كان أثناء الاستجواب في حال تم الكشف عن أسرار دبلوماسية. سيكون الاستجواب عبارة عن محادثة مهذبة بين رجلين عرفا بعضهما في مرحلة معينة في الماضي، وستجري المحادثة في

مكتب شوفالوف؛ لأنه يشعر هناك بالارتياح وكأنه في المنزل، ولأن مايكروفت رجل مهم، ويستحق نوعاً من الاحترام.

فجأة، اتضحت الحقيقة في عقل شارلوك، وبدأت بدهية جداً وواضحة جداً؛ حيث شعر لهنيهة أنه منقطع الأنفاس لأنه لم يكتشفها سابقاً. لقد تم التخطيط لكل شيء منذ البداية. فكل ما حصل في لندن كان يهدف إلى دفع مايكروفت إلى موسكو! واتهامه بالجريمة في نادي دياغونيز لم يكن محاولة لمنعه من رؤية تلك التقارير في مكتبه، بل كان طريقة للتأكد من أنه سيراه. فإذا ظن مايكروفت أن تلك التقارير مهمة كفاية إلى درجة اتهامه بارتكاب الجريمة لمنعه من قراءتها، فسيخصص لها حتماً الكثير من الانتباه حين يعود إلى مكتبه! كانت الطعم في طرف قصبه صيد وصل خيطها إلى موسكو!

حدق ورمسلي في شارلوك بتمعن، لكن أفكار هذا الأخير كانت تدور في عقله بسرعة كبيرة، وتمنعه من الكلام. لقد اجتمعت أجزاء القطعة الخزفية الصينية في عقله الآن، وأصبحت التفاصيل أكثر وضوحاً. الفرقة المسرحية نفسها خدعة، مثلما أدرك شارلوك الآن مصدوماً. لا بد أنها كذلك. إذ إن التقرير عنها كان على مكتب مايكروفت الذي افترض حينها أن ذلك محض صدفة، لكن الأمر لم يكن كذلك. تلك المنظمة السرية- أياً كان رجالها- أرادته أن يكون في موسكو كي يتم اعتقاله، ولذلك أعطته سبباً للذهاب إلى هناك، ووسيلة للوصول. لقد تم تدبير كل شيء والتجهيز لذلك. امتلاً ذهن شارلوك بوجوه أعضاء الفرقة المسرحية: السيد كايت، السيد مالفين، الأنسة ديموك، السيدة لوران، من دون أن ينسى قائد الأوركسترا السيد إيفيس وموسيقييه. وماذا عن عمال المسرح؟ بولي وهنري وجوداه وريديان؟ هل كانوا جميعاً جزءاً من الخطة؟ هل كانوا جميعاً يمثلون؛ حتى غير الممثلين بينهم؟ إن ضخامة الخطة مذهلة فعلاً!

عند التفكير في المسألة الآن، يبدو كل شيء بدهياً جداً. فقد كانت هذه المنظمة السرية تعتمد على جعل مايكروفت مرتبكاً بعد توقيفه في لندن، وجعله يتشبث بأول فرصة تأتيه للسفر إلى موسكو. لكن شارلوك كان موجوداً هناك أيضاً، وكذلك أميوس غروي، ولذلك توجب على المنظمة إبعاد الاثنين من الطريق. ذلك يبرر الهجوم الذي حصل في المتحف. تتفاعل المنظمة مع الأحداث غير المتوقعة بشكل سريع، ولهذا السبب بدا من الصعب جداً فهم خططها.

أصبح شارلوك الآن يتنفس بسرعة، وجعله إدراكه أنه محق مليئاً

بالحماسة التي تدفقت في جسمه ودغدغت كل أعصابه.
تم التخطيط لكل شيء بكل التفاصيل؛ لجعل مايكروفت بمفرده مع الكونت شوفالوف، رئيس قسم المخابرات. أفضى كل شيء إلى هذه اللحظة. لكن، لماذا؟ عند التفكير مجدداً في كل ما حصل، يبدو الجواب بدهياً جداً بالنسبة إلى شارلوك أيضاً. فهم يريدون قتل الكونت شوفالوف، ويرغبون في إلقاء اللوم على مايكروفت. هذا هو نمط عملهم؛ إذ إنهم يتهمون الأشخاص بأشياء لم يفعلوها. فقد اتهموا مايكروفت بجريمة قتل، ثم اتهموا شارلوك بالسرقة.

التقت عينا شارلوك عيني ورمسلي، وقال فجأة: "وأنت جزء من هذا كله، أليس كذلك؟". خرجت الكلمات من شفثيه من دون أن يدرك، لكنه عرف أنها صحيحة. فقبل جزء من الثانية، امتلك عقله كل الأدلة الواضحة أمامه.

حدّق ورمسلي إلى شارلوك بإعجاب وقال: "أنت أخوه فعلاً. برافو!".
ساد الصمت في المقهى، وبدا لشارلوك وكأن كل الزبائن الآخرين توقفوا هنيهة عن الكلام أو الأكل والشرب، تاركين اللحظة تمرّ بهدوء. وبعد قليل، أوماً ورمسلي برأسه وقد ارتسمت ابتسامة على شفثيه الرقيقتين وقال: "طبعاً، أنا جزء من ذلك. لست متفاجئاً بتمكنك من اكتشاف الأمر؛ نظراً إلى كونك أخت مايكروفت. لكنني مهتم الآن بمعرفة الشيء الذي فضحني".

أجاب شارلوك، محاولاً إبقاء صوته هادئاً: "شيئان. أولاً، لحيتك طبعاً. إذ قلت إنك تهرب منذ أسبوع تقريباً، وتنتقل من فندق سيئ إلى آخر، لكن لحيتك وشاربيك مرتبة جداً. ولو كنت هارباً فأنا أعتقد أن هناك أموراً أكثر أهمية بالنسبة إليك من الاهتمام بوسامتك ومظهرك".
مرر ورمسلي يداً فوق ذقنه وقال: "ملاحظة جيدة. أنا لا أستطيع أبداً مقاومة الاهتمام بوسامتي. وما هو الشيء الآخر؟".

"شقتك. إذ يفترض أنه تم تفتيشها، لكن بعثرة الأغراض فيها كانت منظمة جداً". وأدرك شارلوك حينها أن هذا ما كان عقله يحاول توجيه انتباهه إليه حين فكر في أجزاء التماثيل المحطمة. "لو دخل أحد شقتك فعلاً لتفتيشها كلها، لكانت الأغراض مبعثرة عشوائياً. لكن كل الأواني الخزفية المكسورة كانت موضوعة فوق المفروشات المبعثرة. لقد دخل أحدهم الشقة، وحطم الأغراض بطريقة منهجية؛ الأغراض الكبيرة أولاً، ومن ثم الأغراض الصغيرة. ليس هذا بحثاً، بل إنه إعداد لمشهد". فأوماً ورمسلي برأسه قائلاً:

"سأتذكر هذا في المرة التالية. إن لديك مهارات ممتازة في الملاحظة يا سيد هولمز. هذا ممتاز فعلاً".

نظر شارلوك حوله وقال: "نحن في مكان عام، أليس كذلك؟ إذًا، لا يمكنك جرّي من هنا وأنا أركل وأصرخ من دون أن يتفاعل أحد".

"أوه، أعتقد أنك تقلل من أهمية القدرة الروسية على النظر بعيداً وعدم التورط". وضحك فجأة ثم تابع: "لكن، في حال رغبت في التجربة...". ونظر حوله إلى أرجاء المقهى الصغير، ثم نقر فجأة بأصابعه.

عندها، جميع من في المقهى استداروا للنظر إليه، من دون أن تظهر الدهشة على وجوههم. وبدوا كما لو أنهم جنود ينظرون إلى الضابط المسؤول عنهم بصبر، بانتظار أوامره.

حدق شارلوك إلى المرأتين الجالستين قرب الحائط البعيد. كانت إحداهما شابة ذات شعر بني مشدود إلى الخلف تحت وشاح، فيما الثانية في خريف العمر وتعتمر قبعة من الفرو. أهما الآنسة ديموك والسيدة لوران؟! لم يستطع التأكد؛ إلا حين ابتسمت له المرأة الشابة واستطاع فجأة رؤية الخط الرفيع في فكها تحت مستحضرات التجميل.

هل يمكن أن يكون الرجال السيد مالفين، والسيد فورنيس، والسيد إيفيس، ومختلف الموسيقيين الذين لم يحفظ شارلوك أسماءهم مطلقاً؟ قائد الأوركسترا، إذا كان هو من يظنه، فقد حلق شاربيه- أو على الأرجح نزع شاربيه الزائفين- لكن أحد الرجال كان طويلاً كفاية ليكون هو.

أما الرجل ذو الوجه الشبيه بحبة البطاطا فقد غمز شارلوك، ثم رفع يده وشدّ على بشرته المنتفخة، فتفشرت أجزاء منها مثل المعجون، وحين تخلص منها ظهر وجهه الحقيقي؛ وجنتاه المليئتان بالأوردة الحمراء وأنفه الشبيه بالقنبيط. إنه السيد فورنيس.

قال: "كم هذا مريح. فهذا يسبب الكثير من الحكاك! المعجون المسرحي، أتذكره؟".

وحين نظر شارلوك الآن إلى وجوههم بتمعن، لاحظ أن الأولاد الأربعة هم في الواقع جوداه وبولي وهنري وريديان. وكانوا يرتدون ملابس مُدْفِئَة، وقد فركوا وجوههم بالأوساخ، ووضعوا أسناناً زائفة فوق أسنانهم الحقيقية، كما وضعوا حشوات في وجناتهم لدفعها إلى الخارج، بالإضافة إلى القليل من مستحضرات التجميل لتعديل قسّمات وجوههم. أوماً بولي لشارلوك، فيما هزّ هنري كتفه بطريقة غير مبالية؛ كما لو أن هذا الأمر يحدث كل يوم. رغم اكتشاف شارلوك معظم ما يجري بفضل مجموعة سريعة من

الاستنتاجات، إلا أنه لم يستبق هذا الأمر.

سأل: "إذًا، ماذا سيحصل الآن؟".

قال ورمسلي: "الآن، سنجلس هنا فقط، وسنشرب الشاي ونأكل الفطائر. لن يزعجنا صاحب المقهى، فقد تم دفع مال كافٍ له كي لا يزعجنا. سنبقى هنا إلى أن يموت الكونت شوفالوف، ويتم اعتقال أخيك بسبب ارتكابه الجريمة".

سأل شارلوك: "لكن، ما النفع من كل ذلك؟ لماذا اجتياز كل تلك المسافة الطويلة لإحضار مايكروفت إلى موسكو؟ لماذا لم تقتل الكونت شوفالوف بنفسك؟".

هزّ ورمسلي كتفه وأجاب: "أنت لا تعرف كم هو محمي. فهو لا يظهر علناً أبداً، وحين يسافر يكون دوماً مصحوباً بحراس شخصيين يرافقونه منذ عشرين عاماً أو أكثر. وهم أوفياء له بشكل لا مثيل له. وعندما يسافر، يعتمد إلى إرسال مواكب عدة في اتجاهات مختلفة، ويمكن أن يكون موجوداً في أي منها. إنه رجل مهم؛ فهو الرجل الثاني بعد القيصر. صدقني، لقد جربنا مرات عدة. والحل الوحيد كان يتمثل في إنشاء وضع نعرف أنه سيكون فيه بمفرده في مكان وزمان نعرفهما".

"لكن، ما الذي فعله لك؟".

"إنه يعرف بشأننا. إنه يعرف ولا يوافق، ويريد إيقافنا".

"ومن أنتم؟".

"نحن بارادول تشامبر". قال صوت من وراء شارلوك.

أرسلت تلك الكلمات موجة ذعر في شارلوك، فأدار رأسه. السيدة لوران، المرأة التي كانت دوماً لطيفة معه، جاءت من طاولتها إلى طاولتهما. كانت لا تزال تبتسم ابتسامتها الودودة، وهي ملتفة بملابس جعلتها تبدو مثل جدة روسية. لكن، ثمة بريق قاسٍ في عينيها لم يلاحظه شارلوك قبلاً.

"ما هي بارادول تشامبر؟". كان الخوف وخيبة الأمل يبدوان بوضوح

في صوت شارلوك؛ لأن شخصاً راشداً استلطفه ووثق به قد خذله مجدداً.

قالت: "إنها منظمة أو نادٍ. إنها مجموعة من الأفراد الذين يفكرون بالطريقة نفسها. حالة عقلية. حتى إنها ربما دولة من دون أرض. كل هذه الأمور وأكثر. نحن الأشخاص الذين نرى كيف سيكون العالم مستقبلاً، وقررنا أننا لا نحبه. نحن الأشخاص الذين قررنا تغيير مسار التاريخ".

"إذًا، أكانت مسألة بيع ألاسكا إلى أميركا، واحتمال أن يتقاعس

الأميركيون عن الدفع فيتدخل الإسبانيون لشراء الأرض كذبة؟".

ضحكت ثم أجابت: "لا، كل ذلك صحيح. إنه صحيح، وإنما ليست له أي علاقة. كان ذلك بمثابة الطعم في الفخ. الأكاذيب الفضلى هي تلك التي تكون الأكثر حقيقية. لقد استفدنا فقط من وضع سياسي حقيقي، وجعلناه بمثابة طعم لأخيك. هذا، بالإضافة إلى اختفاء السيد ورمسلي هنا".

"ماذا عن مايكروفت؟ لماذا هو؟"

"كان خياراً مناسباً. فهو رجل أصبح معروفاً بكونه في قلب الحكومة البريطانية؛ رغم صغر سنه. سيكون صعباً على رئيس الوزراء عندكم أن يزعم أن مايكروفت هولمز كان شخصاً مثالياً ومتهوراً. لا أستطيع أن تخيل أياً كان بعيداً عن التهور أو المثالية بقدر مايكروفت هولمز. لا، عندما سيتهم مايكروفت بأنه قتل الكونت شوفالوف، ستعرف كل حكومات العالم أن بريطانيا ارتكبت جريمة سياسية عظمى، وستصبح دولة منبوذة. لن يصغي أحد إليكم بعد الآن، وسوف يخبو تأثيركم في الشؤون العالمية".

"وهل هذا مهم لكم؟ أهو مهم بقدر أهمية التخلص من الكونت شوفالوف؟"

أجابت السيدة لوران ببساطة: "نحن بارادول تشامبر. وعندما نفعل شيئاً ما، فلن يكون لدينا سبب واحد فقط للقيام بذلك؛ إذ إن كل عمل نفعله يخدم عدة قضايا. الأمر أكثر براعة بهذه الطريقة".

نظر شارلوك إلى ورمسلي بطريقة انتقادية وسأله: "لكن، لماذا أنت؟ لماذا تم استدراجك إلى كل هذه المسألة؟"

نظر ورمسلي إلى السيدة لوران كما لو أنه يطلب منها الإذن للتحدث، فأومأت برأسها.

قال ورمسلي: "لقد سافرت كثيراً، وأينما ذهبت، رأيت أشخاصاً يستغلون بعضهم بعضاً، ويستعبدون بعضهم بعضاً، ويؤذون بعضهم بعضاً. وكل ذلك يتم باسم السياسة والدين". وأوحى التعبير البادي على وجهه بأنه يتذكر أوقاتاً أخرى وأماكن أخرى. "العالم يغرق في الفوضى. ولا بد أن يتدخل أحدهم ويتولى المسؤولية". ثم ابتسم، وكانت الابتسامة حاملة وخطيرة في الوقت نفسه. "تخيل يا شارلوك حكومة عالمية! لم يكن هذا ممكناً أيام الإسكندر الكبير، وبات العالم أكبر اليوم! لذا، أشك في أن يحصل ذلك أثناء حياتي، لكنني أستطيع المساعدة لجعل الأمر ممكناً؛ وذلك بالعمل في منظمة بارادول تشامبر".

قالت السيدة لوران: "للتحلي بالمزيد من الواقعية، كان ورمسلي مسجوناً في اليابان. ولا يحب اليابانيون الغرباء. كان سيتم تعذيبه ثم

إعدامه، فأرسلنا له رسالة مفادها أننا سنخرجه من السجن إذا عمل لصالحنا".

قطب شارلوك جبينه وقال: "لكن، ثمة شيء لا أفهمه. سوف ينتهي الأمر بوجود مايكروفت والكونت شوفالوف في مكتب هذا الأخير بمفردهما. ماذا سيحصل حينها؟ وكيف سيموت شوفالوف؟ وكيف سيتم اتهام مايكروفت؟ لا يمكن استخدام حيلة السكين الجليدية مجدداً، أليس كذلك؟ لن يطعن الكونت نفسه بالتأكيد".

"كانت السكين الجليدية حيلة مفيدة، وتمريناً جيداً لاغتيالات قادمة، لكنك محق؛ لا نستطيع استخدامها مجدداً هنا. لا، نحن نملك خطة مختلفة، خطة أفضل".

سأل شارلوك: "وما هي؟".

أجابته السيدة لوران: "سنتركها مفاجأة، أليس كذلك؟".

هز شارلوك رأسه وقال: "هل كل خططكم معقدة هكذا؟ أعرف أن مايكروفت وصل إلى هنا وتم اعتقاله، وربما هو الآن على وشك الخضوع للاستجواب من قبل الكونت شوفالوف، لكن كان من الممكن أن يحصل خطب ما في عدد من الأمور في أية مرحلة. إذ كان هناك احتمال بالأطلاق الشرطة سراح مايكروفت، أو أن يقرر مايكروفت جعل زيارته رسمية وباسمه الحقيقي، أو أن يطلب شوفالوف من شخص آخر استجواب مايكروفت، أو قد يستجوب مايكروفت في زنازة؛ أقصد أن أية واحدة من حلقات السلسلة كان يمكن أن تنكسر. فاحتمالات حصول كل ما ذكرته على ما يرام ضئيلة جداً".

شرح ورمسلي: "لا تعتبر الأمر بمثابة سلسلة. بل اعتبره أكثر بمثابة- أوه، لا أعرف- شبكة صيد. فكل عقدة عبارة عن قرار، لكن هناك العديد من الطرائق للانتقال من جانب في الشبكة إلى آخر. فعلى سبيل المثال، لو لم تطلق الشرطة سراح مايكروفت، لكننا قد قدمنا له نصيحة قانونية مدفوعة من قبل محسن معروف جداً. ولكننا قد وضعنا تلميحات؛ تلميحات تقود الشرطة إلى دليل يساعد على تبرة اسم مايكروفت، رغم أن الأمر ليس سهلاً جداً. تفاجأنا عند تدخلك أنت والرجل الأميركي الضخم، لكن ذلك وفر علينا بعض المشاكل". وهز كتفه ثم تابع: "رغم أنه توجب علينا محاولة إبعادكما عن الطريق في المتحف، ومن ثم تعديل خطط سفرنا عندما اتضح لنا أن مايكروفت لن يسافر من دونك. ولو لم يأكل مايكروفت الطعام ويتوجه إلى موسكو، لكننا قد رفعنا درجة الخطر. إذ كنت

سأرسل له ربما رسالة خاصة أطلب منه فيها المساعدة. بطريقة أو بأخرى-
علماً أنه تم التخطيط للعديد من الطرائق- كان مايكروفت سيأتي إلى
موسكو. وحين يصبح في موسكو، فسنتمكن من إيصال الخبر إلى المخابرات
كي يتم إلقاء القبض عليه. يُقال إن العبقرية تكمن في الانتباه المفرط إلى
التفاصيل، وتملك بارادول تشامبر عدداً من العباقرة الذين يعملون لتحقيق
أهدافها. وهكذا، كل شيء يفضي إلى مسألة واحدة؛ اليوم عند الساعة
الثالثة من بعد الظهر، عندما يطلب شوفالوف إحضار مايكروفت إلى مكتبه،
سيموت".

سأل شارلوك بتعاسة: "لكن، كيف تعرف أن هذا سيتم عند الساعة
الثالثة؟". كان شارلوك يظن نفسه ذكياً، لكنه ذُهل فعلاً من الصبر
اللامتناهي والتخطيط الدقيق لمنظمة بارادول تشامبر.

قالت السيدة لوران بهدوء: "لدينا نفاذ إلى مفكرته. إذ إن هناك
سكرتيراً بسيطاً قد تمت رشوته. إنه لا يرى شوفالوف أبداً، ولا يقترب منه
أبداً بما يكفي لاغتياله، لكنه يعرف كل تحركاته. سيحصل شوفالوف على
فترة استراحة بين الساعة الثالثة والثالثة والنصف من بعد ظهر اليوم. وقبل
ذلك سيكون في اجتماع في الكرملن، وبعد ذلك لديه لقاء مع القيصر. وإذا
حصل الأمر اليوم، فإنه سيحصل عند الساعة الثالثة. أما إذا لم يحصل
اليوم، فإننا نعرف أوقات الفراغ في جدول أعماله لبقية الأسبوع".
"وماذا سيحصل لي؟".

نظر ورمسلي إلى السيدة لوران مجدداً، فقالت بهدوء: "أوه، أنت
تعرف الكثير. لهذا السبب التقاك ورمسلي قرب الفندق وأحضرك إلى هنا؛
إذ يجب علينا تحديد ما تعرفه وما قد تستنتجه من ذلك. والجواب هو
أنك تعرف الكثير، وأنت ذكي بقدر أخيك. أخبرنا البارون موبرتس بذلك،
لكن توجب علينا التحقق. لا يمكننا أن نسمح لك بالبقاء على قيد الحياة.
لذا، سيتم نقلك إلى الريف الروسي والتخلص منك هناك. وسوف تتولى
الدببة والذئاب محو الآثار نيابة عنا".

أحسّ شارلوك بقشعريرة تسري في جسمه. نظر حوله، ولم يستطع
رؤية أي طريق للهرب. كان محاطاً بعملاء بارادول تشامبر من كل الجهات.
وإذا حاول الهرب، فسينقضون عليه خلال ثوانٍ.

ومايكروفت؟ المسكين مايكروفت سيتم اتهامه بجرمة لم يرتكبها؛
مجدداً. لكن هذه المرة لن يكون هناك أي شخص لإثبات براءته. وقد
يفضي ذلك إلى حرب بين روسيا وإنكلترا. إذ إن حادثة دبلوماسية بهذه

الضخامة يمكن أن تغير التاريخ. لكن، أليس هذا ما تريده منظمة بارادول؟
قالت السيدة لوران للسيد فورنيس: "خذه بعيداً، واحرص على ألا
يكتشف أحد جثته أبداً".

وقف السيد مالفين خلف السيدة لوران، وكان يحمل صندوقاً خشبياً
لاحظ شارلوك أنه تم ثقب فتحات في أعلاه، لكنه لم يعرف السبب.
قالت لورمرسلي، وهي تشير إلى الصندوق وتلوح بيدها: "هذا لك. كن
حذراً. وتذكر، في تمام الساعة الثالثة".

واستدارت بعد ذلك نحو شارلوك وقالت له: "أرجوك أن تتفهم أن
المسألة ليست شخصية. فنحن لسنا عدائين تجاهك؛ بالرغم مما حصل مع
البارون مويرتس. إذ إنك مجرد حصة في الطريق؛ حصة علينا إزالتها قبل
أن تمرّ عربة التاريخ".

قال ورمسرلي، وهو يقف: "هيا، فلنأخذك إلى مكان في غاية الخطورة".
فجأة، تناثر الزجاج في الخارج على الدرجات المؤدية إلى الطابق
السفلي. فنظر شارلوك إلى الأعلى، فيما انفجرت ألسنة اللهب على منبسط
الدرج.

الفصل الخامس عشر

خلال ثوانٍ قليلة، امتلأ المقهى بالدخان الأسود الملوث، فشتم ورمسلي بصوت عالٍ، وحاول الإمساك بكتف شارلوك، لكن هذا الأخير تمكن من الهرب، فانقلب كرسيه إلى الخلف مما جعله يتدحرج على الأرض، ثم زحف بسرعة على أطرافه الأربعة تحت طاولة شاغرة. وفي تلك الأثناء، وقف بقية رواد المقهى- أعضاء الفرقة المسرحية الذين سافر معهم، وأكل معهم، ووثق فيهم- على أقدامهم مصدومين بالنار التي اشتعلت فجأة. فيما تحطمت الطاولات والكراسي على الأرض.

صرخت السيدة لوران: "أمسك به. أمسك بالصبي!".

في تلك اللحظة، كانت ألسنة اللهب قد وصلت إلى الجهة الأمامية الخشبية للمقهى، وتحطم الزجاج بفعل الحرارة، واشتعلت بعض الطاولات الأمامية- قرب الباب- بالنيران.

إلا أن شيئاً ما أمسك بذراع شارلوك وسحبه بعيداً؛ باتجاه الجهة الخلفية للمقهى. حاول المقاومة، لكن صوتاً ذا لكنة إيرلندية قال له: "إذا كنت ستثق في شخص واحد لمرة واحدة فقط في حياتك، فثق بي الآن يا صديقي".

روفوس ستون!

سمح شارلوك لروفوس ستون بأن يسحبه خلف رف البيع بمحاذاة الجدار الخلفي. رآهما أحد رجال ورمسلي- اعتقد شارلوك أنه السيد مالفين، لكنه لم يكن واثقاً- وحاول الإمساك بهما، لكن ستون دفعه على الأرض. كان ثمة باب صغير نصف مخبأ خلف رف البيع، فسحب ستون شارلوك عبره، ثم أغلق الباب خلفهما.

وجدا نفسيهما في مخزن مليء بأكياس كبيرة من الدقيق، وكومات الشاي المكدسة قرب الجدران. فبدأ ستون يكدها كلها خلف الباب، وساعده شارلوك في ذلك وهو يشعر بالألم في عينيه بسبب الدخان.

صرخ شارلوك عالياً: "كيف سيخرجون من هنا؟".

فأجابه ستون: "ليست هذه مشكلتي". ونظر إلى شارلوك، وعندما رأى التعبير الظاهر على وجهه أضاف: "يستطيعون استخدام بعض الطاولات الموجودة في الجهة الخلفية بمثابة دروع، وشق طريقهم للوصول إلى الدرج. وإذا كانوا سريعين بما فيه الكفاية، فيمكنهم الوصول إلى الطريق. ثمة أشخاص في الخارج سيحاولون إطفاء النار أيضاً. لا تقلق. لن نحكم عليهم

بالموت حرقاً، رغم أنني أرغب في ذلك كثيراً!".

"كيف أشعلت النار؟".

"المسألة بسيطة. ثمة بائع للشاي يجزّ عربته في الشارع. كان يستخدم محلولاً كحولياً لتسخين السماور".
"ماذا؟".

"إنه إبريق لإعداد الشاي، واسمه سماور. كان البائع يحمل قنينة تحتوي على محلول كحولي، فأخذتها منه، ورميت محتواها في الخارج فيما كانوا يركزون عليك، ثم رميت قصاصة ورق مشتعلة فوقها. وجاءت النتيجة جميلة؛ حتى إنني تفاجأت بها".

اقتاد ستون شارلوك إلى الجهة الخلفية للمخزن، حيث توجد بضع درجات حجرية تفضي إلى فناء صغير.
سأل شارلوك: "كيف وجدتني؟".

"كنت متوجهاً إلى الفندق للتحدث إلى السيد هولمز. رأيته أثناء اعتقاله، ثم رأيته وأنت تصادف رجلاً غريباً وطويلاً. شعرت بالحيرة، ولذلك لحقت بك إلى هنا. من الغريب كم يمكنك سماع أمور إذا تنصت خارج نافذة مفتوحة".

"هل سمعت كل شيء؟".

كان وجه ستون حزيناً وهو يجيب: "نعم".

أفضى الفناء إلى ممر ممتد بين المباني. فانعطف ستون إلى اليمين ومشى بسرعة، وتوجب على شارلوك الركض تقريباً للحاق به.
سأل شارلوك منقطع الأنفاس: "إذاً، ماذا سنفعل الآن؟".

"سننوجه إلى السفارة البريطانية ونضع أنفسنا تحت رحمة السفير. هذا ما سنفعله".

"لا! ". توقف شارلوك في مكانه.

فألح عليه ستون: "هيا، نحن نجازف بحياتنا في كل لحظة نمكثها في الشارع".

وقف شارلوك في مكانه وهو يبدو عنيداً وجريئاً ومتعجباً جداً، وقال بحزن: "علينا إنقاذ أخي".

"اسمع يا صديقي، بات أخوك خارج نطاق المساعدة الآن. وأفضل ما يمكننا فعله هو ترك الدبلوماسيين يتوصلون إلى حل. بصراحة، هذه هي الأمور التي يعملون من أجلها؛ الأزمات الدبلوماسية الطارئة، بالإضافة طبعاً إلى حفلات الكوكتيل. وإذا كنا محظوظين، فقد يتمكنون من الوصول إلى

الكونت شوفالوف قبل أن يفعل ورمسلي أو السيدة لوران ذلك". ونظر إلى الخلف في اتجاه المقهى وتابع: "الأمر مرتبط بنجاحهما في الخروج من هناك سالمين. لقد أفسدنا خطط المنظمة أصلاً، أو أحرقناها". وابتسم.

قال شارلوك: "قد لا تكون خططهم مرتبطة بوجودهم. فالسيد كاي لم يكن في المقهى. لا مجال أبداً لأن يكون قد تنكر، وهو ربما من يدير محاولة الاغتيال".

حدّق ستون إلى شارلوك هنيهة ثم قال: "أعرف هذا التعبير البادي على وجهك؛ فقد سبق لي أن رأيته هو نفسه عندما حاولت تعلم النغمات الموسيقية على متن الباخرة "إس إس سكوتيا". أنت شاب عنيذ، أليس كذلك؟".

هزّ شارلوك كتفه، وشعر ببعض الإحراج المؤقت، وتمتم: "إنها ميزة عائلية".

فزفر ستون الهواء بقوة، وقال أخيراً: "حسناً، فلنذهب إلى المبنى حيث يقع مكتب شوفالوف؛ فقد نتمكن من نقل رسالة تحذيرية إلى الحراس الواقفين عند الباب، أو ما شابه".
"هل تعرف أين يقع المكتب؟".

ابتسم ستون بحزن وقال: "ساحة لوبيانكا. إنه عنوان معروف في موسكو، رغم أن عدداً ضئيلاً من الأشخاص يخرجون منه بعد دخوله". وتحقق من ساعته ثم قال: "لا نملك الكثير من الوقت. فإذا كان توقيت ورمسلي صحيحاً، فسيتم إحضار مايكروفت لرؤية شوفالوف خلال عشرين دقيقة تقريباً".

استدار شارلوك ونظر حوله ثم قال: "لا أرى أي عربات".
فقال ستون: "لا يمكننا الانتظار، وبإمكاننا الوصول إلى هناك بسرعة سيراً على الأقدام عبر اجتياز الممرات".

سار ستون في المقدمة، واجتاز الممرات والشوارع كما لو أنه عاش في موسكو طوال حياته، ولحق به شارلوك. مرت المباني أمامهما بسرعة؛ الألوان مختلفة، ولكن الهندسة المعمارية نفسها. ابتعد الناس عن طريقهما فيما كانا يركضان، غير راغبين في النظر إلى أحد. وطارت مجموعات من طيور الزرزور والدوري حين اندفعا بينها. كان الهواء بارداً جداً. ورغم أن شارلوك أحسّ بالعرق الساخن يتقطر بين ضلوعه وعموده الفقري نتيجة التعب، إلا أنه أحسّ أيضاً بوخز في وجهه فيما اصطدمت كريات الثلج بشرته. تخيل وجنتيه مغطاتين بآلاف الجروح الصغيرة نتيجة كريات الثلج. وذكّرته هذه

الفكرة بوجه السيد كايث، والجروح الصغيرة حول عينيه وعلى وجنتيه وأنفه، فتساءل عن سببها، وافترض أنه لن يعرف أبداً.

خفق قلبه بإيقاع متوازن مع سرعة قدميه. كان قد سبق له أن شارك في سباقات مدرسية، ولكنها كانت قصيرة ومكثفة. أما هذا فأشبهه بماراثون من دون نهاية، ولا يستطيع أحد تحمله.

شعر شارلوك بكل عظمة في جسمه تهتز أثناء ركضه. كان الثلج يغطي الأرض في كل مكان. وفي مرحلة ما، فيما كان يركض في طريق ويتفادى مختلف العربات والمقطورات، داس على قطعة جليد، فانزلقت قدمه إلى الخلف. أحس للحظة مريعة أنه سيسقط، ولوح بذراعيه في الهواء فيما اندفع جسمه إلى الأمام محاولاً المحافظة على توازنه. بدت تلك اللحظة وكأنها استمرت إلى الأبد، لكنه ارتطم أخيراً بامرأة روسية كانت تمر أمامه وقد التفت بطبقات عدة من الملابس، ونجح في استعادة توازنه، وقال لها بصوت عالٍ: "عذراً".

حاول إجبار ساقيه على التحرك بسرعة أكبر؛ إذ كان ستون يسبقه بأشواط.

فجأة، اختلقت رفرقة طيور الزرزور والدوري التي حلقت حوله مع رفرقة في زوايا عينيه، وبدا له العالم وكأنه ينطبق على نفسه فيما طارد الشكل المنطلق بسرعة الذي يدعى روفوس ستون.

وفي النهاية، بدأ ستون يبطئ خطواته، واحتاج إلى اجتياز مسافة ممر كامل كي يتوقف. توقف شارلوك قربته وهو يشعر كما لو أن رثتيه تحترقان، ثم تنشق كميات كبيرة من الهواء، وانحنى واضعاً يديه فوق ركبتيه. كان الأمر أشبه بتنفس النيران. وكان ستون متكئاً على حائط مجاور وهو يسعل.

بعد دقيقة تقريباً، تعافى الاثنان من المجهود الذي بذلاه؛ بما يكفي للتكلم مع بعضهما.

قال ستون: "نحن في ساحة لوبيانكا". وهز رأسه مشيراً إلى المبنى في الجهة المقابلة من الطريق وتابع: "هذا هو المقر الرئيس للقسم الثالث".

تأمل شارلوك المبنى الذي بدا أشبه بقلعة؛ فالنوافذ صغيرة وضيقة، وهناك قضبان أمام الزجاج. أما الحجارة فحمراء ناعمة ولا يستطيع أحد تسلقها، والأبراج مستدقة الرؤوس في الزوايا، ويملك الحراس الموجودون فيها رؤية ممتازة لجوانب المبنى، ويستطيعون ربما إطلاق النار على أي مهاجم. في الجهة المقابلة من الطريق، توجد بعض المقطورات والعربات

المركونة قرب الرصيف كي يتمكن سائقوها من الاستراحة. وهي موجودة هناك أيضاً في حال غادر روسيون مهمون المبنى، أي أغنياء يستطيعون إيجاد وسيلة نقل لهم على الفور.

سأل شارلوك بصوت أجش: "أي واحد هو مكتب الكونت شوفالوف؟". تأملت عينا ستون مختلف النواذ ثم قال: "لن أشير إليه، فأنا لا أريد لفت المزيد من الانتباه إلينا أكثر مما فعلنا للتو بعرضنا الرياضي. انظر إلى البرج الموجود إلى اليسار، ثم انظر إلى حافة السقف إلى أن ترى نافذة مفتوحة أكثر من بقية النواذ، وناتئة قليلاً عن المبنى. هذا هو مكتبه". وصمت وهو يسعل مجدداً ثم تابع: "انتبه إلى القضبان الإضافية الموجودة هناك، وحقيقة عدم إمكانية الوصول إليه من الأسفل أو الجانب أو الأعلى؛ إذ لا توجد أفاريز. والزجاج داكن كي لا يتمكن أحد في الخارج من التصوير على هدف في الداخل. وإذا نظرت حولك فستلاحظ أن هذا المبنى هو الأطول في المنطقة؛ مما يعني أنه لا يوجد موقع ممتاز يمنح الأفضلية لشخص بارع في الرماية. أما المكان في الداخل فسيئ بالطريقة نفسها. وتقول التقارير إنه عليك اجتياز ست نقاط تفتيش قبل أن تصل إلى الحراس الواقفين خارج باب مكتبه؛ علماً أن شوفالوف قد اختارهم بنفسه. لا أعرف فعلاً كيف يأمل ورمسلي أن يتمكنوا من اغتيال الرجل".

حذق شارلوك إلى نافذة المكتب ثم تحقق من ساعته. كانت الساعة الثالثة تقريباً! وإذا كانت منظمة بارادول محقة - ويعتقد أنها محقة دوماً - فإن مايكروفت الآن في طريقه إلى المكتب!

نظر حوله باحثاً عن أي شيء خارج عن المألوف؛ أي شيء قد يعطيه تلميحاً بشأن ما يمكن أن يحصل لاحقاً.

ثم لاحظ شيئاً وقال: "لا طيور".

"ماذا؟".

"لا توجد طيور هنا! المدينة مليئة بطيور الزرزور والدوري، لكن أين هي الآن؟ فأنا لا أرى أيّاً منها".

نظر ستون حوله ثم قال: "أنت محق. لكنني لست واثقاً من الفكرة التي تحاول إيصالها".

"ما الذي يبعد الطيور؟".

هزّ عازف الكمان كتفه وأجاب: "الهررة؟".

"الهررة نعم. والطيور الأخرى؛ الطيور الجارحة".

قطب ستون جبينه، ثم اتسعت عيناه حين فهم. "آه، ذلك الصقر

الذي أخبرني عنه مايكروفت، ذاك الذي هاجمك في المتحف في لندن! هل تظن أنها كانت خطة ورمسلي؟".

ألح شارلوك قائلاً: "انظر إلى نافذة المكتب. لا أحد يستطيع الوصول إليها، ليس من الخارج ولا من الداخل حسبما قلت. لكن الطائر يستطيع التحليق إلى هناك".

"وماذا سيفعل؟ لن يتمكن الطائر من طعن شوفالوف أو إطلاق النار عليه. وإذا هاجمه بمخالبه، فلا مجال أبداً لكي ينجح ورمسلي في جعل مايكروفت مسؤولاً عن الهجوم".

كانت أفكار شارلوك تتصارع في ذهنه وتدور في كل الاتجاهات. "عندما هاجمني ذلك الصقر في المتحف، كان هناك شيء مثبت على مخالبه؛ شيء بدا لي مثل الشفرة الحادة. تخيل أنه تم اصطحاب مايكروفت إلى مكتب شوفالوف، وأنه عبر كل نقاط التفتيش، وأصبح شوفالوف ومايكروفت بمفردهما في المكتب. ولا تنس أن ورمسلي قد درّب الصقر للتحليق والدخول عبر النافذة المفتوحة والانقضاض على شوفالوف مباشرة. سيدبحه من حنجرتة فوراً بواسطة الشفرة، ثم سيطير إلى الخارج مجدداً. وعندها، سيصرخ شوفالوف ربما، أو سيطلب مايكروفت المساعدة، وسيهرع حراس شوفالوف إلى الغرفة. كل ما سيرونه هو شوفالوف الذي ينزف حتى الموت نتيجة جرح بليغ في حنجرتة، فيما مايكروفت واقف في الغرفة التي لا يستطيع أي شخص آخر دخولها أو الخروج منها".

قال ستون: "لكن مايكروفت لن يحمل سكيناً".

"لا يهم. كل الأدلة ستكون ضده، وسيفترضون أنه رمى السكين، أو شفرة الحلاقة أو أي شيء خارج النافذة".

"لست أكيداً... ماذا لو كانت النافذة مغلقة؟".

"عندها، قد يستعملون ربما المقلع والحصى لتحطيم النافذة كي يتمكن الصقر من الدخول عبرها. ووسط الارتباك الذي سيلبي الحادثة، سيفترض الحراس أن مايكروفت قد حطم النافذة في محاولة منه للفرار. هذه هي بارادول تشامبر. إن أعضاءها يفكرون في كل شيء. هذا منطقي الآن؛ فأنا لم أفهم قط سبب تعرضي لهجوم الصقر في المتحف. فمن الذي يأخذ معه صقراً حياً إلى متحف فيه حيوانات محنطة؟! لا بد أنهم كانوا يدرّبونه هناك، ويستعملون المتحف بمثابة قاعدة لعملياتهم".

عادت ذكرى إلى عقله، فوضع يده داخل جيب سترته. هناك، بالقرب من القنينة الزجاجية التي أحضرها من نادي دياغونيز والتي أخذها من

سترة الرجل الميت، عثرت يده على الشكل الصغير للفأرة الميتة التي وجدها في القطار في طريقهم من دونكيرك إلى موسكو ثم نسي أمرها. أطبقت راحة يده عليها تماماً، وأخرجها من جيبه وقال بإلحاح: "لا بد أنها من مخزون طعامه. وجدتها في القطار. لا بد أن السيد كايث كان يعتني بالطائر، ولهذا السبب أمضى الكثير من الوقت في حجرته أثناء الرحلة. فقد كان يبقي الطائر هادئاً ويطعمه، ويحرص على عدم فراره".

نظر ستون حوله وقال: "لنفترض أنك محق. من أين سيطلقونه؟".
"من مكان قريب. من مبنى ربما؛ إذا استطاعوا النفاذ إلى السقف أو إلى غرفة فارغة". ونظر شارلوك حوله بانتباه وتابع: "أو ربما من مكان ما في الشارع".

وتسمرت نظراته على عربة سوداء متوقفة في الجهة الأخرى من الشارع. كانت مثل بقية العربات الأخرى التي مرّت أمامه، لكن ثمة شيئاً ما فيها لفت انتباه شارلوك. ربما كان ما لفت انتباهه ضخامة السائق، أو الطريقة غير البارعة التي حاول فيها إخفاء لحيته الحمراء الكثيفة تحت وشاح.

قال بعجلة: "هناك. تلك العربة".
نظر ستون إلى حيث أشار شارلوك وقال: "إنه السيد كايث".
"أعتقد ذلك".

"وورمرسلي موجود في الداخل مع الصقر؛ إذا كنت محقاً". وانتقل نظره إلى المبنى المخصص للقسم الثالث وقال: "علينا الذهاب إلى مكتب الاستقبال، والطلب منهم نقل رسالة إنذار إلى الكونت شوفالوف".
قال شارلوك: "لا وقت لذلك!".

وفي العربة، تم فتح النافذة المواجهة للمبنى لترك فجوة. ثمة شيء ظهر في المربع الداكن. وكل ما استطاع شارلوك رؤيته داخل العربة هو ذراع؛ ذراع عليها طائر ذو ريش بني. إنه ربما الطائر الذي هاجمه في المتحف في لندن، أو ربما كان طائراً مختلفاً، لكنه يبدو مميتاً مثله.

وسمع شارلوك صفيراً منخفضاً عبر الأجواء؛ ثلاث نغمات. إنه الصفير نفسه الذي سمعه في المتحف.

تمتم ستون: "نغمة إي مسطحة، ونغمة ج حادة".
وسرعان ما طار الصقر محلقاً في الهواء بقوة دافعة من رجليه، ومن ثم خافقاً بجناحيه بقوة مرة، مرتين، ثلاث مرات، إلى أن صار يحلق عالياً

في السماء. هبط قليلاً بفعل الجاذبية، غير أنه وجّه نفسه، ثم خفق بجناحيه مجدداً ليرتفع أكثر فأكثر. ولمعت الشمس بحدة على شفرتين معدنيتين معقوفتين مثبتتين على رجلية؛ مباشرة فوق مخالفه.

صفر الرجل الجالس في العربة - ورمسلي ربما - مجدداً، مصدرًا نعمات مختلفة هذه المرة، فعُدّل الصقر مساره وانحنى قليلاً إلى اليسار ثم ارتفع إلى الأعلى. كان الصغير يرشده إلى النافذة الصحيحة! لا بد أن ورمسلي قد درّبه على نسخة مطابقة للمبنى، أو على شيء مطلي بالطريقة نفسها، فهو لن يجازف أبداً. وكان يوجه الطائر تماماً إلى حيث أرادته أن يذهب.

قال ستون: "لقد تأخرنا".

أجاب شارلوك: "لا". وكانت هناك ثقة في صوته فاجأته شخصياً. "لا!"

وأحكم قبضة يده - تلك التي كانت تمسك بالفأرة الميتة - ثم فتحها. ووازن جسده وذراعه اليسرى الممدودة أمامه، ثم رمى الفأرة؛ تماماً مثلما يرمي اللاعب طابطة الكريكيت.

انطلقت الجثة الصغيرة في الهواء في اتجاه النافذة المفتوحة، فيما صفر شارلوك محاولاً محاكاة صوت صغير ورمسلي، فأدار الصقر رأسه ليرى من تجرأ على إطلاق الصغير، إلا أن الفأرة الميتة التي بدأت بالهبوط نحو الأرض لفتت انتباهه، فانعطف في منتصف الهواء، ثم نزل نحو الأسفل. كانت الفأرة تسقط بفعل الجاذبية، لكن الصقر دفع نفسه إلى الأمام بخفقتين قويتين بجناحيه، ثم طواهما بالقرب من جسمه. انطلق في الهواء بسرعة، والتقى مساره مع مسار الفأرة.

فتح منقاره ومن ثم أطبقه، فاخفت الفأرة بعد أن ابتلعها كلها دفعة واحدة.

ملاً المزيد من الصغير الأجواء فيما حاول ورمسلي بإلحاح السيطرة على الطائر مجدداً، لكن الجوع تغلب على التدريب. وكان شارلوك يعرف أنه يجب إبقاء الصقور جائعة، وإلا فستفقد الاهتمام بما يريد مدربوها منها فعله. انعطف الطائر على شكل قوس كبير عائداً نحو العربة، نحو أقرب شيء إلى العش في الوقت الحاضر؛ إلى الصندوق المغطى الذي تم إعطاؤه إلى ورمسلي في المقهى.

وفي العربة المعتمدة من الداخل، رأى شارلوك عبر فتحة النافذة وجه ورمسلي يصبح شبيهاً بوجه الشبح، ومليئاً بالحرمان والإحباط.

حاول شارلوك تذكر النغمات التي سمعها في المتحف؛ تلك النغمات التي حثت الصقر على الهجوم. أجبر دماغه على تذكر النغمات. فهو يستطيع العزف على الكمان لدرجة ما، وبالتالي يستطيع قراءة النوتات الموسيقية، ويستطيع حتماً التعرف إلى نغمة موسيقية إذا اضطر إلى ذلك. وما هي إلا لحظات حتى صفر بصوت عالٍ، وكرر النغمات التي تذكرها. وفيما كان الصقر ينزل نحو العربة سمع الإشارة، فبسط مخالبه، وكشف عن الشفرتين الحادثتين والقاتلتين المثبتتين على رجليه؛ بدلاً من أن يحضّر نفسه للهبوط على الذراع الممدودة أمامه.

غاص عبر نافذة العربة، وانقضّ على وجه ورمسلي. فجأة، دوى صراخ قوي من داخل العربة، وارتجت العربة كلها على عجلاتها فيما تصارع ورمسلي مع الطائر في الداخل، فاستدار كايث الذي يجلس في المقدمة إلى الخلف ليرى ما يحصل. أما الحصان الذي كان مربوطاً إلى أحد الأعمدة فأجفل، ورفع قائمته الأماميتين إلى الأعلى. صرخ شارلوك مخاطباً ستون: "هيا، ألقِ أنت القبض على كايث، فيما أقبض أنا على ورمسلي".

"لكن... "

"هيا! "

لن يسمح لأحد من منظمة بارادول بالهرب؛ خصوصاً إذا كان بإمكانه إيقافه. فالمنظمة تتحمّل مسؤولية وقوع الكثير من الوفيات، ويتوجب على أعضائها تقديم الكثير من الشروحات. سوف يُخرج ورمسلي من تلك العربة بيديه العاريتين، وسيُجبره على إخبار الكونت شوفالوف بما كان ينوي فعله بالضبط.

أدرك شارلوك أن ستون قد تجاوزه متوجهاً نحو كايث المنهمك، فأسرع بدوره نحو أقرب باب في العربة. وحين اقترب منه، فُتح الباب بقوة، ودفعه إلى الخلف، ورماه في الشارع. قفز ورمسلي إلى الخارج، مبعداً الصقر عن رأسه ومحاولاً رميه في اتجاه شارلوك. كان وجهه وقميصه ملطخين بالدم، وظهرت الجروح التي سببها المنقار على جبينه، بالإضافة إلى الجروح في حنجرته.

خفق الصقر بجناحيه وحلّق بعيداً. لقد أنجز مهمته التي دُرّب عليها بشكل جيد، وكل ما يريده الآن هو حرّيته. أما ورمسلي فمسح وجهه الذي بدا بفعل الدم كقناع قرمزي لمعت فيه عيناه غضباً بكم قميصه، وصرخ عالياً: "لقد أفسدت كل شيء أيها الحقير! احتاجت هذه الخطة إلى

أعوام من التحضير، وأنت دمرتها في لحظات!".
قال شارلوك: "استسلم، فلا مجال للهرب". وكان مستعداً في حال تقدم
ورمرسلي نحوه.

"هناك دوماً مجال للهرب". ومدّ ورمرسلي يده خلفه وأخرج شيئاً من
العربة. بدا ذلك الشيء في يده مثل طوق - طوق من لعبة طفل - لكنه
هزّ يده، ففتح ذلك الشيء على الأرض.
إنه سوط، ولكنه ليس مثل أي شيء سبق لشارلوك أن رآه من قبل.
ليس مثل ذلك الذي استخدمه السيد سورد؛ خادم البارون موبرتس، لجلده
قبل أشهر عدة. إذ يبدو هذا السوط وكأنه مصنوع من معدن مجدول،
فيما ربط في طرفه مخلب معدني حاد.
سأل ورمرسلي: "هل تذكر عندما أخبرتك عن السوط الروسي؟ حسناً،
سوف تتعرف إليه أكثر".

وضرب بالسوط بشكل عنيف ومفاجئ، فأطلق طرف السوط صوتاً
فيما كان يشقّ الهواء. عندها، جفل شارلوك وابتعد إلى جانب واحد، فيما
مرّ الطرف المعدني المعقوف أمام أذنه وعلق في سترته، وسحبه ورمرسلي إلى
الخلف، فاندفع جسم شارلوك إلى الأمام وقد فقد توازنه، ووقع على يديه
وركبتيه على الأرض المغطاة بالثلج.

تحرك ورمرسلي خلف شارلوك، ولف السوط حول حنجرتة، وشدّ بقوة
مرجعاً عنق شارلوك إلى الخلف وقاطعاً عنه الهواء.
فجأة، صار شارلوك يرى كلّ شيء أحمر اللون، وعبثاً حاول إدخال
الهواء إلى صدره، لكنه لم ينجح في ذلك بسبب الحلقات الفولاذية للسوط
المنغرزة في لحمه. حاول جاهداً إقحام أصابعه تحت المعدن، لكن ورمرسلي
كان يشدّ بقوة كبيرة؛ حيث لم يترك له أي فجوة يمكنه تمرير أصابعه
عبرها.

بدأ الضباب الأحمر أمام عينيه يتحول إلى الأسود، وتضاءل العالم أمام
ناظريه وتحول إلى سحابة ضبابية من الضوء والضجيج، فحاول ضرب ساق
ورمرسلي بأن أرجع قدمه اليمنى إلى الخلف. لكن هذا الأخير أبعد ساقيه
عن بعضهما، وانحنى إلى الأمام لخنق شارلوك، وانغرزت براجمه في الجهة
الخلفية لعنق شارلوك.

وهمس ورمرسلي وهو يضع رأسه بالقرب من أذن شارلوك: "مت!
فقط مت!".

حاول شارلوك إيجاد أي شيء على الأرض يستطيع استخدامه لجعل

نفسه منتصباً، ولامست يده الجهة الخارجية لجيب سترته، فأحس بشيء قاسٍ ومقوس في الداخل؛ إنها قارورة الرذاذ التي أخذها حين كان في نادي دياغونيز؛ تلك التي تم استعمالها لتخدير مايكروفت.

وفيما تحولت رؤيته إلى اللون الأسود وامتلت أذناه بصوت خفقان قلبه، استخدم شارلوك آخر ما بقي لديه من قوة لإخراج القارورة من جيبه، ثم تلمسها محاولاً وضع إبهامه على الزر النابض في الأعلى. لم يعرف الاتجاه الذي سيخرج منه الرذاذ، لكنه وضع القارورة فوق رأسه وضغط على الزر باهتياج شديد.

خلفه، شهق ورمسلي وتلاشى الضغط الذي تمارسه يده، فوقع شارلوك إلى الأمام؛ مدخلاً كميات كبيرة من الهواء إلى رئتيه. ثم استدار وتمدد على ظهره رافعاً يديه لصد أي هجوم قد يقوم به ورمسلي مجدداً. لكن، حين صارت رؤيته أكثر وضوحاً، رأى شارلوك ورمسلي يقف جامداً في مكانه، ويحدق في اللاشيء، وتعبير ذهول يبدو على وجهه. فأغمض شارلوك عينيه، وأرجع رأسه على الطريق المرصوفة بالحصى.

فجأة، أمسكت يدان بشارلوك وسحبته بعيداً. ظن لوهلة أنه السيد كايث، لكن يدين آخرين فكتا السوط المعدني والجلدي الملتف حول عنقه. وحين أدار رأسه، وجد نفسه محاطاً بمجموعة من الجنود الذين يرتدون بذلات زرقاء ورمادية. كان ثمة جندي يمسك به، فيما جندي آخر يحرره من السوط الروسي. وهناك جندي ثالث يمسك بورمسلي الذي لم يعد بالإمكان تقريباً التعرف إلى وجهه المتورم والمغطى بالدم. وثمة جندي رابع يسحب روفوس ستون من الجهة الأخرى للعربة. كان ستون ينزف من جرح في ذراعه، جرح اخترق سترته السميكة ووصل إلى اللحم تحتها. ولكن، لا أثر للسيد كايث.

كانت الدقائق القليلة التالية ضبابية. فقد تم إدخال شارلوك وروفوس إلى المبنى في ساحة لوبيانكا، وجرى دفعهما وجرهما في الأروقة المعتمدة وعلى الأدراج. ولم يعد بإمكان شارلوك معرفة مكانهما. وفي النهاية، تم اقتيادهما أمام حراس يرتدون بذلات رسمية، وأمام سلسلة من المكاتب المتصلة ببعضها.

وفي المكتب الأخير، وقف رجلان في انتظارهما.

كان أحدهما يرتدي بذلة رسمية، لكنها كانت مزخرفة أكثر من البذلات التي ارتداها الجنود، مع رداء فضفاض فوقها. كان في العقد الرابع من عمره، وذا شعر رمادي حليق تقريباً، فيما شارباه معقوفان عند

الطرفين. أما الرجل الآخر فكان في العقد الثاني من عمره، وقد ارتدى بذلة
سوداء ومعطفاً مقلماً.

قال مايكروفت بهدوء: "أوه، شارلوك، إنه الكونت شوفالوف. حضرة
الكونت شوفالوف، اسمح لي بأن أقدم لك أخي، شارلوك".
حدّق شوفالوف إلى شارلوك، ثم نظر أخيراً إلى مايكروفت، وقال
بانكليزية ممتازة: "نعم. أعتقد أنه يشبه والدك".

الفصل السادس عشر

كانت غرفة الطعام في نادي دياغونيز صامتة جداً، ولهذا السبب تدبر مايكروفت أن يتم تقديم وجبة الطعام لهم في قاعة الغرباء. فهناك، يستطيعون هم الأربعة إجراء محادثة معقولة. جلس مايكروفت إلى رأس الطاولة، وشارلوك إلى يساره، وأميوس غروي إلى يمينه. أما روفوس ستون فجلس قبالة.

نظر شارلوك حوله، ووجد صعوبة في تذكر أن هذه الغرفة هي الغرفة نفسها التي بدأ فيها كل شيء. تحقق من السجادة بحثاً عن بقع الدم، وامتدكراً الرجل البائس الذي كان يائساً جداً لتحصل عائلته على بعض المال بعد وفاته إلى درجة أنه قتل نفسه مسبقاً بناء على تعليمات منظمة بارادول؛ لمجرد دفع مايكروفت للذهاب إلى روسيا. إما أنه تم تنظيف السجادة بطريقة بارعة، أو جرى استبدالها بالكامل.

كان مايكروفت وغروي يناقشان ما ستفعله الحكومة الأميركية بالأسكا الآن؛ بعد أن تم دفع ثمنها أخيراً. فحوّل شارلوك انتباهه إلى عشائه. قدّم الندل الصامتون أطباق الحساء على الطاولة.

حدّق غروي إلى السائل الأحمر القشدي بتردد، وسأل: "هذا ليس معداً طبعاً للاستهلاك البشري! يبدو وكأنه مصنوع من دم البقر والحليب". أجاب مايكروفت: "إنه بورشت؛ حساء الشمندر الروسي مع السميتانا، أو الكريما الرائبة. فقد رأيت أنه يجدر بنا أن نتشارك ذكرى بسيطة من مغامراتنا معك. وكان الطاهي عندنا متعاوناً جداً، ومغامراً على غير عادته. لم أكن واثقاً من أنه يستطيع إعداد أي شيء غير حساء ويندسور البني، لكنه كان تواقاً للتحدي".

قال ستون: "بالحديث عن التحديات، هل من أخبار عن السيد كايث؟". ووضع يده اليسرى على ذراعه اليمنى، حيث أخفت الضمادة جرحاً عميقاً. كانت ثمة نبرة في صوته أوحى لشارلوك بأنه لم ينفِ أمره مع الرجل الضخم ذي اللحية الحمراء بعد. لكن مايكروفت هزّ رأسه الكبير بحزن وقال: "لا شيء. يبدو أنه اختفى. أفترض أن منظمة بارادول تبحث عنه في مكان ما؛ على افتراض أنهم يسامحون طبعاً".

سأل شارلوك: "ماذا عن باقي أفراد فرقة كايث المسرحية؟".

"كما هي حال السيد كايث؛ إنهم مفقودون، وعلى الأرجح مختبئون". كان وجهه صارماً. "أن تكون قريباً إلى هذا الحد من بارادول تشامبر - أن

تكون قريباً من السيدة لوران التي أعتقد أنها الآن واحدة من الأعضاء الأكثر أهمية - ولا تدرك ذلك... فهذا يخيفني يا شارلوك. لقد تأثر عقلي باتهامي بالجريمة، ومن ثم باحتجائي؛ وإن كان ذلك قد حصل لفترة وجيزة. ولكن، كان يجدر بي إدراك أن ثمة أمراً غريباً يتعلق بتلك الفرقة. كان يجدر بي إدراك أنه تم الإيقاع بنا منذ البداية".

"وورمرسلي؟".

"الآن، أملك جواباً. لأسباب يمكن فهمها، لن يطلق الكونت شوفالوف سراحه. إنه يتعفن في إحدى زرنانات ساحة لوبيانكا. هذا مثير للسخرية فعلاً؛ لأننا اجتزنا كل تلك المسافة للوصول إلى موسكو لأنني اعتقدت أنه موجود هناك". وتنهى ثم تابع: "لقد تغير، ولم يعد الرجل الذي اعتقدته. لكنني أفترض أن السفر في أرجاء العالم يفعل بك هذا، ولهذا السبب أنوي السفر بأقل قدر ممكن في بقية حياتي".

تمتم غروي وهو لا يزال يحرق إلى الوعاء بتردد: "أنا متفاجئ لأن شوفالوف صدقك بهذه السهولة". وحرك الحساء بملعقته بعناية.

فقال مايكروفت: "هذه سخرية أخرى. عرفت شوفالوف أقل بكثير مما عرفت وورمرسلي، لكن في النهاية صمدت العلاقة المبنية على الثقة وانهارت العلاقة الأخرى. أنا وشوفالوف نفهم بعضنا بعضاً، ونفكر بالطريقة نفسها. وعندما تم إبلاغه بأنه جرى توقيفي، اتصل بالمسؤولين على الفور، وطلب إحضاري إليه. شربنا الشاي معاً، وتحدثنا بطريقة متمدنة جداً، واعتذر عن أي سلوك سيئ يمكن أن يكون قد صدر عن رجاله. وأنا بدوري اعتذرت عن وصولي إلى بلاده من دون إنذار ملائم. هكذا يجب أن تتم العلاقات الدولية؛ بتهديب ولباقة، ومن دون استعمال صقور مدرّبة كوسائل للقتل".

"وهل صدق كل القصة المجنونة؟".

"عندما أخبره شارلوك قصته، بدا جلياً أن الأدلة قد دعمتها. فقد رأى الناس الصقر بمخالبه المعدنية وهو يدخل العربة، ورأوا الشجار الذي نشب بين شارلوك وورمرسلي، والشجار بين السيد ستون والسيد كاي. وقد تلقى شوفالوف أصلاً تقارير عن اعتقالي هنا في لندن بسبب جريمة معينة. إذ إن لديه عملاء في لندن طبعاً، مثلما لديّ - أو كان لديّ - في روسيا".

وصمت قليلاً وهو يفكر ثم تابع: "لكن عملاءه لا يعملون سراً ربما مع منظمة بارادول؛ وهذه نقطة لصالحه في لعبتنا المستمرة".

سأل شارلوك: "لعبة؟!".

"أعني الصراع الاستراتيجي المستمر بين روسيا وبريطانيا العظمى

للسيطرة على آسيا الوسطى؛ أفغانستان والهند. فنحن نطلق عليه اسم اللعبة العظيمة".

فقال شارلوك: "والدي في الهند. وهو يحارب هناك. هذه ليست لعبة يا مايكروفت".

امتلك مايكروفت اللباقة، وبدا خجولاً وهو يقول: "أنت محق يا عزيزي. ليست لعبة، وطبعاً ليست لعبة عظيمة. ولكن، عند الجلوس هنا في لندن، على كرسي هزاز مريح، فمن المحتمل أن يغفل المرء عن ذلك. وإذا كان الوقت الذي أمضيته في روسيا قد علمني شيئاً، فهو أن القطع التي نحركها في لعبة الشطرنج هي أشخاص حقيقيون، وذوو مشاعر حقيقية. سوف أذكر هذا الدرس جيداً". وابتسم بتردد قبل أن يتابع: "لكنك ذكرتني بأنني ما زلت أدين لك بأن أريك رسالة والدي التي أرسلها من الهند، والتي جئت خصيصاً من فارنهام لرؤيتها. إنها معي، وسأجعلك تقرأها لاحقاً".

تنحى أميوس غروي وسأل: "إذاً، ما هي الخطة؟". وحاول جدياً تغيير الموضوع. "إلى أين سنذهب من هنا؟ أنا شخصياً أنوي قضاء بعض الوقت مع ابنتي".

فقال مايكروفت: "وأنا أنوي العودة إلى مقر سكني ووظيفتي". وقال شارلوك بحزن: "أما أنا فأفترض أنني سأعود إلى هولمز مانور؛ إلى منزل عمي وزوجته، والسيدة إيغلانتين الرائعة". ونظر إلى روفوس ستون. ولهنيهة، عادت به الأفكار إلى فارنهام، والمرأة التي كانت تراقبه ومن ثم اختفت في الممشى. في ذلك الوقت، افترض أنها السيدة إيغلانتين، لكنه لم يعد واثقاً الآن. إذ ربما كانت الآنسة أيوف ديموك تتحقق من شقيق مايكروفت قبل أن تبدأ منظمة بارادول بتنفيذ خطتها المعقدة. أو ربما كانت السيدة إيغلانتين. وقرر شارلوك أنه حين يعود إلى هولمز مانور سوف يحل هذه المسألة الغامضة تحديداً، ويعرف طبيعة العلاقة التي تربطها بعائلته.

سأل مايكروفت: "ماذا عنك سيد ستون؟". قاطعاً بذلك حبل أفكار شارلوك.

ابتسم ستون ونظر إلى شارلوك، فلمعت السن الذهبية في الجهة الخلفية من فمه تحت نور الشمعة، وقال: "فهمت أنك تملك آلة كمان جيدة. وكنت آمل في أن أسمعك وأنت تعزف عليها مرتين أسبوعياً، ولمدة ساعة في كل مرة. هل يناسبك يوماً الثلاثاء والخميس؟".

فأجاب شارلوك: "ممتاز.

انتهى